Thèse Présenté par

FETHI, Rekik

UNIVERSITY TUNIS

Migration et développement regional dans le sud Tunisien

1990

CODESRIA Documentation and Information Centre - CODICE

الجامعة التونسية
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

Programme de Petites Subventions
ARRIVEE
Enregistré sous le no 0524
Date 23 JAN. 1991

قسم علم الاجتماع

أطروحة دكتوراه مرحلة ثالثة

الهجرة والتنمية الجهوية بالجنوب التونسي
دراسة حالة: ولاية مدنين

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

تحت اشراف
الأستاذ: فرج اسطنبولي

إعـــداد
فتحي الرفيق

1990

المقدمة

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

Dédicace

Je dédie ce livre à la famille CODESRIA qui m'a comblé de sa générisité en acceptant de m'accorder une subvention pour le financement de ma thèse de Doctorat de 3ème cycle intitulée "Migration et développement régional dans le Sud Tunisien. Etude de cas: Gouvernorat de Mednine.

Donc, à tous les membres de cette famille, j'adresse mes remerciements tout en souhaitant que ma modeste contribution soit à la hauteur de leurs attentes et que ce travail, infime soit-il constitue un apport pour la compréhension et l'édification de notre chère AFRIQUE.

Signature

Rekik Fethi

Sfax le 10-1-91

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

1- أسباب اختيار الموضـــوع

هناك أسباب ذاتية و أخرى موضوعية وهذه بدورها تتفرع الى مجموعتين الاولى على علاقة بجهة مدنين نفسها والثانية ببرنامج التنمية الريفيـــة.

الاسبـــاب الذاتيـــة

يقدم المجاز في علم الاجتماع- وهذا كلام قلته في مقدمة الاطروحة الاولى لنيل شهـــادة الكفاءة في البحث- على التدريس بالتعليم الثانوي بفتور كبير. ورغم النجاح الذي قد يحالفـــه و التجاوب الذي قد يلقاه من التلاميذ، فانه لا يستطيع أن يشعر بالترضية المهنية. ولهذا يتشبث - و أنا مثله - بخيط الدراسة أملا في استمرار العلاقة بعلم الاجتماع.

لكن تشبثي بعلم الاجتماع ليس في آخر الامر الا علامة من علامات الرغبة في المشاركـــة - مهما تكن متواضعة - لتوضيح الواقع وتعلقه قصد المساهمة - مع الذين يريدون المساهمـــة - في عملية التغيير الاجتماعي.

الاسبـــاب الموضـــوعيـــة

لماذا جهة مدنين ؟

أ و لا : مدنين مثل غيرها من جهات الجنوب وداخل البلاد التونسية لا تزال شبه مجهولـــة و الدراسات التي اهتمت بها تعد على الاصابع. لذا أعتقد أن أية دراسة تنجز حولها هي اضافة ضرورية للالمام بالواقع.

ثـانيـــا : كل دراسة ميدانية تتطلب بالضرورة اتصالا بالميدان، وبحكم مهنتي - أستاذ تعليم ثانوي - التي أمارسها في بنقردان، فان هذا الشرط متوفر.

ثالثـــا : في منتصف الثمانينات قدم الباحث سالم الدغري أطروحة عنوانها " تجربة تونس في التنمية الريفية " ركز فيها اهتمامه على ثلاث مناطق واحدة بالشمال والثانية بالشمال الغربي والثالثـــة بجهة قابس. واضافة واحدة أخرى حول مدنين تمكن و لا شك من امكانية للمقارنة لا غنى عنهـــا في الدراسات الميدانية.

و الان لماذا التنمية الريفية ؟

ان تعدد برامجها وتنامي اعتماداتها يبدوان لنا غير منسجمين مع خطاب سياسي تصاعد أكثر

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

فأكثر في السنوات الاخيرة عن "رهان التصدير" و "محركة التصدير" و "تشجيع التصدير".
هذا التصدير الذي أضحى مشكلة في تعقد مستمر منذ أواسط السبعينات بسبب ضيق أبواب السوق الاوروبية المشتركة (السوق الاساسية للصادرات التونسية) بفعل الاولوية التي تعطى لصادرات بعض أعضاء المجموعة الاوروبية والتي لها نفس المواد التي تصدرها تونس أو بحكم أن أسعار الانتاج التونسي من الغلاء بحيث لا يقوى على المزاحمة وفرض النفس.

غير أن هذا العجز الذي رافق تسويق الانتاج التونسي لم يثن الدولة عن سياسة التصدير. لذلك لم تطرح هذه الاخيرة على نفسها السؤال: نصدر أم لا نصدر؟ وانما: ماذا نصدر؟ ومن هذا المنطلق نفهم الالحاح الكبير والمسموع - وهنا نتحدث خاصة عن عشرية الثمانينات - على الفلاحة (والتصدير الفلاحي) لما لها من قدرة على المنافسة تقوم على اعتبارين اثنين :

أولا : اعتبار تقني فالانتاج الفلاحي لا يتطلب تكنولوجيا متطورة بمثل التطور المطلوب في الانتاج الصناعي .

ثانيا : اعتبار طبيعي فخصوصية المناخ التونسي تهيء الفلاح لانتاج بضاعة خصوصية في مأمن نسبي من المنافسة .

واذا أخذنا هذه الملاحظات بعين الاعتبار فاننا نجد ما يفسر - و أكثر اهتمام الدولة بقطاع الفلاحة العصري التصديري لكننا لا نستطيع فهم الاهتمام المتزايد أيضا - والمتزامن معه - بقطاع فلاحة بالاساس غير تصديرية و انما معاشية . صحيح أن بعض المشاريع الفلاحة المندمجة تنتج بعض الخيرات التي تصدر (الفستق مثلا) لكنها تبقى قليلة العدد والاثر زيادة عما يتوفر فيها من امتيازات لا يعرفها أغلب منتفعي برامج التنمية الريفية.

هيكليا ، من السهل فهم هذا التزامن اذا ذكرنا بأن نمط الانتاج الرأسمالي المعمم عالميا وان يكن يسعى الى السيطرة على عملية الانتاج بكل أركان الارض، فانه يحتاج أيضا الى الابقاء على بعض الانماط الانتاجية الاخرى لما توفره له من امتيازات أبرزها رخص تكلفة اعادة انتاج قوة العمل. لكن هذا التفسير يبقى " ميتافيزيقيا "(أو ميتا - اجتماعيا حسب عبارة توران) اذا لم ننتبه الى العلاقة الاجتماعية " فكل علاقة اقتصادية هي أيضا

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

علاقة اجتماعية "(1). ان ما يهمنا اذن هو الاثار التي تحدثها هذه السياسة التنموية على مستوى التحالفات الاجتماعية والسياسية ، وعلى مستوى تناسق نتائجها العامة بما ضبطته من أهداف.

2 - تحديد الموضوع : (2)

هذه الاطروحة هي امتداد لاطروحة أخرى عنوانها " الهجرة والسكن في بنقردان" أنجزتها سنة 1985 باشراف أستاذي فرج اسطنبولي للتأهل لنيل شهادة الكفاءة في البحث. أقول امتدادا لان السهم التنموي الذي يُرى في عنوان الاطروحة الثانية هو الذي كان وجه الاطروحة الاولى التي ألخص نتائجها فيما يلي : حين تمارس الهجرة لا كما تنظمها الدولة (هجرة الشغل) وانما كهجرة سرية ("كترة") وحين يستعمل فضاء الفيلا لا كما يفترض نمط الحياة المديني الجديد ، و انما كما تقتضي بنية العلاقات العائلية و العشائرية ، فان شرعية الدولة المبنية على التنمية تصبح موضع تساؤل. واذا كان الامر كذلك ، بسبب الخياب التنموي للدولة فكيف هو في حالة حضورها التنموي من خلال برنامج التنمية الذي تعده وتخطط له بنفسها .

واذا أردنا الحديث عن هذا البرنامج فيجب حينئذ ادراجه في اطار سياسة السبعينات التنموية التي تضمنته وجاءت لتمحو حدا لسياسة العشرية السابقة تجربة حكم عليها بأنها " لا عقلانية "لانها بدورها قد حكمت على كل ماهو تقليدي بأنه بالضرورة

I) F. H. Cardoso - E. Faletto- Dependance et developpement en Amérique Latine. PUF. 1978.

2) كان من المفروض أن تحمل هذه الاطروحة عنوان برنامج التنمية الريفية باسم البرنامج القديم ، لكن بعد أن أضفنا الى اهتمامنا الاول البرنامج الجديد أي برنامج التنمية الريفية المندمجة في مرحلة أولى ثم بعد صدور منشور 3 فيفري 1987 القاضي بتجميع كل البرامج تحت اسم البرنامج الجهوي غيرنا العنوان الذي أصبح الهجرة والتنمية الجهوية بالجنوب التونسي - دراسة حالة مدنين -

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

" لا عقلاني " و الحال أن تجارب تنموية مختلفة كالتي عرفتها القارة الاسيوية - و أشهرها تجربة اليابان - بينت أن التنمية العقلانية ليست اقتلاعا ميكانيكيا لما هو تقليدي وتعويضا له بما هو عصري . أو لم تسمى تجربة اليابان "الاوتوقراطية التحديثية"؟ .

وهكذا أغلق ملف " التنمية الشاملة " ملف بيروقراطية الدولة التي اعتبرت مخططاتها الالزامية المنزلة على المجتمع ، ريفه ومدينته تجسيدا لكليانيتها . وفتح ملف الدولة " المتفتحة " على المجتمع "مجتمع الوسط" الذي " يرفض التطرف " حتى ولو كان " بحجة تحقيق العدالة الاجتماعية ". فاذا كانت " ثورة التواصل "(التلفزة - الاذاعة المدرسة . . .)قد جعلت كل هذا المجتمع بمجموعاته المختلفة جهوية و طبقية تتحمس للحداثة بنفس الدرجة فان هذه الاخيرة (أي المجموعات) ليس لها نفس الموارد المادية ولا الاستعدادات المعنوية لتتحول كلها في آن واحد من حالة "التقليدية " الى حالة " الحداثة " .

و حين يتضح لنا أن التنمية لم تعد " تحولا شاملا " و أضحت " تحولا مرحليا " (متفاوتا) فاننا نستبدل مفهوم التنمية بمفهوم آخر هو مفهوم التعبئة الاجتماعية الذي كان كارل دويتش أول ما صاغه وجينو جرماني أفضل من طوعه في اتجاه بلورة تصور للتحول متعدد المستويات (نفسي اجتماعي - معياري - انجازي) لا ليكرر لنا مفهوم التفاوت (décalage) الذي قُورب به النموذج الاوروبي للتحول الذي اتضحت صورته بالتحاق المستويات السياسي و الايديولوجي و الاقتصادي بعضها ببعض. وأفضت الى النموذج الموحد : "المجتمع المبرمج" أو " المجتمع العقلاني " . انه لم ينحت ليكرر ذلك و انما ليؤكد أن حالة " المجتمع العصري " ليست الا نموذجا مثاليا لحالات متعددة من " العصرنة ". وهكذا يضرب بحجر واحد التطورية و المركزية الاوروبية ، ويعطي مشروعية للتفكير في أنماط مجتمعية خصوصية لا تكون فيها البنى التقليدية بالضرورة بنى " لا عقلانية " أو " متخلفة " و انما عناصر تستطيع مبدئيا أن تكون فاعلة و منمية .

و الواقع ، فان كان لهذا المفهوم من رديف امبريقي في دراستنا الميدانية فهو مفهوم الاندماج الذي وان حمله مخططو البرامج الريفية معنى تقنيا وظيفيا وأكاد أقول

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

سطحيا فاننا اكتشفنا فيه شحنة أعمق بكثير مما حملوه . فمشاريع التنمية الريفية المندمجة التي نجحت لم تنجح لان القرض الذي قدمته مصلحة التنمية الريفية أصبح مرتفعا أو لان تدخلاته أصبحت أكثر فأكثر اندماجا (في معنى انسجاما) بين الانشطة الانتاجية والانشطة غير الانتاجية (البنية التحتية) و انما لانها كانت مندمجة اندماجا من نوع آخر : اندماج تلك المشاريع مع البنى التقليدية السائدة.

لكن - وبهذه المفارقة نتوقف الان - بقدر ما يبعث هذا الاندماج بين برامج التنمية الريفية وتلك البنى التقليدية من أحلام في " تحول خصوصي " لهذا المجتمع بقدر ما يبدو هذا الاخير أكثر من أي وقت مضى لا " مكيفا تكييفا هيكليا " في الاقتصاد العالمي - فهذا معروف و لا نريد الخوض فيه - و انما مفككا تفككا يعكسه لا اعراض الناس عن المؤسسات المجتمعية التي من المفروض أن تكون تركتها الدولة " للمجتمع المدني " و انما أيضا "انهيار المثال القومي و الوطني ، الى نمو الشعور الضيق والمفتون بنفسه في الانتماء الى العائلة أو العشيرة" (1).

3 - صاعب البحث

هل هناك حاجة أشد الحاحا لدى عالم الاجتماع من حاجة التواصل بموضوع عمله ؟ و مع ذلك فانها تبقى في مجتمعنا أبعد الاشياء منالا . لن أتحدث عن عدد الرحلات التي قمت بها بين بنقردان وتونس العاصمة لاقتناء كتب أو استشارة بعض الصالح أو مقابلة أستاذي المشرف و لا عن الزيارات الميدانية التي سبقت الاتصال الفردي بالمنتفعين ببرنامج التنمية الريفية و لا عن أشياء عديدة من هذا القبيل ، فهي برغم ما تتطلبه من بذل مادي ومعنوي

---

1) برهان غليون - الوعي الذاتي - دار عيون للنشر - الدار البيضاء - الطبعة الاولى 1987 ص 13 .

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

لا تساوي شيئا أمام حجم مهمة " القدرة " أو بالاحرى قانونية الاتصال بالناس والتخاطب معهم بواسطة الاستبيان .

لو تعلق الامر ببنقردان وحدها لتم كل شيء بواسطة الاصدقاء المقيمين هناك لكن توزع العينة على ثلاث معتمديات : بنقردان وميدون وسيدي مخلوف كان يقتضي الحصول على ترخيص من الوالي نفسه للتمكن من مخاطبة الناس . صحيح أن سنة 1986 التي تواصل خلالها " ترحيل " العمال التونسيين المقيمين بليبيا وخاصة منهم أصيلي جهتنا وأن ضائقة 1987 كانت ساخنة بكامل جهة مدنين بسبب الصراع الدموي القبلي بين التوازين (سكان بنقردان) و عكارة (سكان جرجيس) حول أرض الشوشة (1) وأن السنوات التي تلت لم تخل أيضا من توترات مماثلة للتي تحدث في كامل البلاد . لكن هل كان الامر يتطلب أكثر من سنتين للحصول على هذا الترخيص (2)؟ ترخيص ، يشتد بي العجب حين لا يطالبني به أحد من المستجوبين . ربما لم يفعلوا ذلك " خوفا " أو " احتراما " من / لكل من " يحمل أوراقا وقلما " وقد فضحت هذا الامر بعض أجوبتهم لكنهم - كلهم - لم يمثلوا على أية حال أية عقبة .

لقد كانت العقبات ادارية بالاساس ، فالمشكل لم يتوقف في حدود الترخيص . لقد رغبت في الحصول على العديد من الوثائق : كيف يضبط البرنامج السنوي لكل ولاية ؟ توزيع الاعتمادات بين مختلف التدخلات ؟ المقاييس التي تعتمد لاختيار القائمة الاسمية للمنتفعين؟ لكن أطلب ما رغبت فيه بقي في نطاق الرغبة .. لكن و دون مبالغة في التشاؤم فقد تحصلت في آخر الامر على قائمة اسمية بعدد الاشخاص الذين يكونون عينة البحث والفضل في هذا

---

1) كانت هناك منطقة أخرى موضع صراع وقد وضعت أيضا تحت الحراسة وتسمى "قطعاية الشيح".

2) يوجد بالملحق نص الترخيص .

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

يعود الى المجهود الشخصي للصديق العزيز محمد بلبول الذي علاوة عن ذلك جالسني ساعاتا طوالا وضح لي فيها العديد من الامور وكان أول من أثار انتباهي الى ما في برنامج التنمية الريفية المندمجة - الذي ما يزال حديث العهد - من جدة فجعلني آخذه بالاعتبار في الدراسة . لذلك أستغل هذه الفرصة لارفع اليه كل الشكر والعرفان بالجميل و نفس الشكر أسوقه الى السيد محمود بن هلال المسؤول بادارة التنمية الريفية ببنقردان و الذي قدم لي أيضا قائمة اسمية بمنتفعي برنامج التنمية الريفية المندمجة .

الاعتراف بفضل الصديق صلاح عمامي واجب أيضا فلم يبخل علي بأية وثيقة تخص البرنامج القديم أو الجديد ونفس الشيء بالنسبة الى العزيزين صلاح الدين بن فرج وعبد الستار السحباني لما ساهما به من نقاش و ملاحظات . والى الذين ساهموا مباشرة في انجاز العمل الميداني وهم سالم المنصوري وبلقاسم و الهادي التمتام وعبد الله العمراني وحمدة الكناني و عبد القادر الجليدي وكل عائلته بما أمنوا من وسائل نقل و اقامة واتصال بالمنتفعين اليهم جميعا بالغ التحية .

أخيرا الى كل أفراد أسرتي فردا فردا وفوزي وسي الحبيب وصالح و خليل وسلمى الذين أرهقتهم كثيرا في آخر مرحلة من هذا العمل والى استاذي العزيز فرج اسطنبولي الذي قرأ باهتمام كل ما كتبت. اليهم جميعا والى من سهوت عن ذكر اسمائهم كل الشكر و الاعتراف بالجميل .

4 - المنهجية

المقصود بالمنهجية هو أولا الجانب النظري الذي بدوره ينقسم الى قسمين قسم متعلق بأهم الفرضيات التي تبنين العمل ككل وهي اجمالا مضمنة في عناوين الاجزاء الاربعة و داخل الفصول التي تشكل تلك الاجزاء . وقسم نقدي خاص بتمحيص وتحليل ومناقشة الوثائق الرسمية والصادرة سواء عن مصالح التنمية الريفية مباشرة أو عن بعض الوزارات .

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

أما الجانب الامبريقي فهو يحتاج الى شيء من التبسيط حتى سهل فيما بعد فهم الجداول وربطها بالفرضيات. وهذه الجداول تحتاج هي أيضا الى شيء من التوضيح .

أ = الجـــداول :

داخل الكتاب هناك جداول مرقمة و أخرى غير مرقمة - المرقمة مستخرجة من العمل الميداني المرتبط بهذه الاطروحة والذي تم سنة 1988 وتمثل عينتين مختلفتين : العينة الاساسية المتكونة من 110 منتفعا الخاصة ببرنامج التنمية الريفية والثانوية المتكونة من 20 منتفعا الخاصة ببرامج التنمية الريفية المندمجة .

أما الجداول غير المرقمة فهي المستمدة اما من العمل الميداني الذي أنجزناه سنة 1984 والتابع لاطروحة الكفاءة في البحث والخاص فقط بمعتمدية بنقردان أو من بعض الوثائق الرسمية و خاصة تلك التي حواها التعداد العام لسنة 1984.

ب = العينتـــان :

العينة الاساسية هي التي تهم برنامج التنمية الريفية . هذا البرنامج الذي له تدخلات متعددة. لكننا اخترنا نشاطا واحدا هو نشاط الفلاحة. ورغم اقتصارنا على نشاط واحد فقد توجب علينا تخطي عقبة تعدد المنتفعين بهذا البرنامج ، تعدد منطقي بالنسبة لبرنامج يقدم اعاناته منذ سنة 1973. لذا كان علينا في مرحلة أولى أن نختار " مجموعة أمّ " متكونة من الذين نالوا اعانات سنة 1985 وعددهم 770. و من هذا العدد اخترنا عينة بـ 110 أي ما يعطي نسبة من التمثيلية بـ 15 ٪ . غير أن امتداد أطراف الولاية وتعدد معتمدياتها فرضت علينا اختيار السبر العنقودي (sondage par grappes) المتمثل في تجميع كل المعتمديات وتقسيمها الى ثلاث مجموعات . وكل مجموعة (عنقود) تضم اثنين أو أربع معتمديات لها نفس الخصائص تقريبا . بحيث كانت ميدون تمثل جرجيس و حومة السوق وأجيم التي تتفق محيها في القرب من المنطقة الساحلية و في ممارسة

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

الهجرة باتجاه فرنسا. أما بنقردان فهي تمثل مدنين التي تشبهها في التشبث بالهجرة السرية نحو ليبيا (ولو بدرجة أقل) وباستمرارية نشاط الرعي بالخصوص. أخيرا يمكن اعتبار سيدي مخلوف ممثلة المجموعة الثالثة متشابهة مع بني خداش في خاصيات الضعف النسبي لنشاط الهجرة في اتجاهيها و استمرارية نشاط الفلاحة التقليدية المرتبطة بموقعها الجغرافي الداخلي مقارنة بالمعتمديات الاخرى. وعلى هذا الاساس حصرنا العينة في ثلاث مناطق عوضا عن ثماني.

لكن الامر لم يخل من بعض المشاكل الطارئة ، فقد كان من المفروض أن يتوزع الـ 110 منتفعا بحساب 37 في كل من المعتمديتين الاوليتين و 36 في المعتمدية الاخيرة. لكن غياب البعض من هؤلاء في سيدي مخلوف جعلنا نقتصر على 31 فقط فيها و أضفنا من تبقى منها الى بنقردان التي أصبحت ممثلة بـ 42. أما ميدون فقد حافظت على عددها الاصلي 37.

الطارئ الثاني غياب بعض منتفعي سنة 1985 فآثرنا استبدالهم بآخرين ينتمون الى منتفعي 1984 أو 1986 لكن هذا الاستبدال لم يخل بشروط العمل الميداني المطلوب.

أما العينة الثانية فتهم برنامج التنمية الريفية المندمجة. لكنها مقتصرة على معتمدية بنقردان فقط وهذا أولا لان البرنامج ما يزال في بداية التجربة وثانيا لانه لم يتعمم على كافة معتمديات الولاية وثالثا لانه بشكل أو بآخر امتداد للبرنامج القديم. اذن على 115 منتفعا ضبطنا عينة بـ 20 أي ما يعطي تمثيلية نسبتها 17 ٪ تقريبا .

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

الجزء الاول
التنمية كعقلنة

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

مقـــــدمـــــــة

انطلاقا من الخمسينات ، وبالتواني مع رحيل البيروقراطية الادارية والعسكرية الاستعمارية الفرنسية، حلت النخب التونسية المتكونة في أغلبها من البرجوازية الصغيرة محلها في تسيير شؤون الدولة الجديدة. ولقد استمدت شرعيتها في ذلك من مقولة هيمنت آنذاك على الفكر الاقتصادي و السياسي المناهض للاستعمار وعرفت معه شهرة وانتشارا واسعين وهي مقولة التنمية. ونتج ذلك الى حد كبير من ارتباطها الى حد كبير بمقولة أخرى لا تقل عنها شهرة ولا انتشارا وهي مقولة العقلنة(Rationalité)ارتباطا جعل من الصعب حتى ضبط الحد الفاصل بينهما .

ان دراسة أية تجربة تنموية في أي بلد متقدم (Développé) أو آخر " متخلف"(Sous-Développé) يقتضي أولا معرفة كنه ذلك الارتباط ولا يتم ذلك الا اذا وقع تحديد معنى كل من العقلنة والتنمية على حدة .

أ ـ العقلنـــــــة

لعلنا لا نبالغ اذا اعتبرنا ماكس فيبر أشهر من اهتم بمسألة العقلنة التي يميزها عن العقلانية (Rationalisme) تلك الفلسفة التي تفيد بأن العقلانية تطـف حركة التاريخ و تصبح بالتالي " مبدأ لتحقيق العدالة والمساواة والسلم " (1) أما العقلنة فهي منهج للبحث عن الجدوى الشيء الثابت ـ حاليا ـ أن العقلنة في المجتمعات "المتقدمة " قد تغلغلت في جميع المؤسسات والمجموعات الاقتصادية و الاجتماعية والثقافية والسياسية بحيث أضحى الحديث عن " المجتمعات المبرمجة"

---

1)جوليان فروند ـ سوسيولوجيا ماكس فيبر ـ مركز الانماء القومي تاريخ الاصدار غير مذكور، ص 11 .

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

(Sociétés programmées) (1) أمرا حقيقيا لا جدال فيه لكن الثابت أن هذه الميزة ما كان لها أن تتم وتبلغ أوجها لولا العمل الكبير الذي تم في العهد النابوليوني والذي شمل الموسسات التالية : الجيش والبيروقراطية والاقتصاد والتعليم (2) .

1)- الجيش

هذه الموسسة تمثل أحد أهم الاركان التي تقوم عليها الدولة العصرية لكن الجيوش لا تتساوى في قيامها بأدوارها ذلك أن الجيش القادر على حماية حرمة بلاده هو الجيش الاكثر عقلنة من غيره . ولابراز ذلك نقدم المقارنة التي قدمها عبدالله العروي بين الجيش النابوليوني والجيوش الاوربية الاخرى . فسبب انتصارات الاول تعود الى عقلنته المتجلية في انتدابه لمقاتليه من الشعب أما هزائم الاخرى فمردها لا عقلانيتها الواضحة من خلال اختيارها لمحاربيها من المرتزقة . وشتان بين مواطن يدافع عن وطنه و مرتزق يدافع عن مقاطعة قد ينتمي أولا ينتمي اليها .

ويضيف العروي قائلا : " كما أن للقيادة دورها الاساسي في تحقيق النصر ، فهو العقل المدبر و الجنود هم الجوارح وبين الاثنين لابد من الانضباط " (3) . لكن و لما كانت المراتب العسكرية حكرا على النبلاء في الجيوش التقليدية اللاعقلانية و فرص الارتقاء اليها مسدودة أمام غيرهم فلم يكن هناك مجال لقيام مبدأ الانضباط و بالتالي لسيادة العقلنة في الجيش .

لو أردنا التلخيص لقلنا أن للجيش العقلاني ثلاث خصال وهي مواطنية Citoyenneté

I) Alain Touraine. Pour La Sociologie. Le Seuil I974. (L'utopie planiste et l"utopie Organisationelle . pages I27-I28-I29.)

2) عبدالله العروي - مفهوم الدولة - المركز الثقافي العربي - الطبعة الرابعة 1988 - ص 64 .

3) نفس المصدر ص 65 .

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

الجندى والقائد ، انضباطهما وديمقراطية العلاقة التي تربطهما . ولما كانت هذه الخصال منعدمة في بلدان " متخلفة" مثل التي في أمريكا اللاتينية أين تكون الانقلابات العسكرية " عنصرا فولكلوريا " (1) أو في افريقيا حيث لا يكاد يخلو تاريخ دولة منها من انقلاب عسكرى فمن الواضح اذن الاقرار بأن هذه المؤسسات بعيدة كل البعد عن العقلنة رغم أنها تعتبر القوة الوحيدة المنظمة. وحتى تونس التي تبدو للبعض مثالا مفندا لهذا الحكم بناء على أنها "مثال في الاستقرار السياسي " لبلدان العالم الثالث نظرا لانها تحكم منذ أكثر من ثلاثين سنة بقيادة نفس الحزب ونفس الزعيم الذي أزيح يوم 7 نوفمبر 1988 ـ فانها ليست الا تأكيدا آخر له :

أولا : لان حكم الحزب الواحد و الزعيم الواحد لمدة طويلة ليس بالضرورة دليلا على الاستقرار السياسي وعلى غياب الصراعات ومن باب أحرى على عقلانية الجيش . فغياب هذا الاخير عن الساحة السياسية طوال تلك المدة يفهم انطلاقا من خصوصية البلاد التونسية وعلاقته بالطبقة المهيمنة وخاصة بدوره سواء في مقاومة الاستعمار أو في عملية الاستيلاء على جهاز الدولة .

ثانيا : ان تدخل الجيش التونسي في الشؤون المدنية و السياسية أمر لا يمكن انكاره وقد اعترف بورقيبة نفسه بذلك في أحد خطبه " لقد شارك هؤلاء الضباط في المؤامرة واصغوا الى دعوة الشر واقتسموا مسؤولية تنفيذ الخطة الدنيئة ... " (2) وما يهمنا - هنا - هذا التأكيد على غياب الانضباط والطاعة للقيادة الرسمية للجيش مقابل حضور ولاء شديد لاطر وزعامات جهوية وقبلية (الازهر الشرايطي مثلا) هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فان تدخل الجيش لقمع تحركات شعبية كانت متعددة خاصة خلال

I) Mustapha Benchenene- Les Coups d'etat en Afrique- Publisud I983. page 7.

2) الحبيب بورقيبة ـ خطب ـ نشر كتابة الدولة للاعلام 1974 ـ خطاب 18 جانفي 1963. ص45.

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

السبعينات والثمانينات وآخرها ما اصطلح على تسميتها "ثورة الخبز" في جانفي 1984 .

2)- البيروقراطية:

يبقى " القانون النابوليوني المجمع في كتاب واحد موجز كل القوانين الواجب تطبيقها على جميع المواطنين " (1) دون اعتبار للاختلافات الجغرافية والعرقية والطبقية هو الاطار المرجعي لقوانين الدول الحديثة. يتساءل العروي "من يطبق تلك القوانين الموحدة " ثم يجيب " انه جيش مدني جماعة متخصصة تختار حسب نظام المباراة تتقاضى راتبا معينا تكلف بالتعيين نظرا للظروف والاحوال بدون اعتبار للاشخاص فهي تعرف فقط القاعدة العامة ...." " كلما نمت تلك الجماعة استقلت عن صاحب السلطة لكونها غير مرتبطة ماديا أو معنويا به ".

" هذه الجماعة التي لا تعرف الحرفة ولا الطبقة و لا الحومة (الحارة) و المدينة ولا المقاطعة ، تعرف فقط الفرد المنسلخ عن محيطه المحلي والعائلي و الحرفي تنفذ الاعمال في أوقات وعلى وتيرة محددة ، أسبابها (أي الاعمال) معروفة و نتائجها معروفة أيضا مسبقا فهذا العمل الذي يحصل باستمرار على نفس الوتيرة بحيث يعود من السهل التنبوء بحصوله ، نستطيع أن نسميه عقلانيا "(2) .

لا يبرر طول هذين الفقرتين المأخوذين من كتاب العروي الا الامامها بخصائص عمل البيروقراطية الثلاث المتواجدة في البلدان " المتقدمة " وهي التخصص و الاستقلالية عن السلطة والعقلانية فالى أي مدى تنطبق هذه الخاصيات على منظمات ومؤسسات نقابية أو حزبية أو حتى ثقافية متناثرة هنا وهناك في بعض مجتمعات " العالم الثالث " ؟ ان اعترافات زعماء العديد من دول هذه المجتمعات

---

1) عبدالله العروي - نفس المصدر. ص 66 .

2) عبدالله العروي - نفس المصدر . ص 67 .

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

بما قدمت النقابات في محاربة الاستعمار أو ماهي مدعوة لتقديمه - ان لم يقع الغائها طبعا - واحزاب المعارضة - ان كانت هناك تعددية حزبية - للعمل التنموي ،ليست في حقيقة الامر الا اعترافات تمويهية لتغطية تبعية هذه الموسسات والمنظمات لسلطتهم وبالتالي برهانا على شكلية تخصصها وبناء على كل ذلك ،لا عقلانية وجودها لانه "وجود كي لا يثري موسسة الدولة وانما يضخمها"(1).

لكن ، مقابل لا عقلانية تلك الموسسات والمنظمات ،نلاحظ عقلانية لا جدال فيها داخل العديد من الموسسات الاقتصادية الصناعية وحتى الفلاحية. ان "الثورة الخضراء "(2) المدعومة من قبل الولايات المتحدة الامريكية و المنتشرة في العديد من بلدان " العالم الثالث" الاسيوية منها وحتى الافريقية ،والتويع الذي أصبح يسم الصناعة التونسية خلال السبعينات أفرزت موسسات عصرية بلغت حدا من التخصص و العقلنة بما لا يضمن استقلاليتها عن بيده السلطة في جهاز الدولة فحسب بل و حتى تبعيته لها .

ان هذه العقلانية الاقتصادية لا يمكن أن تتأثر بتلك اللاعقلانية المذكورة أعلاه والمتعايشة معها لان هذا التعايش ضروري في المنظار التطوري فأوربا حين تعقلنت فانها بدأت بالمجال الاقتصادي ثم وقع تعميم العقلنة على بقية المجالات . و المجتمعات " المتخلفة" من باب أولى وأحرى ،لا يمكنها تماشيا مع ذلك المنظور الا أن تعطي الاولوية لمسألة الخبز وتوجل مسألة الحرية وتستعجل مطلب الشغل وتوخر مطلب الديمقراطية .

---

1)الطاهر شقروش- الجدلية الاجتماعية و الدولة . المثال التونسي أثناء الستينات (بالفرنسية)مجلة أطروحات عدد ممتاز رقم 7 - جانفي فيفري 1985- ص 48 .

2) Renaud Fabre. Paysans sans terres , dunod 1979.

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

3)- التعليـــــــــم:

" الكل يعلم أن نابليون هو منظم التعليم الثانوي والعالي في فرنسا ، ومؤسس الباكالوريا ، ومنشيء المدارس العلمية العليا . كان التعليم قبله تحت مسؤولية الكنيســـــة فجعله تابعا للدولة ، وأدخل عليه نظاما يشبه النظام العسكري ووجهه وجهة علميـــة تقنيـــة." (1)

اضافة الى ذلك كانت السياسة التعليمية النابليونية تقوم على مبدا " توحيد لغـة التلقين و المواد المدروسة . تدرس كل المعاهد التعليمية بالفرنسية المقعدة برنامجـــا واحدا ، عكس ما كانت تفعله الهيئات الكنسية المختلفة ... التوحيد اللغوي يوازي نشأة سوق وطنيـــة." (2)

من هذا الاطار المرجعي النابليوني نصطفي خاصتين الاولى تناسق برامجـــه و مضامينه مع متطلبات المجالات الاخرى (الجيش والبيروقراطية والاقتصاد) بحيث انـــه يلبي حاجاتها من الكفاءات اللازمة لعقلنة أنشطتها وهي بدورها تسهم في تنويـــــع الاختصاصات العلمية وانشاء المدارس والمعاهد بما تقدمه من مواد . ان هذه الوظيفية المتبادلة بين التعليم وبقية الانشطة هي التي حتمت وسيلة تواصل واحدة وموحدة ألا وهي اللغة .

ان التعليم في تونس لا يمد الفلاحة والصناعة وقطاع الخدمات بما يلزمهـــا من كفاءات لعقلنة نشاطاتها فحسب وانما أيضا يخلق " بنكـا " متكونا من قرابـــة 10 آلاف اطار مرشحين للعمل بالخارج منهم 6 آلاف يعملون حاليا في 50 بلـــدا

---

1) عبدالله العروي - نفس المصدر - ص 69 - 70 .

2) عبدالله العروي - نفس المصدر - ص 70 .

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

افريقيا وعربيا " (1) كل هؤلاء وأولئك يسيرهم جهاز يدعى وكالة التعاون الفني يعمل منذ 1972 على توفير نصيب لا يستهان به من العملة الصعبة .

لكن وهنا المفارقة كلما امعنت الدولة في هذه السياسة التعليمية كلما ابتعدت عن امكانية افراز لغة واحدة و موحدة ، واقتربت أكثر فأكثر من وضعية ازدواجية لغوية فهل تنفي ازدواجية اللغة في التعليم عقلانيته ؟ ان النخب المسيرة للدولة الجديدة لم تنظر الى اللغة من حيث أنها مصدر من مصادر التميز النفسي واللامعيارية وانما من حيث انها وسيلة لبث نمط حياة ومثال مجتمعي قوامه العقلنة ولهذا نلاحظ أن أغلب البرامج التعليمية من الابتدائي الى التعليم العالي بلغاتها العربية والفرنسية والانقليزية تسعى لنشر مضامين وتصورات وقيم ومعايير مستمدة من النمط المجتمعي الاوربي العقلاني .

4)- الاقتصاد :

ان عقلنة الاقتصاد قد سبقت عقلنة الجيش والتعليم ذلك أن " نظرة الى الوحدات الانتاجية المتطورة ، كضيعات الكيسة والاقطاع في القرون الوسطى كالشركات التجارية المتخصصة في جلب محصولات الشرق أثناء القرنين السابع والثامن عشر ... تبين بوضوح أن الحاجة الى محاسبة دقيقة والى تسيير منتظم خلقت بيروقراطية خصوصية في كل وحدة من هذه الوحدات ... " (2)

غير أن عقلنة الاقتصاد بشكل موسع لم تبدأ الا مع النظام الرأسمالي حتى

I) Jeune Afrique, Des Cadres à exporter N° I9 bis, Juin I986. page 22.

2) عبدالله العروي - نفس المصدر - ص 69 .

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

وقع " اكتشاف الاقتصاد " حسب عبارة (K. Polanyi) بمعنى حين تمايز هذا النشاط الانساني عن بقية الانشطة الاخرى وأضحت له خصائصه العقلانية التي مكنته لا من التأثير في مؤسساته وتطويرها بل وحتى التأثير في كل الانشطة الاخرى مما جعل ماركس يقول متحدثا عن تطور الاقتصاد الرأسمالي بأنه يميل الى " رسملة " كل شيء . ومن الناقل هنا التذكير بأن رسملة ترادف عقلنة ولعل النقاط الموالية التي أطنب في شرحها ماكس ڤيبر تؤكد ذلك أيضا .

أولا : ان ارتفاع الانتاج بفعل المكننة المتواصلة وسرعة تداوله بين مختلف الجهات بفضل رفع الحواجز الجمركية حتمت اللجوء الى أكثر وسائل " التواصل " الاقتصادي تجريدا ألا وهي النقد الذي يسمح بتقدير كلفة الانتاج وقيمة البضاعة الموجهة للسوق .

ثانيا : ان مؤسسة السوق هي التي ساعدت بشكل كبير على اقامة الحد الفاصل بين القيمة الاستعمالية لمنتوج ما وقيمته التبادلية لان وجودها أزال القيود اللاعقلانية التي تقيد الانتاج (الاقتصاد المنزلي) أو التداول (الانتماءات السلالية أو الدموية في المجتمعات الاقطاعية أو القبلية) .

ثالثا : لا بد من وجود سوق موازية لسوق البضاعة تباع فيها قوة العمل يكون فيها اقتناء أو عدم اقتناء هذه " البضاعة " مسألة اقتصادية بحتة .

ان كل هذه الخصائص لا تترجم الا عن الحرية المطلقة لرأس المال المدعوم ايديولوجيا بلبرالية بلا حدود (دعه يعمل دعه يمر) وتقنيا بعقلنة تيلورية لا انسانية (لا نريد عمالا يفكرون وانما عمالا ينفذون) أدت الى نتيجتين هامتين أولاهما مزيد من اغتراب طبقة العمال وتفاقم ظروفهم المهنية والاجتماعية أما الثانية وهي التي تهمنا هنا بدرجة أولى تناقضات متوالية في صلب النظام الرأسمالي بدأت منذ النصف

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

الثاني من القرن التاسع عشر و كانت أكثرها حدة تلك التي وقعت سنة 1929 بفعل فائض الانتاج وانخفاض الاسعار .

ان هذه التناقضات الهيكلية التي هزت النظام الرأسمالي هي التي شرعت تدخل " غير الاقتصادي " (السياسي) في " الاقتصادي " وهذا لا يعني بطبيعة الحال ضربا لعقلانية الاقتصادي بل هو تدعيم لها لان الدولة هي التي ستسهر على حماية هذه العقلانية من جموح رأس المال وتهوره بحثا عن تكثيف الربح دون التنبه الى الشروط " غير الاقتصادية " اللازمة لذلك كالسياسة الداخلية والسياسة الخارجية وغيرها . . . ان اعتبار جميع هذه الشروط في عقلنة الاقتصادي أفرزت سياسة اقتصادية جديدة تقوم على التخطيط .

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

II التنمية

يثير هذا المصطلح - التنمية - إشكالا، ذلك أن عكس التنمية(Développement) وهي حالة البلدان التي عرفت ثورة صناعية توجد عدة مصطلحات لوصف حالة البلدان التي لم تعرف ثورة صناعية فيقال لها " مجتمعات بدائية" و "مجتمعات متخلفة" و "مجتمعات راكدة" و "مجتمعات تقليدية" و "عالم ثالث" وغيرها من المصطلحات التي تخفي انحرافين اثنين أولهما عنصري استعماري وثانيهما نظري رغم أنه لم ينتج من توظيف عنصري استعماري .

كانت تونس مثل غيرها من أقطار المغرب العربي مسرحا لدراسات انتربولوجية أوربية عموما وفرنسية خصوصا، توصلت في معظمها الى أنه " منذ العصور القديمة الى يومنا الحاضر، كان المغرب (المقصود أقطار شمال افريقيا) مقسما الى قسمين متنازعين الرحل والمستقرون " (1) هذه هي حالة سكان هذه المنطقة حسب دراسة اميل فليكس قوتيي (E. PH. Gautier) الذي يقيم عملية تبسيطية أخرى قوامها " العربي هو المترحل" و "البربري هو المستقر"(2) حتى يضع العربي في موقع المستعمِر والبربري في موقع المستعمَر لتبرير "الحضور الفرنسي "(3).

ويضيف أيضا أن هذه الحالة قد استمرت قرونا وهي التي جعلته عرضة للتصنيف داخل صنف " المجتمعات الراكدة" يقول قوتيي أن " الارض البربرية لم تكن يوما أمة ولا دولة مستقلة، كانت دائما جزءا من امبراطورية". تنفي كل هذه الاوصاف عن سكان المغرب أي أحس مدني، بمعنى أن ليس هناك أي استعداد لاقامة حياة

I) Ives Lacoste- Ybn Khaldoun, Naissance de l'histoire passée du tiers monde. Maspéro 1978 page 91.

2) Ibid. pages101- 102.

3) Ibid page 102.

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

جماعية قوامها المواطنة من جهة والمؤسسات من جهة أخرى.

لقد تصدت لهذا الانحراف الانثروبولوجي عدة دراسات ولا فائدة من الاسهاب في ذلك، ولنكتف فقط ببعض الملاحظات :

- ان الازدهار الذي عرفته صناعة " الشاشية" وغيرها في تونس في القرنين الثامن و التاسع عشر، والذي بلغ حدا جعل لوسات فلانسي (Lucette Valensi) تقارنه بازدهار الصناعة الفرنسية (1) دليل على أن الحركة التجارية والحرفية في شمال افريقيا أبعد ما تكون عن " الركود " وبالتالي فان تصنيف أقطار هذه المنطقة في صنف المجتمعات الراكدة لا شيء يبرره .

- كما أن التنظيم المديني الذي عرفته مدن هذه المنطقة قبل الاستعمار الفرنسي (2) يبرز بوضوح تنوع وتمايز المؤسسات الاجتماعية ومدى تأطيرها للفعل الاجتماعي .

- أما مسألة " البربري المستقر" الضعيف و" العربي المترحل" الغازي فليست أكثر من مجرد تبسيط اصطناعي اذ ليس كل البربر بمستقرين ولا كل العرب برحل .

الخلاصة التي نخرج بها من استعراض هذا الانحراف هي أن المصطلحات المستعملة لتصنيف "المستعمرات" تخفي افتراضا خفيا معناه أن هذه المجتمعات ليس لها أمل في " التحضر" و " التنمية" الا تحت لواء الحضارة الغربية أي العقلنة الغربية .

أما الانحراف الثاني ، الانحراف التطوري ، فانه يفترض أن التاريخ خط تصاعدي متكون من محطات تقف عليها جملة المجتمعات البشرية . وعبارة " مجتمع متخلف " تعني مرحلة ضرورية ووقتية في الان نفسه للوصول الى مرحلة "التنمية". وهذا الافتراض مخطىء من جوانب عدة (3).

I) Lucette Valensi. le Maghreb avant la prise d'Alger. Flammarion 1969.P.56

2) Frej Stambouli et A. Zghal. La Vie urbaine dans le Maghreb précolonial A.A. N. C N R S paris 1973

3) W.W. Rostow. Les étapes de la croissance économique. Seuil 1962.

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

انه يفترض أن المجتمعات التي عرفت تنمية (أي الصنعة) قد مرت بنفس مرحلة " التخلف " والحال أن هذا غير صحيح ذلك أن الظروف التي انطلقت منها تنميتها (ثورتها الصناعية) تتميز بمراقبة القوى الداخلية (البرجوازية في المجتمعات الرأسمالية أو الدولة في المجتمعات الاشتراكية) لثروات وموارد البلاد وهذا ما جعل التنمية تأخذ شكل تنمية متمحورة على ذاتها لكن المجتمعات "المتخلفة" (التي لم تتصنع بعد) لم تتمتع بهذه الرقابة على مواردها الداخلية الى يومنا هذا . صحيح أن البعض من هذه الدول الجديدة قد سعت الى تأميم ثرواتها وتسخيرها لبناء اقتصاد وطني ، لكن تشابك وترابط الصالح وتدويلها جعل هذه الدول في حاجة مستمرة الى تقديم تنازلات سياسية واقتصادية لفائدة الدول الصنعة .

كما أن هذا الانحراف التطوري قد حمل في أحشائه افتراضا مفاده أن "البلدان المتخلفة" سائرة في الخط التصاعدي لتصل الى مرحلة التنمية بفضل الحقن المالية و التكنولوجية الواردة عليها من البلدان المتقدمة ولعل هذا الافتراض هو الذي برر لبعض زعماء ومنظري " العالم الثالث" استبدال عبارة " بلدان متخلفة "بعبارة " بلدان سائرة في طريق النمو " دون التنبه الى مدى مطابقتها للواقع . وهذا ما جعل رد الفعل عنيفا في طروحات الجناح المتطرف لمدرسة التبعية في شكل " نمو التخلف " (1) .

اذا كان الانحراف الاول قد هيمن زمن الاستعمار المباشر فان تسلم النخب الجديدة لمقاليد السلطة قد حول مجال الهيمنة للا نحراف الثاني انحراف التطورية الذي طبع تفكير تلك النخب بطابعه وأثر فيها منذ توليها قيادة البلاد الى يومنا هذا رغم اختلاف السياسات التنموية التي اتبعتها على امتداد العشريات الثلاث الماضية .

I) A.G. Frank- Le développement du sous- développemenr. Maspéro. I972.

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

ان العنصرين الثابتين في كل السياسات التنموية للعشريات التنموية الثلاث هما : ادلوجة وطنية واستراتيجية تنموية وسوف نختار عشرية السبعينات لابراز الحضور المتميز لهذين العنصرين . ولكن يطرح هنا سؤال لماذا عشرية السبعينات دون غيرها ؟ وليست الستينات أو الثمانينات ؟ لو كان الامر مرتبطا بالعنصر الاول لامكن ابرازه من خلال دراسة لاية عشرية تنموية لكن ستبين الملاحظات التالية أسباب هذا الاختيار :

أولا : السبعينات شهدت انطلاق برنامج التنمية الريفية الذي يهمنا بدرجة أولى لانه يحتل مكانا مركزيا في دراستنا .

ثانيا : لن نهتم بتجربة الستينات الا عرضا لانها انتهت الى نتائج معروفة لعلها بعض الاسباب التي أدت الى تأسيس ذلك المشروع .

ثالثا : لا يقع الاهتمام أيضا بتجربة الثمانينات التنموية لانها مجرد امتداد لتجربة السبعينات فهذا غير صحيح على الاقل فيما يتعلق بالتنمية الريفية ذلك أننا سجلنا تحولا ملحوظا في السياسة المتبعة بين العشريتين ولهذه الاسباب فاننا فضلنا أن لا نتحدث عنها هنا لنركز عليها أثناء الجزئين الثاني وخاصة الثالث من هذا الكتاب .

1 - الادلوجة الوطنية

لعبت الادلوجة الوطنية للبرجوازية الاوربية دورا رياديا في توحيد أقاليم متعددة تحت راية قومية واحدة وساهمت بذلك في انجاز المشروع المجتمعي كمشروع طبقي أولا ثم كمشروع وطني ثانيا ولقد بين ماركس المنطق الذي قاد البرجوازية من " القضاء على تبذير وسائل الانتاج والملكية والسكان " الى تجميع السكان ومركزة وسائل الانتاج وتركيز الملكية بيد أقلية ". ولقد حتم هذا مركزة سياسية حولت "المقاطعات المستقلة عن بعضها ... ذات المصالح والقوانين والحكومات والتعريفات الجمركية

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

المختلفة الى أمة واحدة وحكومة واحدة وقانون واحد ومصلحة طبقية وطنيـــــــة"(1)

لكن واذا كانت البرجوازية في مستوى مهمتها من حيث وزنها الاجتماعـــــي والاقتصادي والسياسي بحكم هيمنتها على بقية الطبقات والقوى الاجتماعية الاخـــرى ، فان القوة الاجتماعيـــة (2) التي من المفروض أن تقوم بنفس المهمة في الدول الجديـــدة ، ستجد نفسها في وضعية لا هيمنيـــة (Situation Anhégémonique) لان الاستعمـــار دون أن يقضي على الطبقات المهيمنة قبل دخوله لم يخلق طبقة اجتماعية جديـــدة على غرار ما وقع في أوربا لتحمل تلك المسؤولية .

أ) وضعيـــة "لا هيمنـــة"

كلما كان نمط الانتاج صافيا (Pur) أي خاليا من الفئات الوسطـــــى - البرجوازية الصغيرة - كلما اتضح الاستقطاب الطبقي بورجوازية - بروليتاريا وفي هـــذه الحالة تبني كل منهما نظاما من الافكار والتصورات و المواقف الذي تتماهى فيه وتعـــارض به الطبقة الاخرى ويكون محور هذا الصراع هو السيطرة على وسائل التغيير الاجتماعي .

لكن هذا النموذج يفقد نجاعته في مستعمرة يهيمن عليها نمط انتاج لا انتاجـــي (حسب عبارة قاليسو) وهذا لا يعود الى أن الانتاج ووسائل الانتاج ليست تحـــت تصرف وهيمنة طبقة اجتماعية ما ، وانما الى أن امتلاكها من طرف البرجوازيـــــــة الاستعمارية لم يدخلها في علاقة انتاجية موسعة ومباشرة مع بقية الطبقات والفئـــات التي ليس لها حق التصرف في هذا الانتاج و في وسائله . لذا فان التناقـــــض

I) K. Marx. Le Manifeste du parti communiste. IO/I8. I974. pages:24-25

2) Nicos Poulantzas. OP. Cit. page I2.

يوضح بولنتزاس معنى مفهوم القوة الاجتماعية (Force sociale) : أ= الطبقـات المتميزة أو أقسام الطبقات المستقلة . ب= اضافة الى ذلك بعض الفئات الخصوصية . . . التي يمكن أن تكون قوى اجتماعيـــة .

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

الاساسي يصبح بين من يملـــك الانتاج ووسائله (ووسائل التغيير الاجتماعي) وبين مـــن يعمل على هامش عملية الانتاج .

ان مفهوم التهميش (La marginalisation)المذكور أعلاه هو الـــذي سيعيننا في فهم البنية الطبقية السائدة في المجتمع التونسي قبل وصول البرجوازيـــة الصغيرة الجديدة الى السلطة لكن قبل ذلك نوضح وجهي استعمالـــه :

أ و لا : نعني بهذا المفهوم اخراج قوة أو قوى اجتماعية من عملية الانتاج بعد القضاء على نمطها أو أنماطها الانتاجية دون ادماجها في النمط الجديد .

ثـانيـــا : الوقوف في وجه حراك قوة اجتماعية (مثال البرجوازية الصغيرة المتعلمة) .

ان الفرضية التي ستقود عملنا هي الاتية : ان التهميش الذي أصاب أغلـــب القوى الاجتماعية والذي كان وراء عجزها الذاتي وبالتالي وراء وضعية اللا هيمنـــــة هو نفسه الذي كان وراء بروز هيمنة خفية للبرجوازية الصغيرة الجديدة التـــــي تجسدت في علاقتها بكل واحدة من هذه القوى الاجتماعيـــة .

ان مهمة الفقرات الموالية مهمة ذات أبعاد ثـلاثـــة :

- اظهار التهميش الذي أصاب كل قوة اجتماعية بفعل الهيمنة الاستعماريـــة .
- اظهار اثر التهميش الذي أصاب كل قوة اجتماعية بفعل الهيمنة الاستعمارية .
- اظهار خصوصية هذا الصراع الذي سيضع جماع هذه القوى الاجتماعيـة بما فيهـــا البرجوازية الصغيرة الجديدة وجها لوجه مع الهيمنة الاستعمارية .

٧٧ البرجوازيـــة المخزنيـــة

ان تبوء البرجوازية الاستعمارية أعلى قمة في السلمية الاجتماعية أدى مباشرة الـى نزول " للبرجوازية " المخزنية لكن هذا النزول لم يكن عميقا واستقرت في "قمـــة الطبقات الوسطى " (1) لانها حافظت على بعض الاراضي المستغلة بطريقة الخماســـة

I) Henri de Montety. Le Developpement des classes moyennes en Tunisie I.B.L.A.n° 74, 2eme trimestre I956. pages: I3I-I39.

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

لكنها مع ذلك ، فقدت الكثير من امتيازاتها المتمثلة في بعض الوظائف التي كانت حكرا وراثيا في أفرادها والتي سعت الدولة الاستعمارية التي يقودها مبدأي العقلنة و المردود - الى تعويضها بوظائف جديدة (الخليفة ونائب الجمعية وقع تعويضهما بوظيفتي الكاهية والوكيل) أو ازالتها تماما مثلما وقع لوظيفة القاضي التي حذفت سنة 1903 بمجرد وفاة القاضي الشهير "بن موسى" (1) .

و مثلما كان الدين هو الاطار المرجعي الذي مكن البرجوازية المخزنية من تلك الوظائف فانه سيلعب الدور نفسه في التعبير عن غضبها ولم يكن غريبا أن تكون بعض القضايا الاجتماعية ذات الارتباط بالدين من بين الفرص التي أتاحت للحزب الدستوري رفع راية الاسلام والدفاع عن قيمه ومعاييره تجلت خاصة في حادثتين مشهورتين هما الزلاج والمؤتمر الافخارستي الذي انعقد سنة 1930 بتونس .

في هذا الظرف يتصدر الايديولوجي طليعة الوسائل الفضالية فيحبط كل القوى الاجتماعية بمن فيها التي كانت و لا زالت - مكبلة بواسطته (الخماسة مثلا) .

/=/ "البرجوازية" الحرفية والتجارة :

ان الاحباط الذي أصابها من جراء التدخل الاستعماري لم يكن الاول فمقدمة ابن خلدون تحتوي على أمثلة عديدة من مصادرة أملاكها من قبل السلاطين الذين توالوا على الدولة لكن الضربة هذه المرة كانت أشد وطأ لانها لا تسمح باعادة ما تهدم بالمرة . لهذا كرس هؤلاء ما بقي لهم من حرفة أو تجارة متوسطة المداخيل لتعليم أبناءهم تعليما عصريا علهم يسترجعوا ما فقدوه .

من هذه البرجوازية الصغيرة التجارية والحرفية تكونت عناصر البرجوازية الصغيرة الجديدة ذات المواقف الوسطية المعتدلة التي منها انبثقت العناصر

I) Nicolas. Hopkins- Système Urbain et développement au Maghreb CERES Production. I980. page I76.

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

القيادية للحـــــــزب .

/=/ الفـــلاحيـــــــن

هل هناك قوة اجتماعية أصابها الانبتات والتهميش مثل الذي أصاب فلاحـــي المستعمرات ؟ ثم عمن سنتحدث؟ عن اجراء الفلاحة الاستعمارية أم عن الذيـــن عمروا المدن القصديرية على مشارف العاصمة - خاصة - أم عن القبائل التي تتحـــرك في حدود مرسومة ؟

ان هذا التجزء والتهميش أحالا علاقتهم بالحزب أشبه ما تكون بعلاقـــة " الفلاحين المشتتين " الفرنسيين بالبنابرتية وهذا يؤكد اعتماد الحزب علـــى " الفلاقـة " كورقة مرعبة لارهاب السلط الاستعمارية على طاولة المفاوضـــات (1) أو كركيزة في الصراع من أجل السلطة أثناء " الازمة اليوسفية " (2) .

وكان من نتائج هذا الدور الهيمني الذي لعبه الحزب أن أصبح الفلاحون في شق واحد مع قسم كبير من " البرجوازية المخزنية " التي كانت بالامس القريـــب تستنزف أموالهم عن طريق المجبى .

/=/ العمـــــــال

شكل العمال القوة الاجتماعية الوحيدة التي كانت تربطها علاقة مهنية مباشـــرة مع البرجوازية الاستعمارية ولقد تضاعف هذا الصراع بالتفرقة النقابية التي كانـــت قائمة بين العمال التونسيين والعمال الفرنسيين . هل نحن أمام بروليتاريا ؟ مـــن

I)B. Etienne. La paysannerie dans le discours et la pratique A.A.N. C.N.R.S. 1975. pages: 3-45.

2) الحبيب بورقيبة : " . . . وأنتم يا أهالي التوازين . . . لستم أهل حرب فحسب بل أصحاب رأي تميزون بين المواقف . . . " خطاب 16 ديسمبر 1955 ببنقردان - خطب - نشر كتابة الدولـــة للاعلام - تونس - 1974.

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

الاجدر التساؤل حول قيمة الصناعة قبل كل شيء. " ان الغاية (من الاستعمار) لم تكن تصنيع المغرب انما انشاء مجتمع فرنسي فلاحي على الضفة الاخرى من البحر المتوسط " (1) هذا بيان حول ضعف التصنيع وهجانته ، تبعه انعدام للمثقفين العضويين الذين يحملون مشروع البروليتاريا الاجتماعي والسياسي .

لهذا فقد ارتبط نضال هذه الطبقة بالبرجوازية الصغيرة الجديدة أو " بكتلة الموظفين ... وخصوصا عندما نجد أبرز شخصية في الاتحاد وهي أمينه العام من هذه الطبقة . فذلك يضيف ضمانا جديدا واطمئنانا على مصير هذا الاتحاد واتجاهه في المستقبل " (2) وبالفعل كانت البرجوازية الصغيرة هي المكيف لمواقف وسلوكات العمال قبل استيلائها على السلطة وبعده .

٣ البرجوازية الصغيرة

" البرجوازية الصغيرة عباءة فضفاضة وغير متجانسة " وتقسم الى ثلاثة أقسام (3)

أولا : صغار ومتوسطو الفلاحين أصحاب " التعلق الشديد بالارض ".

ثانيا : الحرفيون الذين يعيشون في المدينة رأس مالهم هو " أصابعهم وأناملهم ".

ثالثا : الموظفون رجال التعليم أو أصحاب الوظيفة الدنيا .

لقد تأثرت جميع هذه الاقسام من التدخل الاستعماري وبقدر تأثر مصالحها بقدر حرصها على استرجاع ما فقدته بواسطة أبنائها المتعلمين لكن هذه الرغبة المحمومة المجسدة في طموحات النخبة الجديدة (أو البرجوازية الصغيرة الجديدة)

I) Elbaki Hermassi. Etat et Socété au Maghreb. Anthropos I975. page: 82.

2) الحبيب بورقيبة - مصدر مذكور . ص 31 - 32

3) رفعت السعيد " تأملات في الناصرية " - دار الطليعة - بيروت 1979 . ص 37 .

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

المتكونة - أساسا - من التعليم العصري لم تجد الطريق نحو سلمية الحراك الاجتماعي معبـدة " فلم يكن نصيب الشرائح المغربية الوسطى من هذه الوظائف يتجـاوز الـ29 ٪ . أما نسبة الذين ينتمون الى الشرائح العليا فلم يتجاوز 2 ٪ . (1).

ان هذه النخبة لم تنضم الى جملة القوى الاجتماعية الغاضبة فحسب بل ستكون شيئا فشيئا المنسق الاساسي باعتبار أنها الوحيدة التي تحسن الكلام بلغة المستعمر فكانت اللغة الفرنسية هي الاداة التي مكنتها من الهيمنة على بقية القوى المتحالفـة معهـا .

ان بروز هذه الهيمنة لا يمكن أن يفهم انطلاقا من " شروط الطبقـة " (أي تحريك وسائل الانتاج أو الموقع من الانتاج ووسائله) وانما اعتمادا على "وضعيـة الطبقة " أي علاقة جميع القوى الاجتماعية المهمشـة والمتواجدة على المستوى الاجتماعي بعضها ببعض وعلاقتها جميعا بالقوة الاجتماعية المهيمنة سياسيا وهي البرجوازيـة الصغيرة الجديدة .

ب) مظاهر "الوحدة القوميـة" من خلال الادلوجة المهيمنـة

ان حاجة الدولة الجديدة الى ادلوجة توحيدية ضرورة فرضتها الوضعية الاستعماريـة التي بقدر ما همشت من قوى اجتماعية بقدر ما جعلتهم ينخرطون في توجهات الحـزب الدستوري بقيادة البرجوازية الصغيرة الجديدة وفي تصوره للاستقلال لذلك اعتـبرت كل هذه القوى أن ذكرى 1956 هي ذكرى بداية الحصاد ، حصاد ما بذروا من نضـال .

و لما كانت " غيمة الاستقـلال" تختلف عن أية غيمة أخرى ولما كانت مطالـب

I) Samir Amin. Le Maghreb Moderne. Minuit. I977. page: 76.

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

و مصالح القوى الاجتماعية المختلفة متناقضة في غالب الاحيان فلقد كان لزاما على البرجوازية الصغيرة الجديدة المنسق بين هذه القوى أن يتحاور مع كل هذه القوى واحدة بعد الاخرى وبلغة مختلفة عن الاخرى . وما نرمي الى ابرازه الان أن هذا الحوار كان سياسيا قانونيا أحيانا وقسريا الزاميا أحيانا أخرى أما في أفضل حالاته فقد كان اديولوجيا بحتا يمر عبر قنوات الاسرة والمدرسة ووسائل الاعلام الاخرى دونما عنف أو اكراه . واذا كان طرف الحوار الثابت معروفا فان اطرافه المتغيرة الاخرى هي على التوالي الفلاحين والعمال ورؤوس الاموال أساسا .

ان توتر الجو داخل الارياف التونسية منذ نهاية الخمسينات وبداية الستينات لم يكن مجرد انعكاس لصراع داخل الحزب بين البورقيبيين واليوسفيين . قد يكون هذا الصراع سببا في وجه ما لكنه في وجوه عديدة ليس أكثر من مجرد قادح فسكان الريف التونسي وخاصة من كانوا أصيلي الجنوب هم في جزء كبير منهم من أنصار بن يوسف ولكن سنرى ان صراعاتهم لم تكن مع الشق البورقيبي الماسك بجهاز الدولة لاسباب مبدئية أساسها أنه كان يجب مواصلة الكفاح التحريري للاستقلال التام . ان الاشكال التي تشكلت فيها هذه الصراعات هي التي ستبرهن على ذلك .

أولا : كان الشكل الاول فرديا أو عشائريا حين تحرك بعض " قواد الفلاقة عندما عمدنا الى سحب بعض رخص النقل من هؤلاء القواد حتى لا يبقى في حوزتهم الا ما يقره العقل ولا يمنع من تنظيم قطاع النقل بكيفية مطابقة للاحوال الاقتصادية "(1) لقد نسي هؤلاء أنهم " أناس بسطاء " لذلك " استقر في أذهانهم أنهم هم الذين رفعوا السلاح وحاربوا في الجبال الى أن خرجت فرنسا " (2).

---

1) الحبيب بورقيبة - نفس المصدر - خطاب 18 جانفي 1963 - ص 43.

2) الحبيب بورقيبة - نفس المصدر - ص 39 .

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

ان موقف الدولة من هؤلاء الفلاقة هو موقف طبقي اذا اعتبرنا أن المنتفع من هذا الاجراء الاقتصادي هم أصحاب رؤوس الاموال الذين سينظمون قطاع النقل بطريقة عقلانية وهذا هو الذي يهم الدولة والدليل على ذلك انها لم تتخل عن سكان الريف فهي تسعى الى " تعويدهم على الاستقرار فتعطيهم أراضي وتحفر لهم فيها الابار و تحبب اليهم غراسة الاشجار ... لكن الرجل من هؤلاء لا يريد أن يزرع شجرة .. "(1)

ثانيا : كان الشكل الثاني وهذا هو الشكل الاكثر شيوعا في الريف ذا طابع سلبي اذا اقتصر على موقف دفاعي وحتى خضوعي تجاه الدولة يصارع الفلاح الدولة بمزيد من الانزواء والتقوقع في انتماءات عائلية وعشائرية مقابل عدم اهتمامها به .

ثالثا : الهجرة الداخلية والهجرة الخارجية هي الشكل الدفاعي الذي به يتحصن الريفي من الدولة وفي هذا الشكل سنكتشف أن الصراع لا يرمي الى مجرد رفض النمط التنموي الذي تتبعه الدولة وانما في غالب الاحيان الى التماهي فيه .

ان نزوح سكان الريف نحو العاصمة أو الهجرة السرية التي يمارسها سكان ريف الجنوب أو غرب البلاد وان تكن مظهرا من مظاهر الصراع ضد الدولة الطامحة الى شدهم الى أرضهم والى مراقبة تنقلاتهم الحدودية فهي في دوافعها النفسية - الاجتماعية مظهرا من مظاهر الامتثالية (le conformisme) والتماهي في نمط الحياة الذي تسعى له هذه الدولة " دولة السلم الاجتماعية " رغما عن الفوارق التي لم تنشأ الا من الاستعمار أو من النعرة العشائرية . " ان الوطن هو عائلة موسعة يتجاوب كل أعضائها بعضهم مع البعض الاخر تحت رعاية عين الدولة التي لا تنام " (2) أما

---

1) الحبيب بورقيبة - نفس المصدر - ص 41

2) بدرة بشير - مساهمة في دراسة المجموعات الاجتماعية - تحليل للتصورات المضمنة في كتب القراءة العربية للتعليم الابتدائي (بالفرنسية) مجلة السارس - السنة 1980 عدد 63. ص 14.

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

الاختلافات فهي شيء طبيعي تفرضه طبيعة العقلنة القائمة على تنوع الوظائف و تمايز الادوار فمثلما يصل " حب العامل المديني لعمله حدا يجعله يضحي بيوم راحته الاسبوعية ، فان الفلاح يحب أرضه حبا شديدا ولا شغل له سوى اثمارها " (1) .

لا ريب اننا أمام صورتين متناقضتين الاولى ايديولوجية والثانية واقعية صورة ايديولوجية للريف وأخرى واقعية له لكن هذا التناقض لم يمنع الاولى من التأثير في الثانية وتحويرها مغيرة بذلك ذهنية سكان الريف بنشرها لرغبات و حاجيات وقيم جديدة لم يألفوها من قبل و مع ذلك فان ادعاء الايدلوجة الوطنية تحقيق الاندماج الاجتماعي و نفي العشائرية تبقى مسألة اشكالية تحتاج الى نقاش سنعود اليه لا حقا لانه لا يمس الفلاحين فحسب بل وحتى العمال المدنيين مثلما سنرى الان .

شكل العمال ، برغم هجانة الصناعة التي تركها الاستعمار الفرنسي قوة اجتماعية أكثر تلاحم من الفلاحين اذ أفرزت منظمة نقابية تحملت عبئا ثقيلا في حركة التحرير فتبوأت مقاما مكنها من منافسة الحزب نفسه في ضبط السياسة التنموية لاحقا . يتجلى هذا خاصة من خلال المؤتمر الذي انعقد بتونس سنة 1956 وتمخض عن برنامج تنموي للبلاد تضمن من جملة ما تضمن "أن الدولة وحدها ، وليست أية طبقة اجتماعية ، هي القادرة على المضي قدما ببرنامج التنمية الاقتصادية والسياسية ... فالدولة مطالبة أولا بالتدخل لايقاف " تبذير الاغنياء " وتحويل ذلك التبذير الى السبل المجدية ". (2)

ان مثل هذا الكلام ينسجم تمام الانسجام مع رؤى و تصورات البرجوازية الصغيرة الجديدة الماسكة بجهاز الدولة من حيث انه يعطيها مشروعية وجودها ومع ذلك

---

1) نفس المصدر - ص 17 .

2) Abdessatar Sahbani. Analyse Sociologique des notions de développement et de planification à travers une relecture des textes fondamentaux de la politique économique tunisienne, Certificat d'aptitude à la recherche. Faculté des lettres et des Sciences Humaines de Tunis I984. page: 55.

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

فانه كلام لا يطمن كثيرا من حيث أنه يهدد " الوحدة القومية بالماعه الى تبذير" الاغيـــاء" .

ان قدرة هذه المنظمة على التحليل والنقد يرتبط بشكل أو بآخر بالفكـر الشيوعي عامة الذي ان تواصل تغلغله في فكر العمال فانه لن يهدد "الاغيـــاء" فحسب بل وأيضا الدولة نفسها لانه ينادي بدكتاتورية البروليتاريا وهذا معنـاه أن المجتمع متكون من طبقات متناحرة ولهذا كان على قيادة الحزب والدولة أن " تنفـي الصراع الطبقي وحتميته " (1) وتنادي بـ"دكتاتورية الصلحة العامة " ونبذ الشيوعيـة التي ترمي الى " القضاء على طبقة كاملة من الشعب". (2)

ان هاجس الصراع الطبقي الذي كان يثيره أي تحرك نقابي على امتـداد كل العشريات التنموية، ظل المحرك الاساسي لوجهين من الخطاب الادلوجي الـذي تبثه الاجهزة الاعلامية والتربوية أولهما أخذ شكل جدل كـلامـي (Polémique) صريح عن طريق وسائل الاعلام المعممة كالراديو والتلفزة (3) القصد منه ربط هذا التحرك أو ذاك بالفكر الشيوعي " الخارجي" وأطروحة الصراع الطبقي المهددة للوحـدة القومية . أما الوجه الثاني فقد كان خفيا ولكنه أكثر نفاذ في العقول لانه - بحكم مروره عبر قناة المدرسة - يتوجه الى الشباب . في هذا الخطاب تصبح مسـألـة الوحدة القومية من الشفافية ومن البداهة بحيث يصبح الحديث عنها أمرا خاطئـا

I) Anouar Abdel-Malek. La pensée politique arabe contemporaine. Seuil I970, page 256.

(الكلام في هذه الاحالة هو كلام أحمد بن صالح صانع تجربة التخطيط أثناء الستينات في تونس)

2) الحبيب بورقيبة - مصدر مذكور سابقا - خطاب 18 جانفي 1963. ص 63.

3) فقرة توجيهات الرئيس التي امتد بثها على سنوات طويلة في الاذاعة والتلفزة والتي كانـت تختار حسب الازمات الراهنة .

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

فنحن هنا أمام " عالم شغل تتغذ فيه الاعمال المضنية بكل سعادة وتفان فنصوص مدرسية على شاكلة : أيها العمال - وثمن المهارة - واتقان العمل - وثمرة التعاون - وسر النجاح - وأحب العاملين - وسعيد الحمال وغير ذلك تبين أن " العامل سعيد بخدمة سعادة المجموعة ومتمتع بأجر جد محترم " لذلك فهو " لا يبخل بشيء من قوة عمله الى درجة أنه يضحي بيوم راحته الاسبوعية لينجز عملا نافعا لمجتمعه " أكثر من ذلك فلا" يخطر على باله البتة أن يطالب الدولة بترقية أو ترفيع أجر أو اعتبار لظروف عمله ". (1)

ان سعادة الفلاحين والعمال الوهمية كما تصورها الكتب المدرسية للصغار أو كما يتماهى فيها الكبار والصغار من خلال المسلسلات التلفزية ضرورة لابد منها لتوفير ضمان جميع وسائل النجاح بيد الدولة التنموية ، دولة "الكفالة "دولة " الصالح العام ".

هل نحن أمام ادلوجة برجوازية ؟ ان اعجاب نخب الدولة بالحداثة الاوروبية يجيب بنعم. ولكن أليس هذا الاعجاب تماثلا بصالح الرأسمال الخاص المبهور أيضا بحداثة أوربا؟ ان علاقة الدولة بهذا الرأسمال الخاص وما طرأ عليها من تغيرات لها ارتباط وثيق بالتوجهين التنمويين الذين ميزا التخطيط خلال عشريتي الستينات والسبعينات أولا ونشأة برنامج التنمية الريفية ثانيا .

---

1)بدرة بشير - نفس الصدر - ص16. 17 .

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

III - التخطيـــــــط

أدى نجاح التجربة التنموية في الاتحاد السوفياتي الاشتراكي والازمات التي مرت بها المجتمعات الرأسمالية الاوربية والامريكية بعد 1929 والحرب العالميـــــة الثانية الى اعتبار التخطيط مظهرا من مظاهر العقلنة لانه يرمي الى تحقيـــــق غايات وأهداف تنموية طبق الموارد البشرية والمادية المتوفرة معتمدا في ذلـــك على أفضل الوسائل وأنجعها ويتأكد طابعه العقلاني من خلال قدرته علـــى الحساب و التكهن ولو كان ذلك في حدود تقريبيـــة .

1 - أنـــواع التخطيـــط

أ) - التخطيط الارادي

" وقع تبني التخطيط بصفة رسمية، كمنهج للتنمية الاقتصادية ولمراقبة المجتمع ابتداء من سنة 1928 في الاتحاد السوفياتي " (1) ويختص هـــذا النـــوع من التخطيط بخاصيتيـــن :

أولا : المركزية بمعنى أن " موسسة Gosplan الدولاتية هي التي تضبـــط الخطوط العامة للانتاج والاستهلاك والتوزيع اعتمادا على دراسة عقلانية " (2) .

ثانيـــا : الارادية ، فهو تخطيط ارادي من حيث عدم خضوعه لقوانين الســـوق و الارادات الفردية اللاعقلانية .

ب) - التخطيط التوجيهـــي

" يتأصل مفهوم التخطيط التوجيهي في نمط انتاجي آخر أساسه اقتصـــاد السوق " ذلك أن الازمات الاقتصادية التي ذكرناها في مقدمة هذا الفصـــل

I) Abdessatar Sahbani, Opcit. page 8I.

2) Abdessatar Sahbani, Op cit . page 8I.

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

الثالث شككت كثيرا في عقلانية النظام الرأسمالي وفي المبادرة الفردية خاصة . من هنا " بدت ضرورة مخططات تنمية لاعادة البناء وتنظيم الاقتصاد لكنها مخططات " توجيهية " أو تحفيزية مثلما يقال في فرنسا "(1).

ج)- تجربة التخطيط التونسية

يلخص الباحث عبدالستار السحباني (2) الاسباب التي دفعت الدولة الى أن تتخلى عن سياستها الليبرالية و تتبنى التخطيط الارادي انطلاقا من الستينات :

- "فشل الليبرالية التي وقع تبنيها منذ 1956". والواقع فان بريق هذه الليبرالية لم يكن كمنهج للتنمية الاقتصادية فحسب وانما أيضا كنمط حياة تشبعت به البرجوازية الصغيرة الجديدة التي اتصلت بشكل أو بآخر بالحضارة الغربية و رغبت في استنساخها .

- "يتطلب مثل هذا النوع من التخطيط التعبوى توعية شاملة للكتل الشعبية و بنية أساسية جاهزة غير أن تخلف الهياكل الاقتصادية و الاجتماعية السائدة حالت دون الدولة وهذا التخطيط الذي تأجل لسنوات أخرى ". لكن هل تحققت جملة هذه الشروط أثناء الستينات؟ أبدا ، لذا يبدو أن ما تم انجازه لفائدة القوى الشعبية لم يكن في مستوى توقعاتها خاصة اذا ذكرنا بنظرة هؤلاء لمفهوم الاستقلال اذ يعتبرون خروج الاستعمار الفرنسي نقطة البداية في الحصاد و يضيف باحثنا نقطة أخرى هي "التوصيات التي تقدمت بها الامم المتحدة في برنامجها التنموى لعشرية 1960 - 1970 واشتراطها على " البلدان المتخلفة"

I) Ibid. page 82

2) Ibid. page II

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

سياسة اقتصادية مخططة مقابل أية اعانـــة ".

بناء على كل هذه العناصر، وقع تبني هذا المنهج التنموي " فتـأسســت كتابة الدولة للتخطيط والمالية سنة 1961 بفضل تواجد فريق من الفنيين في مجـال الاقتصاد الذين أكبوا على الوضعية الاقتصادية للبلاد لاكتشاف خصائصها وأسبـــاب تخلفها ." (1) كما تم بعث المجلس القومي للتخطيط (الذي يلعب نفس الـــدور الذي يقوم به (Gosplan) " الجهاز الذي يضبط أهداف و أولويـات وسرعـة الانجاز المطلوبة ثم يقترح الاجراءات الموجهة الحاثثة على التنمية الاقتصاديـــة و الاجتماعيـة " (2).

د) خـاتمـة

سبق أن قلنا أن عشرية الستينات لن تهمنا في هذا الجزء الاول من البحث الا عرضا ، لذا فاننا لن نقرأ تجربة " التخطيط الارادي " قراءة "طبقيـــة" مفصلة لتحليل الاسباب الاجتماعية و التناقضات التي دعت الى هذه السياســـة التخطيطية أو التي ساهمت في افشالها لا لان هذه الامور غير ذات بال على العكس من ذلك فهي من الاهمية بحيث سنعود اليها في الجزء الرابع والاخيـــر من هذا العمل .

يقتصر همنا هنا اذن على ذكر التفسيرات التي ستقدمها الدولة لتفسيـــر التحول الذي طرأ على العقلنة التنموية بمرورها من "التخطيط الارادي" الـــى " التخطيط التوجيهي " هذه التفسيرات تهمنا بدرجة أولى لانها تشمل من جملـــة ما تشمل برنامج التنمية الريفية الذي تأسس خلال عـشريـة التخطيط "التوجيهـي" الاولـــى .

I) Ibid. page 84.

2) Ibid. page 85.

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

2 - طموحات المخططات التنموية للستينات ونتائجها

أ/ - الطموحات

ترمي سياسة التعاضد التي جربت في الستينات الى تركيم رأس مال من وراء فائض الانتاج الصناعي والفلاحي ومداخيل الضرائب المتأتية من القطاع الثالث ويهدف ذلك الى اعادة توظيف ذاك الفائض في مشاريع جديدة تحقق التنمية المنشودة المتمثلة في تغيير الهياكل من حالة التقليدية الى حالة الحداثة بادماج عاطلي المدن والريف في الدورة الاقتصادية الجديدة وتحسين مستوى عيشهم .

لما كان النموذج المرجعي للتنمية هو النموذج الاروبي الذي قام على التصنيع فقد رأت تكنوقراطية التخطيط أن تعصر الفلاحة لرفع انتاجها وانتاجيتها حتى توفر الفائض اللازم لتمويل الصناعة غير أن هذا لا يتطلب مجرد أدوات و آلات حديثة و انما تعبئة شاملة للفلاحين، صغار الفلاحين في مرحلة أولى وكبار الملاكين العقاريين في مرحلة ثانية .

اذا كانت مسألة تجميع العمال في منشأة صناعية واحدة أمرا سهلا فان تجميع جملة الفلاحين بأراضيهم بعد ضمها الى بعضها عمل صعب لانها ترتبط بالنسق الثقافي الذي تندرج فيه ذهنية صغار الفلاحين فزيادة عن تعلق كل منهم بأرضه ذلك التعلق " الخرافي " تبدو هذه العملية في نفس ذلك النسق الثقافي غير غريبة عن الفكر الشيوعي الذي يتناقض مع الملكية الفردية يضاف الى كل ذلك الجهل الذي يميز هؤلاء الفلاحين ويجعلهم في وضعية دونية أمام

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

بيروقراطيي هذا النظام التعاضدي الذي سيحولهم من مالكي أرض الى مجرد عملة يطيعون الاوامر .

لكن وبرغم هذه العوائق التي وقفت في وجه هذه الطموحات فان هذه التجربة قد تواصلت على امتداد العشرية وأفضت الى نتائج هزيلة الى حد يجعلنا نعتقد للوهلة الاولى أنه لم يغنم منها أي طرف اجتماعي .

ب/ - النتائج

لو أقمنا علاقة بين مدى تقدم عقلنة التنمية ومدى تقدم التشغيل أثناء هذه العشرية لانتهينا الى نتيجة مفادها أن " تغطية الطلب الاولي المقدر بـ400.000 شغل لم ينجز منه الا 132.000 وتضاف الى هذا العجز الطلبات اللاحقة سنويا ". (1)

فهل كانت سياسة التعليم المعمم والمكننة الفلاحية هي الاسباب الاساسية لهذه البطالة المتنامية و الركود الاقتصادي ؟ الاولى لانها " عرضت على سوق الشغل أفواجا من المتعلمين كانت نسبة العنصر النسائي فيها يفوق أربع مرات نسبة الرجال "(2) والثانية لانها تقع " بالتداين من المؤسسات الاحتكارية الاجنبية " . و تقدر فيها " مصاريف اصلاح الالات الفلاحية وصيانتها بقرابة ثلثي منتوج الوحدة التعاضدية في حين يكون الثلث المتبقي لاجرة اليد العاملة "؟ (3) .

---

1) حسن الديماسي - التراكم الرأسمالي وتوزيع المداخيل - تعريب وعرض ثابت المرواني مجلة أطروحات جانفي فيفري 1985. ص 86 .

2) نفس المصدر ص 86 .

3) نفس المصدر ص 83 .

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

لنفترض "جدلا - أن عمل المرأة والمكنة كانا وراء ارتفاع نسبة البطالة فهل كان بيروقراطميو التخطيط على جهل بأن التعليم سيؤدي الى دخول المرأة مجال الشغل والمكنة الى توفير عدد من قوة العمل ؟ أبدا لا يمكن البتة تصور ذلك . ولهذا يصبح القول بأن "المتعاضدين هم الذين عارضوا السياسة القائمة بتنظيم بعض الاضرابات ... احتجاجا على اجراءات الاستحواذ على ممتلكاتهم... "والملاكين العقاريين الذين وان كانت "معارضتهم لتجربة التعاضد محتشمة و مقنعة" في مرحلة أولى فانها " انكشفت فيما بعد " في مرحلة ثانية . (1) .

على هذا الاساس وضع حد لتجربة الستينات وتم التخطيط لتجربة جديدة هي تجربة السبعينات التي ستقوم مثلما سنرى على أساس تقييم للعشرية السابقة . في نظر الدولة لا يعتبر هذا التحول تخل عن العقلنة و التخطيط وانما اضافة لعنصر أهمل . والدليل على ذلك انها لن تتخلى عن القطاع العام وعلى وجه الخصوص القطاع التعاضدي بل ستحافظ عليهما الى جانب القطاع الخاص الذي لم ينل حظه فيما مضى .

3- الآفاق التنموية للسبعينات

كانت النتيجة التي أفضت اليها تجربة الستينات غضب كل القوى الاجتماعية بدءا بالفلاحين والعمال الى أصحاب رأس المال العقاري أو البنكي فهل كانت الاهداف و الغايات المرسومة لا عقلانية أم أن الوسيلة المتبعة - التخطيط الارادي - هي التي كانت كذلك ؟

ان المتأمل في الخطاب التنموي لعشرية السبعينات لا يستطيع الا أن يؤكد

---

1) حسن الدياسي - نفس المصدر ، ص 84 .

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

ثبات الاهداف والغايات التي تبنتها عشرية الستينات " فتحديث المجتمع وتغيير هياكله التقليدية " مسألة لا تراجع فيها لكن الجديد يتمثل في الوسيلة التي سيتم بها ذلك يجب أن تتغير. فالتراكم العنيف الذي تمثل في تعميم النظام التعاضدي بصفة مبالغ فيها والذي اتبعته الدولة بغية انجاز مشروعها المجتمعي قد أدى الى نتائج عكسية نظرا لانه غفل عن " طبيعة المجتمع التونسي مجتمع الوسط الذي لا يتحمل التطرف " (1).

فماهي الخطوط الكبرى لهذه التجربة الجديد ؟

أ:/ ـ التراكم والتنمية في السبعينات

انعكس هذا التوجه التنموي الجديد على حظوظ كل من القطاعات التنموية الثلاثة فمسؤولية التنمية لم تعد حكرا على مؤسسات الدولة وحدها فللأفراد دورهم الاساسي نظرا لما "لغريزة الملكية" و"المبادرة الفردية" من أثر دفع عجلة التنمية و على هذا الاساس فان صغار التجار وصغار الفلاحين الذين كانوا مجبرين على التجمع في وحدات تعاضدية أصبحوا في حل من ذلك "فلهم الحرية في التعاضد أو العمل الفردي .." (2) ولئن قابل هؤلاء وخاصة الفلاحين منهم هذا الاجراء بالترحاب فانه لن يغير كثيرا من سوء وضعيتهم طالما بقيت تحت رحمة الظروف الطبيعية (جفاف ، فيضانات ...) والاجتماعية المتمثلة في الهجرة الداخلية و الخارجية. وهذا ما اضطر الدولة للتدخل لمساعدتهم مرة أخرى ولكن بشكل مغاير.

ان الذين غنموا حقا من هذا التوجه الجديد هم أصحاب الملكيات العقارية الكبرى ورؤوس الاموال البنكية وستتكفل الصناعة التي انتشرت في أهم المدن

I) Abdessatar Sahbani . OP. cit , page 90.

2) Abdessatar Sahbani. Op. cit , page 181.
(الكلام للباهي الادغم الذي أصبح وزيرا أولا بعد خروج احمد بن صالح من الحكم).

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

الساحلية واستأثرت بأغلب الرأسمال الاجنبي والداخلي وبدأت في تدعيم مساهمتها في المنتوج الداخلي الخام بغاية تغيير الهياكل الاقتصادية والاجتماعية باقامة الدليل على ذلك .

منذ بداية السبعينات أخذت مساهمة التراكم الذاتي في التمويل في التضاؤل بتضاؤل دور الدولة في عملية التركيم وذلك بتقليص الضرائب الثقيلة التي كانت تؤخذ من أصحاب الجرايات والاجور البسيطة فبعد أن كانت تساهم بنسبة " الثلثين على امتداد الفترة 1962 - 1968 أصبحت مساهمتها لا تتجاوز النصف على امتداد الفترة 1973 - 1976 "(1) ومقابل ذلك ارتفعت مساهمة رأس المال الخاص في الصناعة التونسية من 49,86 ٪ سنة 1965 الى 69,8 ٪ سنة 1972 (2) ولنا أن نتساءل هل يمثل هذا تراجعا لدور الدولة التنموي ؟ .

ان هذا الدور لم يتراجع الا على مستوى الاقتصادي لكنه أصبح أكثر فعالية على مستوى الادلوجي والسياسي . أدلوجيا لا فائدة من استعادة الوظائف التي ما فتئت تقوم بها المؤسسات التعليمية والاعلامية خاصة بعد التعميم المتزايد للتلفزة والراديو في ترسيخ " الوحدة القومية " وتعبئة كل المواطنين في نمط مجتمعي جديد . سياسيا ، وتماشيا مع تراجع المداخيل الداخلية المستمدة أساسا من الضرائب المباشرة وغير المباشرة أحدثت جملة من القوانين الاستثمارية التي أعطت دفعا كبيرا للحركة الاقتصادية بأهم المدن الساحلية . لقد كانت هذه القوانين التي تتابعت من أفريل 1972 و أوت 1974 و جويلية 1976 - من الشهرة

---

1) عزام محجوب - الصناعة تراكم رأس المال في تونس منذ نهاية القرن الثامن عشر - تعريب وعرض محمد علي العربي - مجلة أطروحات جانفي فيفري 1985 . ص 65 .

2) نفس المصدر . ص 76 .

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

و الرواج بحيث أضحى مزيد الحديث عنها مجرد تكرار.لذا نكتفي بالقول أنها أتاحت للرأسمال الاجنبي الدخول الى الصناعة التونسية بأفضل ما يمكن من التسهيلات و الامتيازات سواء من حيث الاعفاء من الضرائب و الرسوم الجمركية أو التمتع بالبناء التحتي الذي كانت جهزته عشرية الستينات في نسبة كبيرة منه أو من حيث توفير اليد العاملة الماهرة وغير الماهرة والبخسة أو أخيرا من حيث امكانية التمركز في الاماكن الساحلية .

هذا أدى الى تطوير عدد من الصناعات ، فانتاج البترول " ارتفع من 800.000 طن سنة 1966 الى 5 ملايين من الاطنان سنة 1986 (بلغ الرقم القياسي لهذا الانتاج 5ر6 مليون طن سنة 1980) " و لقد " استطاعت الشركات البترولية الاجنبية استخراج 90 مليون طن على امتداد عشرين سنة وهذا أدى أولا الي تلبية حاجات البلاد من الطاقة وثانيا الى تحقيق فائض هام لفائدة خزينة الدولة يناهز 8ر2 مليارا من الدينارات "(1) .

و لقد عرفت الصناعة السياحية بدورها - على رغم الازمات التي اعترتها خلال السبعينات من جراء الازمات الاوروبية المرتبطة بدورها بأزمة البترول - انتظاما وثباتا في تطور مداخيلها فبعد ان كانت " لا تتجاوز 2 ملايين من الدينارات في بداية الستينات ، بلغت 26 مليون دينار في نهاية تلك العشرية ، ثم ارتفعت الى 115 مليون دينار سنة 1975 و 300 مليون دينار سنة 1981 "(2) .

لكن وبرغم قيمة هذه المداخيل ، فان الخوف من عدم استقرارها ظل قائما

I) Jeune Afrique. Op . cit, page I7.

2) Ibid. page I7.

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

لذا وجه الاهتمام بالتوازى الى مجالات أخرى كالنسيج والجلد التي أصبحت معا تحتل " المرتبة الثالثة بين القطاعات الموفرة للعملة الصعبة بقيمة وصلت الى 360 مليون دينار سنة 1986 ، فعلى سبيل المثال تنتج تونس اليوم (1986) 16 مليون زوج من الاحذية و 70 مليون قطعة من الملابس الجاهزة و 30 مليون متر من القماش " (1).

ب:/ الابعاد الاجتماعية للتنمية

ان هذه الحركية التي تميزت بها صناعة السبعينات والتي كان رائدها الرأسمال الاجنبي أساسا، لم تعف الدولة من مهمة التركيم على أكتاف الفئات و الطبقات الشعبية فحسب، بل غذى أيضا طموحا كبيرا في القضاء على معضلة التشغيل هذا أولا أما ثانيا فتحقيق أكثر ما يمكن من العدالة الاجتماعية في توزيع المرابيح .

لو أقمنا مقارنة بين انجازات العشرية الاولى وانجازات الثانية في مجال التشغيل فسنلاحظ تحسنا ملموسا اعتمادا بالاساس على الاحصائيات الرسمية. فاذا كانت القدرة على الاستجابة لطلبات الشغل تقدر بـ " 63 ./. من مطالب الشغل المعروضة على السوق ، مما جعل أوربا تشغل أغلب العاطلين " فان الازمة الاوربية التي استفحلت في منتصف السبعينات رمت بحمل هؤلاء العاطلين على الصناعات المعملية (بفضل التمويلات الاجنبية الهامة) وهذا ما جعل قدرة الاستجابة لمطالب الشغل تصل الى "85 ./. ، ولقد أحصيت مواطن الشغل التي تحققت من سنة 1972 الى سنة 1981 بـ 400.000 " (2).

I) Ibid. page I7.

2) Ibid. page 20.

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

ولقد اعتبرت التقارير الرسمية أن هذا مؤشرا على " تراجع الفقر، ففي ظـــرف عشرين سنة من التنمية كان هناك ثلاثة تونسيين على أربع (1961) يعيشون تحـــت عتبة الفقر أما اليوم فلم نعد نحصي أكثر من واحد على خمسة "(1) والواقع فـــان افلات تسيير الاقتصاد من يد الدولة وتخليها عن دور العرف المباشر وتنامي طبقة شغيلة بالصانع وتزايد جيش الموظفين الدلازمين للقطاع الثالث الضروري لمثل هـــذا النمط التصنيعي التصديري أدى الى اعادة الحياة للمنظمة النقابية التي وضعـــت منخرطيها وجها لوجه أمام أعرافهم بغية الدفاع عن مصالحهم وتحسين وضعيتهم الاجتماعيـة و المهنيـــة .

غير أن الدولة بحرصها الدائم على الحفاظ على " الوحدة القومية " و السلـــم بين " مختلف فئات الشعب " سارعت " بتطبيق سياسة العقود المشتركة على الطريقة الامريكية التي تتطلب قيادة نقابية لها في نفس الوقت مصداقية لدى القواعد وانحياز لسياسة السلطة " سرعان ما أدى هذا الى بعض الاضرابات التي اضطرت الاعـــراف الى الزيادة في الاجور " بنسبة 7ر5 ٪ . سنويا وذلك اعتبارا من 1970 الى 1975 "(2). و ما يلاحظ هنا أن هذه الزيادات لم تربط بزيادة في الانتاجية وسنرى أن هـــذا الربط سيبدأ مع عشرية الثمانينـات .

و اذا كانت " دولة الكفالة " قد ضمنت حقوق العمال و الموظفين بتطبيـــق سياسة "العقود المشتركة" و السماح باستقلالية نسبية في العمل النقابي فما الـذي ارتأته بالنسبة لصغار الفلاحين الذين جعلتهم ، هي ، في حل من العمل التعاضـدي ، و أتصتهم الصناعة الجديدة ـ بحكم تمركزها في المدن الكبرى ـ من أنشطتهـا ؟

I) Ibid. page I9.

2)عزام محجـوب ـ نفس الصدر ـ ص 76 .

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

ان حرمان صغار الفلاحين من المشاركة في التنمية الجديدة لا يمكن أن يؤدي الا الى نزوح أفواج منهم نحو المدن وهذا لن يكون له مجرد سلبيات أخلاقية تفرزهـــــا الا حياء القصديرية ثم تنشر في بقية الاحياء المتوسطة و الغنية فتسعى أجهزة الامـــن للقضاء عليهـــا و اخراجها " اخراج الشعرة من العجـين" (1) فالامـر أخطـــر من ذلك لانه ينذر بتحركات وحتى أزمات (1978 - 1980 - 1984) تهـــــدد " الوحدة القوميـة " وتبعث الخوف لدى الرأسمال الاجنبي الذي لا يغامر بأمـوالـه الا اذا كان قد ضمن السلم الاجتماعيـــة .

---

1) العبارة كثيرة الاستعمال من قبل الوزير الاول الاسبق محمد مزالي .

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

III برنامج التنمية الريفية

صدر أمر رئاسي جاء في فصله الاول "احداث برنامج تنمية جهوية تتدرج فيه الاعمال الجارية في ميدان حضائر الشغل الجهوية وبرنامج تنشيط الحياة الريفية وتطوير العمل بالرفع من مستواه وكذلك كل نشاط آخر يتعلق بالتنمية يقع انجازه في النطاق الجهوي ضمن المخطط القومي للتنمية الاقتصادية والاجتماعية"(1).

وقبل أن نحدد أهداف هذا البرنامج لابد من تقديم ملاحظتين اثنين :

- ان البرنامج وان يكن موجها الى المناطق الريفية أساسا فان مشاغله ليست فلاحية بحتة ففيها التكوين المهني وخلق وتدعيم مواطن الشغل والحضائر الجهوية التي تبدأ من الفلاحة لتمر ببقية الاختصاصات المهنية الاخرى كالنجارة والحدادة و النسيج والميكانيك وغيرها ... اضافة الى ذلك تدخل في أهداف البرنامج تحسين ظروف العيش من حيث المسكن والدراسة والصحة وغير ذلك وأخيرا توجد به بعض التدخلات الاخرى ذات الاهمية الثانوية ...

- لما كان انتباهنا ،من خلال هذه الدراسة مركز على الفلاحة نقول أن الفلاح المعني بالامر في هذا البرنامج هو ذو الملكية الصغيرة أما الفلاحون أصحاب الملكيات المتوسطة أو الكبيرة فسنعود للحديث عنهم في مكان آخر وباختصار شديد .

1- أهداف برنامج التنمية الريفية

حددت أهداف البرنامج كما يلي :

أ-) هدف اقتصادي اجتماعي يتعلق " بتطوير التشغيل وتحسين ظروف العيش في

---

1) التنمية الريفية خطة انمائية تكميلية - دار العمل للنشر 1979. ص 5.
أحدث هذا البرنامج بأمر رئاسي عدد 310 صادر في 20 جوان 1973 .

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

المناطق الريفيـــــة".

ب-)هدف اداري تندرج اتجاهاته الكبرى في " اطار سياسة اللامركزيـة التـي انتهجتها الحكومـــة ".

تخض الطرف الان عن هدف اللامركزية ونوجه اهتمامنا الى الهـــــدف الاول، فنقسمه الى قسمين : الاول التشغيل وتدعيمه والثاني تحسين ظروف العيش نطالع في خطب المسؤولين الحزبيين أو الحكوميين " في مجال احداث مواطـــن الشغل وادماج الشبان الذين تم تكوينهم يتجه هذا المشروع ... الى تمكيـــن الشبان من شغل يوفر لهم حياة كريمة "أو في مكان آخر " ستتجه العنايـــــة في اطار البرنامج العادي للتنمية الريفية الى احداث أكثر ما يمكن من مواطـــن الشغل " (1).

أما العبارة الثانية والتي ترد عادة مرادفة لعبارات مثل " فرحة الحيـــاة" و " الحياة الكريمة " فقد جاء حولها "أما بالنسبة لتحسين ظروف العيـــش، فقد بلغت الاعتمادات في الخطة الرباعية 18 مليون و 200 ألف دينارا شملـــت خاصة بناء الطرقات الفلاحية وايصال النور الكهربائي والماء الصالح للشراب الـــى المناطق التي تفتقر اليها كما شملت بناء المساكن الريفية ودور الثقافة والملاعب الرياضية التي من شأنها أن تشد الريفي الى منطقته وتجعله يسعد بعيشه هناك". (2)

ماهي الاعتمادات التي رصدت للبرنامج ، كيف تصاعدت مقاديرها وكيف صرفت؟ نجد في الجـــدول والفقـرات الموالية اجابة عن هذه التســاؤلات

---

1)التنمية الريفية خطة تكميلية انمائية - نفس المصدر - ص 7 - 15 -

2) محمد الفخفاخ عمر بالهادي محسن ذياب - دراسة تقييمية لبرنامج التنمية الريفيـة وزارة التخطيط - المندوبية العامة للتنمية الجهوية - مـــاي 84 تونس. (باللغة الفرنسية).

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

اعتمادات البرنامج المخصصة خلال المخططين الرابع والخامس

المخطط الرابع	26,6 م . د	32,5 /. .
المخطط الخامس	101,3 م . د	52,6 /.
1982	28,6 م . د	14,85 /. .
1973 - 1982	192,5 م . د	100 /. .

عرفت اعتمادات برنامج التنمية الريفية معدلا سنويا يقدر بـ 15,6 م . د خلال المخطط الرابع و 20,2 م . د أثناء المخطط الخامس وقدرت (1) في المخطط السادس بـ 28,5 م . د ولنسوق مثالا على الكيفية التي تصرف بها هذه الاعتمادات لنأخذ المخطط الرابع .

- البرنامج الفرعي العادي : على امتداد هذا المخطط خصصت له الحكومة مبلغ 47 م . د وهو برنامج تتوزع اعتماداته بالتكافوء على كل الولايات و تتضمن مشمولاته مشاريع كثيرة ومتنوعة الغرض منها مساعدة الولاية على تحقيق أهدافها العاجلة في مجالات التكوين المهني وخلق مواطن الشغل وتدعيمها كما يعتني هذا البرنامج ببعث التجهيزات الاساسية في الولاية وتحسين ظروف العيش .

- البرنامج الفرعي للمشاريع المتكاملة : من جملة 63,1 م . د معتمدة لكل البرنامج خلال المخطط الرابع ، حظي هذا البرنامج الفرعي بـ 6 م . د وهو يعنى بالنهوض بمناطق معينة لها امكانيات غير مستغلة فيقع تنميتها بصورة متكاملة مع القيام

---

1) التنمية الريفية - خطة تكميلية انمائية - نفس المصدر . ص 15 .

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

بانجازات في ميادين تحسين ظروف العيش و التكوين المهني .

- البرنامج الفرعي للولايات الحدودية : رصدت له حوالي 10 م . د ، وقد أحدث خصيصا لتمكين الولايات الحدودية الخمس وهي جندوبة والكاف والقصرين وقفصة ومدنين من اللحاق ببقية الولايات الاخرى .

2 - بعض الصاعب التي يطرحها البرنامج :

سنقدم بعض الافكار التي وردت في دراسة قام بها ثلة من الاساتذة (1) لتقييم تجربة برنامج التنمية الريفية بدءا من سنة 1973 وانتهاءا الى سنة 1982 و امتدادا على كامل البلاد . ولقد حرص صوطفو هذا العمل منذ البداية على الاشارة الى أن ما قاموا به مجرد تقرير أولي تحتاج احصائياته الى مزيد التثبت ونتائجه الى أكثر تحر. لكن هذا التواضع لا يمكن أن يحجب عنا قيمة العمل الكبير الذي أنجزوه لتوضيح ما التبس من أهداف البرنامج وما اعترضه من عوائق مادية وبشرية وتقنية بكل تفصيل .

قد نعود الى الجانب المركزي من هذا التقرير في أماكن أخرى من البحث، ونقتصر الان على شيء طريف لفت الانتباه فيه وهو الاتي : ختم التقرير بعدد من التساؤلات أو بالاحرى من الاختيارات المأزقية des dilemmes هي كذلك لان كل تساؤل منها يجعل السائل أو المسؤول في وضعية غير مريحة لان الاختياران المطروحان متساويان . غير أن الطرافة لا تكمن هنا وانما في أن تلك التساؤلات التي ختم بها التقرير هي عينها التي كان قد بدأ بها .

---

1) محمد الفخفاخ - عمر بالهادي - محسن ذياب - نفس المصدر .

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

يجب أن لا يؤخذ هذا الكلام على أنه حكم مسبق على العمل الذي بين أيدينا والذي كنا قد نوهنا بجزئه المركزي، لا لشيء الا لانه انتهى من حيث بدأ، بل بالعكس، ولولا ضرورات المنهج والتمحص لجزمنا منذ الان بأن هذه التساؤلات - الاختيارات المأزقية - التي تكررت في مقدمة التقرير وفي خاتمته ليست توطئة ولا خاتمة له بقدر ما هي سمة بنيوية في البرنامج، عيب التقرير الوحيد هو أنه لم يبحث في العلاقة القائمة بين هذه الاختيارات المأزقية وما اكتشفه من خلل وعوائق في عمل (Fonctionnement) البرنامج .

ان عدد هذه الاختيارات المأزقية مرتفع ولقد حاولنا أن نحصرها في أربعة :

أولا : هل أن برنامج التنمية الريفية برنامج تشغيل أم برنامج تحسين ظروف عيش؟

ثانيا: هل هو برنامج تنمية حقيقية أم برنامج لمساعدة (assistance) بعض المعوزين .

ثالثا: هل تضبط أهدافه على مدى بعيد أم هو مجرد برنامج سنوي ظرفي؟

رابعا: هل ترمي سياسته الى هدف اقتصادي، فيتوجه الاهتمام كلية الى من يقدر من المنتفعين به على الاقتراض والتسديد وبالتالي الانتاج. أم هي سياسة تصدق واحسان تعطي ما استطاعت اعطاءه لبعض المعوزين والفقراء غير المنتجين ؟

3 - نموذج مثالي للتنمية

تدور لكل الثنائيات سالفة الذكر حول محور واحد: التنمية فلنبن نموذجا مثاليا للتنمية من العناصر التالية : هدف وأضحية وأدلوجة .

أ/ : هدفها

هو دائما التغيير، كأن نقول مثلا أن التحول المجتمعي الذي عرفته أوربا

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

الغربية من مجتمع اقطاعي الى آخر رأسمالي أكثر تطور ماديا وفكريا هدف التنميـــة أو بالاحرى هو التنميـــة .

ب/ : أضحيتهـــــا

كل تنمية تقتضي أضحية بشرية ، وفي المثال المذكور أعلاه ، تمثلت هذه الاضحية في جموع العمال والفلاحين الذين تم على أكتافهم - في البداية على الاقل - تركيم الرأسمال الضروري لتلك التنميـة .

ج / : أدلـوجتهـــا

ان تسخير الاضحيـة البشرية للانتاج يتطلب أدلوجة تبريرية تجعله مقبولا بلانقاش فانتقال القـن أو الفلاح الصغير من جحيم اقطاعة السيد الى جحيم منشأة العـــرف ما كان له ما يبرره لولا أدلوجة المساواة والحرية والمصلحة العامة التي أينعـت فـي أحضان الطبقة البرجوازية .

لنضع هذا النموذج النظري على محك الاختبار، لا لنقارب به التجربـــــة أو التجارب التنموية التي مرت بها البلاد ، فهذا عمل كبير يتجاوز مجال دراستنـــا ، و لكن لنقارب به تجربة برنامج التنمية الريفية ، أي نصيب سكان الريف من التنميـــة عموما ولنبدأ بالنقطة الاولى فنطرح السؤال التالي : أي يكـمن التغيير في برنامـــج التنمية الريفيـة ؟ الجواب بسيط : في تحقيق " فرحة الحياة " أو " ان النهـــوض بالريف ... يتمثل في الاخذ بأيدي اخوان لنا في الدين واللغة و الوطن ورفعهـــم الى منزلة البشـر" (1)

---

1) الحبيب بورقيبة - من خطاب عنوانه " من منافع التنمية الريفية " نشر الاتحاد القومـي للفلاحين - تونس. 30 جوان 1976 .

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

أما النقطة الثالثة (ونعتذر عن هذا التقديم المعتمد للنقطة الثالثة على الثانية) ، أي الادلوجة ، فلنقل أنها أدلوجة الحداثة بكل تبسيط .
النقطة المتبقية هي الاضحية البشرية اللازمة لاى مشروع تنموى فمن هي يا ترى ؟

لما كان الجواب صعبا ، فلنقلب السؤال ولنبحث أولا عن المستفيد من البرنامج ، هل هي المدينة اجمالا ؟ اذاك تصبح الاضحية كل سكان الريف ، أي كل المنتفعين بالبرنامج مباشرة أو بصورة غير مباشرة هذه اشكالية قديمة لوضعية قديمة تظافرت في تحققها عدة عوامل تاريخية معروفة آلت الى " الغاء القرصنة سنة 1815 والتجارة البحرية " (1) قبل أن يتفاقم التسرب الرأسمالي الغربي الى البلاد التونسية ويؤديان معا الى انسداد الافاق أمام الرساميل التجارية والحرفية المدينية وتحويل وجهتها نحو ريف البلاد لاقتناء ما أمكن من أراضي تفلح بنظام الخماسة .

هذه الاشكالية لم يعد لها ما يبررها اذ أن الفلاح المقصود في برنامج التنمية الريفية ليس له ما يشبهه بالخماس ، فالارض ملكه الخاص وما أنتجه بكد جهده يستهلكه وعائلته أو يبيعه في السوق لا يشاركه فيه أي " ملاك " .

أما وقد انتفت فائدة المدينة من برنامج التنمية الريفية فقد انتفت بالتوازي فرضية اعتبار الفلاحين (فلاحي التنمية الريفية) أضحيته الا اذا حورناها وافترضنا وجود تمايز داخل هؤلاء المنتفعين بالبرنامج ويشجعنا على دفع هذا التحوير تقاطعه مع تلك الاختيارات المأزقية التي لازالت الى الان بلا تفسير .

في الواقع ، لو استعدنا الاختيار المأزقي الاول فسنلاحظ وجود خيارين اثنين لتطبيق البرنامج ، وليست بقية الاختيارات المأزقية الثلاثة الاخرى الا اعادة

I) Kh. Chateur. Système urbaine et développement au Maghreb. CERES I980. page 77.

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

و تكرارا لهذين الاختيارين فالاقرار بأن البرنامج هو برنامج تشغيل ينسجم مع اعتباره برنامج تنمية حقيقية ومع أنه مضبوط على المدى البعيد مثلما أن الاقرار - عكس ذلك - بأنه برنامج لتحسين ظروف العيش يتناغم مع اعتباره انتشال لبعض المعوزين الذين يزيد عددهم أو ينقص حسب السنوات والظروف (العملة المطرودين من ليبيا أو بعض ضحايا الجفاف) . ويتوضح الاختلاف بين الخيارين أكثر فأكثر حين يطرح الاختيار المأزقي الرابع صراحة إما مساندة القادرين على الانتاج للرفع منه وتحقيق فائض يمكن من تحسين ظروف العيش وإما الحفاظ على سياسة الانتشال التي تعود المنتفعين على الاستهلاك دون انتاج .

و اذا كنا نعلم أن الساهرين على تنفيذ البرنامج قد اختاروا الجمع والتوفيق بين الخيارين ، أفلا يجوز لنا الخروج باستنتاج محصلته أن المستفيد من البرنامج هم فلاحو الانتاج القادرين على الاقتراض والتسديد والمغامرة . أما الاضحية فتتكون من فلاحي الاستهلاك المعوزين العاجزين؟ هلا انتهينا الى اثبات صلابة نموذجنا النظري و جدواه الاجرائية ؟ كلا لان ازدهار فلاحي الانتاج لا يتطلب أبدا التضحية بفلاحي الاستهلاك وهذا تؤكده أولا نتائج البحث الميداني الذي قمنا به في كامل ولاية مدنين فعلى مائة وأربعين عائلة ، لم نجد فردا واحدا يقبل - مهما كانت درجة فقره وحاجته - العمل أجيرا بأرض فلاح آخر. ثانيا لان الغرض الانتاجي أو الاستهلاكي لاية اعانة من اعانات برنامج التنمية الريفية ليس شيئا خارجيا يمكننا من التمييز بين من اختارهم البرنامج للانتاج ومن اختارهم لمجرد الاستهلاك فلا قيمة الاعانة ولا شكلها - نقدية أو عينية - ينبآننا عن توظيفها اللاحق انتاجيا كان أم استهلاكيا .

وعلى هذا فان التمايز - التناقض - الذي افترضناه بين منتفعي البرنامج لا وجود له وبالتالي فان الخلل الذي لمسناه في تصور وتنفيذ البرنامج متأت

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

من ذهنية المنتفعين أنفسهم وهكذا نتخلى عن اعتبار الازدواجية بين اختياري الانتاج والاستهلاك، اختيار بيروقراطي بقدر ما هي قسر واقعي يمكن اعتباره عائقا من جملة العوائق التي تحول دون الريف وتطوره .

ومن هنا أيضا يمكن أن نفهم النتيجة الايجابية في الجملة التي توصل اليها التقرير الذي تعرضنا له سابقا والذي يؤكد أنه على الرغم من نقائصه ، فان البرنامج " استطاع تطوير الريف وتحسين مداخيل عدد كبير من العائلات خاصة أولئك الذين استطاعوا تحويل فلاحتهم من صبغتها التقليدية الى صبغتها العصرية"(1) ولنا أن نضيف مسايرة لهذه النتيجة أن من فشل منهم في ذلك ،أي فشل في تغيير ظروف عيشه ، لا أدلوجة الحداثة - ولا أية أدلوجة أخرى - ولا الفلاحين الناجحين قد تسببوا في فشلهم .

هنا يتحطم نموذجنا النظري تماما: عنصر الاضحية (الفلاحين الفاشلين أي فلاحي الاستهلاك) أمامنا لا ريب في ذلك لكن ما قيمة هذا العنصر اذا لم يكن قد أضله عنصر الادلوجة ! بصورة أكثر وضوح : حقق البرنامج هدفه (التنمية) فغير وضعية بعض الفلاحين وكانت أدلوجة الحداثة هي المحرك في ذلك لكن دون أن يقتضي ذلك أضحية وهذا يعني : نجح البرنامج وفشل النموذج .

الخاتمة

اذا سلمنا بنجاح البرنامج - بازدواجية اختياراته - واعتبرنا هذه الازدواجية مجرد عائق أفرزه واقع الفلاحين ، فما الذي يجعل الدولة تزيد في تجذير هذا العائق، فتجتهد في بعث برامج تنموية أخرى موازية ذات صبغة استهلاكية كبرنامج العائلة المنتجة والحدائق العائلية وتشغيل الشباب . . .

---

1) محمد الفخفاخ - عمر بالهادي - محسن زياب - مصدر مذكور. ص 58 - 59 .

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

الجزء الثاني

الإعقلانية التنموية

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

I - العقلانية / الاسرة - اللاعقلانية / العائلة

لا خلاف في أن أكثر المجتمعات حداثة هي أكثرها عقلنة ومدى عقلنتها لا تقاس فقط بمدى تعقد وتمايز وتخصص موسساته المجتمعية بل و أيضا بمدى تركز هذه العقلنة في أعلى سلطة تخطط وتنظم حياة المجتمع ألا وهي البيروقراطية، العمود الفقري للدولة العصرية.

و كلما تغلغلت " لغة " العقلنة التي ترسلها البيروقراطية داخل الموسسات المجتمعية الجديدة، اندثرت " اللغات " الضيقة الاخرى وينخرط الجميع - جميع أفراد الشعب أو المجتمع أو الامة - في " المشروع " المجتمعي الذي تضبطه و تخطط له البيروقراطية متخلين بذلك عن مشاريعهم الضيقة (عرقية، دينية - قبلية). هذا لا يعني أن مجموعات الانتماء الضيقة تمحي تماما و انما يصبح وجودها ممكن في الحدود الشخصية التي لا تعيق الانتشار العقلاني.

ومن كل هذه المجموعات الاولية تبدو العائلة أكثرها تأقلما مع هذه الوضعية الجديدة والحديث عن تأقلمها يعني أولا انها عرفت تغيرا في عناصرها و في علاقاتهم ببعضهم وثانيا ان قيمها و معاييرها وتصوراتها قد تغيرت تبعا للتغير الحاصل على وظيفتها داخل المشروع المجتمعي الجديد. ثالثا أصبحت تسمية العائلة أيضا اشكالا.

لنتفق منذ البداية على بعض المصطلحات: في اللغة الفرنسية تطلق عبارة Famille على المجموعة التي تعيش تحت سقف واحد ولكن شيوع استعمالها يحجب عنا الفروق بين الاشكال المختلفة من المجموعات التي تعيش تحت سقف واحد. لذا نلاحظ أن الخطاب العلمي كثيرا ما يلجأ الى مزيد من التحديد

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

فيقال العائلة النواتيـة (Famille nucléaire) أو العائلـــــــــــة الزوجية (Famille Conjugale) حين يقصد بالحديث المجموعة المتكونة مـــن زوج وزوجة وأبناءه. ونقترح أن نعبر عن هذا المدلول بعبارة أسرة في لغتنـــا العربية . ويقال أيضا في اللغة الفرنسية - المتخصصة طبعا - Famille étendue للتعبير عن مدلول المجموعة التي تضم جملة من الابناء المتزوجين وابنائهـــم و الاخوة غير المتزوجين رفقة الاب والام طبعا. ونقترح أن نسمي هذه المجموعـــة لا عائلة ممتدة كترجمة مباشرة لما يقابلها في اللغة الفرنسية وانما فقط لفظة عائلـــة كمقابل اصطلاحي للفظة اسرة التي اخترناها للتعبير عن مدلول المجموعة الاولى .

تلتقي اللفظتان في معنى المجموعة التي ينتمي اليها شخص ما فلفظـــة أسرة تعني " عشرة الرجل وأهل بيته " مثلما أن لفظة العائلة تفيد " عيـــال الرجل الذين يتكفل بهم " لكن الفرق الذي على أساسه أقمنا التقابل بينهما هـــو أن جذع لفظة عائلة يحتوي على معاني العَوْل أي " ارتفاع الحساب " (يمكـــن أن نفهمه كارتفاع لعدد الابناء) والعول أي العمدة (من يعتمد عليه) وعـــول أي " استعان بفلان " (1) وكل هذه المعاني واضحة فيما أطلقنا عليه لفظـــة العائلة نظرا لان كثرة الابناء وتعويل الاب عليهم هي خصائص متوفرة في المجتمـــع التقليـــدي .

ان قيمة الرجل في المجتمعات التقليدية تقاس بعدد أبنائه أما اليـــوم فلا قيمة لابن اذا لم يكن له أب . وهذا ما يدعم معنى الاسر في لفظة الاســرة اذ تصبح مسؤولية الابن - في نطاق الاسرة - الزاما لا أخلاقيا فحسب بل وأيضا قانونيا يتحمل بمقتضاه الاب عبء ابنه الذي أنجبه ومصدر هذه الالزاميـــــة الحقلة المنتشرة في المجتمع الحديث و المتميزة بدقتها وصرامتها في توزيـــــع

---

1) جمال الدين ابن منظور - لسان العرب - دار صادر - بيروت بدون تاريخ .

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

الادوار بين مختلف أفراد المجتمع بحيث يستحيل على أي كان الافلات من اسارها .

ان هذا التحديد للمصطلحات ضروري لانه سيمكننا من توضيح الصيـــرورة العقلانية التي اقتضت تعويض العائلة كممثل للمجتمع التقليدي بالاسرة كتجسيـــــد للمجتمع العصـــري .

ان ابراز التأثيرات التي أحدثتها الرأسمالية الصناعية على بنية العائلـة يمر بعدة مراحل وقد اخترنا ثلاثة مـــؤشرات لاظهار هذه التأثيرات

أ و لا : وضعية المرأة الجديدة وعلاقاتها بمحيطها الطبيعي والاجتماعي الجديـد .

ثـانيـــا : علاقتها بزوجهـــا .

ثـالثـــا : علاقتها بأبنائهـــا .

تعتبر المرأة في المجلة المدنية النبوليونية " قاصرا " تماما مثل الاطفـال و المجانين، تعيش في كفالة والدها ردحا من عمرها وفي كفالة عائلة زوجهـــــا الردح الاخر. وكان لزاما انتظار توسع وانتشار النشاط الصناعي في العالم الغربـي لتتوالى جملة من القوانين (كانت فرنسا في صدارة من أصدرها) التي " أصدرتهـا خاصة فرنسا امتدادا على السنوات 1938 و 1942 و 1965 تعترف تباعا باستقلاليتها الشخصية وتلغي واجب الطاعة وتمكنها من حقوقها السياسية " (1)

و لسائل أن يسأل ما دام العمل هو المحدد في تغيير وضعية المـــــرأة فلماذا تعطل هذا التغيير عدة قرون والحال أنها مارست - ولا زالت - عمـــــلا فلاحيا لا يقل قيمة ولا ارهاقا عن العمل الصناعي ؟ لاشك أن الاسباب الكامنـــة

I) La Sociologie - Les Dictionnaires Marabout Université- Savoir Moderne Paris I972. Tome I , Chapitre: La Sociologie de la Famille. page I99.

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

وراء ذلك عديدة وعامة . لكن ما يهمنا الان هو أن العمل الصناعي والعمل الفلاحي يختلفان فالاول بحكم العقلنة التي توجهها آليات الربح والنجاعة ، اقتضت أول ما اقتضت الفصل بين مجالي العمل والمسكن وهذا ادى الى تفكيك العائلة بتجزئتها الى وحدات فردية (أبناء غير متزوجين) أو وحدات زوجية (زوج و زوجته صحبة أبناءهما) أو وحدات مهاجرة من مكان الى مكان (تبعا لطلب سوق الشغل و مخاييره الانتخابية) .

ان هذه الحركية الديمغرافية وان تكن أرست بواسطة تلك الوحدات النواة الاولى لبناء الاسرة فانها لم تغير كثيرا من علاقة المرأة بزوجها لان سلطة العائلة القديمة قد تركزت بيدي الزوج وحتى دخولها ميدان العمل الصناعي الى جانبه في المصنع لم يغير كثيرا من تلك الوضعية لان ضعف الدخل المتمثل في أجر الزوج أو أجره مع أجر زوجته لم يكن كافيا لتلبية جملة من الحاجيات كالاكل والمسكن ، كانت تلبى في اطار العائلة الريفية فأضحت عبئا جديدا وساهمت بقسطها في تكون ما سمي " بالاحياء الحمراء " (في المجتمعات الصناعية) أو " الاحياء القصديرية " (في المجتمعات "المتخلفة") أين أينعت الدعارة والجريمة وكل أشكال الانحراف التي شكلت الموضوع الذي أطلق عليه دور كايم مفهوم "اللامعيارية ".

في هذا الظرف ، لم تتحرر المرأة بل ان عبوديتها أصبحت مضاعفة فهي عبودية في المصنع تشترك فيها مع الزوج وهي أيضا عبودية في البيت لانها تخضع الى تسلط زوجي مرده فعاليات نفسية يحول من خلالها الزوج طاقاته العدوانية اللاشعورية تجاه عرفه نحو زوجته وأبنائه .

لكن ورغم ذلك ، فان هذا التحول أرسى الاسس التي عليها أصبحت المرأة - والرجل أيضا - تنتمي - مهما تأخر وعيها بذلك - الى مجموعة أوسع من العائلة

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

و المجموعة الريفية. ان جماعة انتمائها الجديدة ، تتجاوز حدود الجنس والعرق والجهة و الدين ، انها طبقة العمال .

وعندما بلغت العقلنة الرأسمالية أوجها مع تيلرة العمل الصناعي و أتمتته (automation) ارتفع الانتاج بشكل موسع وساهم في ادماج الطبقة العمالية في الاستهلاك بواسطة سياسة أجور مرتفعة حدث تغير في وضعية هذه الطبقة التي اعتبرت " طبقة عمالية جديدة " (1) وما يهمنا أن هذا اثر في علاقة الزوج بزوجته داخل الاسرة ، ذلك أن من كان - أو كانت - من "أصحاب الياقات البيض" (Les Cols Blancs) أو " المآزر البيض" (Les Blouses Blanches) أو المهارة المهنية لايستطيع أن لا يطبع حياته الشخصية بعقلنة حياته المهنية. وبرز مصطلح الزوج (Le Couple) ليعبر عن أن علاقة الزوج بزوجته ليست مجرد تلبية لرغبة جنسية لدى الرجل وانما فوق الاعتبارات الجنسية يدخل مفهوم التكافوء لا الجنسي فحسب بل وأيضا الحمرى والمهني والفكري .

هذا التكافوء وهذا التفاهم ضروريان لتأسيس مجموعة صغيرة لها ميزانيتها و مداخيلها ومصاريفها وأهدافها التي تضبط في كل شهر وفي كل سنة آخذة بعين الاعتبار الظروف و المتطلبات الداخلية و الخارجية لتحقيق تلك الاهداف و سنرى أيضا أن تصورات الزوج (Couple) حول هذه الاهداف ستتأثر الى حد بعيد بالقيم الاجتماعية الجديدة ذلك أن الزواج وان كان قد حافظ على الهدف الاساسي الاصلي أي انجاب الاطفال لاعادة انتاج المجتمع فان هذا الهدف قد طرأت عليه تغييرات جديدة نراها في الفقرات الموالية خلال استعراضنا لعلاقة الزوجين بالابناء.

I) Serge. Mallet. La nouvelle classe ouvrière. Le Seuil, Paris 1963.

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

سبق أن قلنا قديما تقاس قيمة الرجل بعدد أبنائه ، أما اليوم فلا قيمة لابن بدون أب. معنى هذا أن الابن أصبح العنصر المركزي في أسرته معوضا بذلك " رب الاسرة الروماني " (pater Familias) الا أن هذا القول يوشك أن يناقض ما سبق أن لاحظناه عن قيمة الابن في العائلة أيضا . لكن في الحقيقة قيمة هذا الاخير متصلة بوظيفته الانتاجية فتكفي عودة قصيرة الى القرن التاسع عشر وحتى بداية القرن العشرين لنتبين كيف انه كان يشغل منذ الصغر في أعمال فلاحية وصناعية شاقة أما في المجتمع الحديث فان قيمته الانتاجية لا تتحقق الا متأخرا جدا - وكثيرا ما لا ينتفع بها الابوين - بعد أن يكون قد انتفع بجملة من الخدمات التي لا تقدر بشيء ، فهو محاط منذ طفولته بعناية تربوية وصحية وغذائية ودراسية ارتفعت تكاليفها الى حد جعل التنظيم العائلي (تحديد النسل) ضرورة عقلانية أخرى تسم حياة الاسرة . فالطفل كقيمة أصبحت مسألة كيفية أكثر منها كمية وعدد الاطفال - العدد المثالي ثلاثة - أو المدة الزمنية الفاصلة بينهم أمور يتحاور فيها الزوجين بكل تعقل وتفاهم .

هنا يطرح سؤال : أنى للزوج و الزوجة أن ينجزا هذه المهمة التربوية و الحال أن كل منهما منتم الى جماعات انتماء خاصة به (جماعة مهنية - نادى - مؤسسة دينية ...)؟ ويرادف هذا السؤال باخر : لما كان الامر كذلك أفلا يجوز أن نقول أن الزوج (ذكر أم أنثى) هو في آخر الامر القيمة التي أسستها الاسرة ، أي المجتمع العصري ؟

لنلاحظ أن التساؤل الاول معقول ، فالزوجين في حقيقة الامر قد أفلتت منهما تلك المسؤولية لان تنشئة الاطفال كقيمة قد تأثرت هي الاخرى بالعقلنة السارية في المجتمع " فالشخصية الردار " (1) الضرورية لتأقلم أي طفل مع محيطه

I) David. Riesman - La Foule Solitaire. Artaud, Paris 1964.

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

الاجتماعي المعقد و المتمايز تتطلب تنشئة في مستوى تلك المهمة ولا يمكن أن تقوم بها الا موسسات جديدة . فالاسرة لم تعد أكثر من جماعة من جماعات الانتماء العديدة التي ينتمي اليها الطفل والتي وان كانت تتمايز عن بعضها بمدى تمايز وظائفها فانها تلتقي كلها في قيمة واحدة : انتاج الفرد المناسب للدور المناسب أما اذا ألححنا في السوءال وقلنا من المنسق بين كل الجماعات (أو الموسسات) فيكون الجواب هو بيت القصيد : الدولة .

أما السوءال الثاني فلا يسعنا الا أن نوءكد ما ورد به انه بالفعل الزوج كما الزوجة - ولكن - كما الطفل أيضا ، كلهم يلعبون ادوارا مطلوبة بل انهم ليسوا الا قيمة واحدة : الفرد

خاتمة :

أولا : الاسرة حينئذ ليست العائلة ففي هذه الاخيرة قيمة العضو - أقول عضو حتى لا أقول فرد فهو غير موجود - لا تستمد من ذاته بقدر ما تستمد من قيمته تابعا للمجموعة . الاسرة جمع من الافراد المذررين (atomisés)

ثانيا : و تأسيسا على ما سبق ، لم تعد العائلة أو العشيرة أو أية مجموعة أولية أخرى ولية أمر العضو - الذي أصبح فردا - وانما الدولة .

ثالثا : لما كانت العقلنة التي تسير موسسات الدولة تسير في اتجاه تذرير المجتمع الى أفراد فان هذه الاخيرة - الدولة - تتناقض بالضرورة والمجموعات الاولية التي تسعى الى تجميع (عكس تذرير) الافراد الذين كانوا أعضاء قبل أن يتذرروا .

رابعا : حري بنا أن نذكر بأن الصور التي رسمناها لكل من الاسرة والعائلة من ناحية وللمجتمع العصبي و المجتمع التقليدي من ناحية أخرى هي " نماذج مثالية " المبالغة فيها مقصودة .

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

مقدمة

في دراسة حديثة حول التنمية الريفية نجد في الفرضية الاولى "اذا ضمن مشروع التنمية الريفية مصالح صغار الفلاحين وأصحاب الحرف الصغرى ، وشرائح عريضة من الريفيين المعدمين بصفة عامة ، فقبلوا المشروع ورضوا عنه و استأنسوا به وتفاعلوا معه ، فانتجوا واستهلكوا من المواد الغذائية وغيرها أكثر مما كانوا يستهلكون من قبل وحققوا مصالحهم وتحصلوا على حاجاتهم الاجتماعية و حاجاتهم الاقتصادية وادخروا فهذا دليل على جدوى المشروع . أما اذا تبين عكس ذلك فانه يصح أن يقال ان مشروع التنمية الريفية مشروع مزيف وليس بحقيقي حتى و ان ركز أجهزة ادارية كبيرة لتقديم خدمات رسمية وحتى في حالة ظهور النتائج ايجابية على الورق "(1).

ان اثبات جدوى المشروع (الامكانية الاولى الواردة في الفرضية السابقة) أو زيفه (الامكانية الثانية فيها) هدف من أهداف دراستنا لكنه يبقى هدف ثانوي . أما الهدف الاساسي الذي نرمي اليه في هذا الجزء الثاني من العمل فهو الاتي : بقطع النظر عن نجاحه أو فشله ، الى أي مدى كان البرنامج تجليا من تجليات العقلنة الموجهة لممارسة كل دولة عصرية ذلك أن ما يطرحه الدغري في دراسته ماهو في آخر الامر الا مسألة عطية مقياسها التجربة العينية أما ما نطرحه هنا فمسألة منهجية مقياسها مدى تناسق نتائجها مع متطلبات العقلنة .

ما انتهينا اليه بعد البحث الميداني انه بقدر ما تكون نتائج البرنامج ذات

---

1) سالم الدغرى ـ تجربة تونس في التنمية الريفية ـ أطروحة شهادة التعمق في البحث بكلية الاداب والعلوم الانسانية 1984. ص28.

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

جدوى و محققة أهدافها من الناحية العملية بقدر ما يكون البرنامج فاشلا و لا عقلانيا من الناحية المنهجية . ولئن كنا في الفصل السابق قد اعتمدنا لضبط النمـــوذج المثالي للاسرة في المجتمع العصري على ابراز التغير الحاصل في علاقات أفـــراد (أعضاء) العائلة بعضا ببعض تماشيا مع التمايز و التخصص المميزين للمجتمع الحديـــث، فاننا سنسعى الان - لتأكيد ما طرحناه - الى اظهار التماثل و اللا تخصص - وبالتالـي " اللاعقلانية "- المميزين لجميع الانشطة المجتمعية الممارسة حاليا من خلال عنصـري الوظائف الاستهلاكية للعائلة وهو محتوى الفصل الموالي ووظائفها الانتاجية وهو محتـوى الفصل الذي يليه . غير أن هذا الترتيب قد يطرح اشكالا . ذلك أن الحديث عـــن الوظائف الاستهلاكية للعائلة يفترض مسبقا علما بوظائفها الانتاجية . ان هذا الاختيـار يبرر بالملاحظتين التاليتين :

أ و لا :لما كان برنامج التنمية الريفية هو موضوع بحثنا الاساسي فقد فضلنا - بحكـم وجوده في عنصر الانتاج و الموارد - تبويبه في المكان المركزي من هذا الجزء الثاني مـــن العمل .

ثـانيـا : من المسلم به أن الموارد هي التي تكيف الى حد بعيد الاستهلاك لكن هنـا في مدنين - كما في غيرها من المدن - لعبت الوظائف الاستهلاكية للعائلة (رغـــم أنها موسسة تقليدية) دورا هاما في توجيه الموارد وخاصة موارد التنمية الريفية وجهـة استهلاكيـــة .

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

II الوظائف الاستهلاكية للعائلة

لو طرحنا سؤالا الى أي عربي يقولنا ماهي اهتماماتك ، لاجاب على الفورانها الشغل والمسكن و الزواج وبدرجة أقل السيارة . ان أغلب هذه الاهتمامات أو المطالب ليست جديدة ولكن الجدة تكمن في الشكل الذي أصبحت تلبى به فلا عمل الامس ، أو الزواج التقليدي أو حتى سكنى الحوش القديم يتماثل بالشغل المطلوب حاليا أو بالزواج العصرى المشط في بذخه أو حتى الفيلا الحديثة .

ان الشكل الجديد الذي تشكلت فيه المطالب لم ينشأ من عدم و انما من برامج و خطط وخطب المسؤولين الذين حلوا محل النخب المستعمرة التي كانت تدير شؤون الاقطار العربية ولئن كان هذا السلوك في وجه من وجوهه مظهرا من مظاهر " اللاعقلانية " في معنى انه تبذير لموارد مالية هامة في مواطن ترف وبذخ زائلة فمن المشروع أن نتساءل والحال كذلك عن الدافع الذي دفع تلك الحكومات والانظمة الى ذلك الشكل من التوجه الاستهلاكي أولا والقنوات التي مر منها ذلك الخطاب ثانيا .

ان أغلب الانظمة العربية التي احتلت مواقع السلطة في الدول الفتية قد ربطت الاستعمار " بالتخلف " الذي تسبب فيه أو الذي انجر عنه أما تحديد هوية هذا " التخلف " فقد كانت تتم دائما من الاطار المرجعي للتطور والتقدم وغير ذلك من المفاهيم التي تعني بالضرورة الشيء العكسي "للتخلف" وهذا ما تعبر عنه كتابات العديد من المنظرين (1) المعاصرين الذين يرون أن تحديد الهوية تنطلق دائما من الاخر وتقدم الاخر لا ينظر اليه على انه صيرورة تاريخية أدت الى ما يعتبر اليوم نقيض التخلف وانما ينظر اليه نظرة ستاتيكية ، نظرة تختزله في حالته الانية المتميزة بالعقلنة المنتشرة في كامل المجالات المجتمعية .

I) Abdallah Laroui. L'Idéologie arabe contemporaire, Maspéro, 1977.

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

هكذا فهمت العقلنة على أنها الحالة التي يجب أن تتلو " التخلف " اذا وقع التخلص نهائيا من الاستعمار. فهل كانت النخب تجهل تعقد الواقع وخصوصياته وصعوبة نقل الاطار المرجعي كما هو ؟ أبدا و انما كان لا بد لها من "أدلوجة ما " لتشريع سلطتها وقيادتها لعملية التنمية ولهذا أيضا لم ينظر الى الدولة على انها معدل للصراعات والخلافات بين مختلف الطبقات والفئات الاجتماعية - فهذا بديهي و لا يحتاج الى نقاش - وانما وخاصة " كولي أمر " (1) (Etat Tulélaire) المجتمع ككل ولهذا أيضا اعتبر الفلاحون التنمية "عطية " تعطى أو " هبة " توهب وفي هذا المعنى أيضا تصورها فلاحو البلاد الذين يتهافتون على اعانات التنمية الريفية والعائلة المنتجة ... لا كضرورات انتاجية و انما كاعانات تعين على مجابهة مصاعب الحياة الجديدة كالسكن وتعليم الابناء التي لم تكن موجودة من قبل.

و ما زاد في تكريس هذا الواقع ان غايات واهداف التنمية (العقلنة) هي نفسها في أغلب الاحيان القنوات التي يمر منها هذا النمط الاستهلاكي فتعليم الابناء واقتناء راديو أو/ و تلفزة هي رموز لابد منها لتحمير " المسكن اللائق " وتحقيق الاسرة الجديدة لكنها في الان نفسه القنوات التي تمر منها هذه الذهنية الجديدة ، ذهنية الاستهلاك.

لكن المفارقة مثلما سنرى لاحقا - تتمثل في أنه بقدر ما يقبل سكان الريف على هذه الرموز المدينية الجديدة التي تبنها الدولة بقدر ما يبتعدون عن هذه الاخيرة. ان طرفي المقارنة هما : جاذبية الدولة من ناحية و انزواء سكان الريف من ناحية أخرى.

I) Michel Camau . - Pouvoir et institutions Maghrebs. Cères Productions I978. page I97.

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

جدول عدد 1 - ماهي الفوائد التي جنتها العائلة من الهجرة

الفوائد	العدد	النسبة
1- بناء مسكن أو مساكن للعائلة	58	32
2- زواج المعني بالامر أو أحد أبنائه	33	18
3- تعليم الابناء ومصاريف يومية	26	14
4- تكوين رأس المال للفلاحة	23	13
5- تكوين مشروع تجاري على عين المكان أو في مكان اخر من البلاد	12	6,5
6- تأثيث وتجهيز مسكن	12	6,5
7- شراء ملك (أرض)	9	5
8- شراء سيارة	9	5
الجملة	182	100 ./.

حين تتجه اهتمامات السكان في ولاية مدنين بنسبة الثلث الى بناء أو تحسين المسكن ويصل المعدل العائلي من حيث عدد المساكن الى 1,6 ندرك أن العديد من السكان الذين لم يبلغوا العشرين من عمرهم لهم مساكنهم الخاصة (في انتظار زواجهم) وليسوا مجبرين على " ترقب سن الثلاثين أو الخامسة والثلاثين مثلما يفعل العديد من سكان مجتمعات الوفرة الصناعية للحصول عليه "(1). من تعدد هذه " المشاريع " السكنية الفردية تكونت تجمعات سكنية ، نشطت قطاع الخدمات وانبثق شيء جديد سمي : مدينة وأطلق على سكانه : حضر

I) J.E. Havel - Habitat et Logement. Que- Sais-je . P.U.F. I974. page 7.

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

و الواقع أن حرص سكان الريف على التماهي في النمط الحياتي الجديد يتبنين في بنية ظاهرة سمتها الاساسية الاندماج ، لكن مزيد البحث والتقصي يوصلنا الى بنية خفية سمتها الاساسية اللااندماج .

1 = الانـــدمـــاج

جـدول عـدد 2 - مساكـن العائلـــة

النـــوع	العـــدد	النسبـــة
حـــوش	103	58
فيـــلا	51	28,5
حـوش فيـــلا	11	6
كمـــر	9	5
ملجـــأ	3	2
خـــص	1	0,5
الجملـــة	178	100/.

ان نتائج هذا الجدول الذي تحصلنا عليه بواسطة العمل الميداني تتفـق الى حد كبير مع نتائج الاحصاء الرسمي الذي تم سنة 1984.ان نظرة ماكروسكوبيـة

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

للتحضر السائد في كامل ولاية مدنين التي تضم المعتمديات التالية : مدنين وسيدي مخلوف و أجيم وحومة السوق وميدون وجرجيس وبن قردان وبني خداش والبالغ عدد سكانها 295.889 نسمة منهم 116.786 ريفيون و 179.103 حضر، يقيمون جميعا في 62.894 مسكنا (1). ان هذه النظرة تفيد بأن " عدد المساكن قد زاد بنسبة 3ر2 في المائة وعدد الاسر بـ 3 في المائة من 1975 الى 1984 ، وهو ما يجعلنا نؤكد أن نمو عدد المساكن قد واكب - على الاقل - تطور عدد الاسر " (2).

صحيح أن هذه الولاية مثل غيرها من ولايات داخل البلاد ، تعتبر من أكبر مراكز الدفع (PUSH) - رغم الجذب (PULL) (3) الناشيء عن الاستقطاب السياحي بكل من جرجيس وجربة - نحو المدن الساحلية الكبرى لكن هذا الاكتفاء السكني لا يمكن أن يكون ناتجا عن النزوح ، لان النازح لا يترك وراءه مسكنا شاغرا ثم انه يقطع صلاته بمسقط رأسه بمجرد استقراره بالمدينة الجديدة ، وانما يفسر بالهجرة الخارجية لانها تنمي الثروة ولا تقطع صلة المهاجر بموطنه فتراه يوظف ما جمعه في بناء مسكن - يظل شاغرا مدة طويلة لعدم انجازه أو لطول فترة الهجرة - أو أكثر ان أمكن .

ومهما تكن الاسباب ، فان الذي يهمنا الان هو انعكاسات هذا الاكتفاء السكني على الحياة المدنية بولاية مدنين . لقد اعتبر هذا التحول الحاصل تطورا كبيرا اذ أصبحت نسبة الحضر سنة 1984 تقدر بـ 5ر60 ٪ . لكننا حين نتمعن في نتائج النشرية سالفة الذكر نلاحظ أن 5ر51 ٪ . منهم موجودون في جربة

---

1) التعداد العام للسكان والسكن 30 مارس 1984 نشرية جهوية خاصة بولاية مدنين ص 9.

2) ديوان النهوض بالتكوين والتشغيل والعملة التونسيين بالخارج - المندوبية الجهوية بمدنين - تقرير حول النشاط 1984 - ص 4 .

3) ابراهيم سعد الدين - حاضر المدن العربية ومستقبلها - الفكر العربي المعاصر - عدد 10 ماي 1979 - ص 107 .

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

وحدها أما الـ 48ر5 ٪ . المتبقية فموزعة على المعتمديات الثماني الاخرى (1).

واذا اعتمدنا على مقاييس النشرية ذاتها في تعريف الحضر - الانتماء الى المنطقة البلدية - فاننا نستطيع أن نجزم بان أغلب سكان معتمديات ولاية مدنين - باستثناء جربة وجرجيس - ريفيون وهذا يناقض النسبة المبهمة والمغلطة لسكان الحضر التي توصلت اليها النشرية التي قدرت بـ60ر5 ٪ . مثلما سبق أن قلنا .

نقول انها مغلطة لانها عممت وضعية معتمدية جربة - وبدرجة أقل معتمدية جرجيس - على وضعية كل معتمديات الولاية جاهلة أن التحضر التابع ذي الرأس الواحد (MACRACEPHALIQUE) ان "ميز" الرأس (جربة في مثالنا) فانه " يهمش " الاطراف (بقية المعتمديات باستثناء جرجيس) وهي مغلطة أيضا لان مقياس التحضر المعتمد هنا مقياس فضفاض والانتماء الى المنطقة البلدية لم ينتج عن / ولم ينتج عنه بالضرورة تغيير في نمط الحياة (سنتأكد من ذلك بعد دراسة ميكر وسكوبية) .

ان فشل هذا التصنيف الاصطناعي وعجزه عن ابراز أي مظهر من مظاهر التراتب أو التفرقة الاجتماعية يدفعنا الى اعتماد مقاييس أخرى ذات طابع كمي تنبوءنا بمواطن التحول الاجتماعي داخل هذا النسق الحضري .

أ - التمايزات الكمية

/ ب/ الوضعية السوسيو مهنية

سنرى حين نصل الى عنصر الوظائف الانتاجية للعائلة ان الهجرة من العمومية

---

1) التعداد العام للسكان والسكن - ص 33 -

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

بحيث انها تدمج حتى أصحاب الوظائف القارة الذين وان كانت تنقلاتهم محصورة في أيام العطل والرخص فانهم ساهموا في الهجرة من موقعهم بفعل استمرارية العائلة . ان أي مهاجر حضري لا يمتاز على مهاجر ريفي لا بشهادة علمية ولا بوسائل انتاج (غير ضرورية) لذلك فان فرص الهجرة والاثراء متساوية بين هذا وذاك .

ولقد ولدت هذه الشمولية تماثلا في المسالك الاستهلاكية التي ستمتص أموال الهجرة تماثلا لم يشذ عنه لا ساكن البلدية ولا ساكن الريف. أكثر من ذلك تبدو نسبة الاموال الموظفة لبناء أو تحسين مسكن في المعتمدية التي ليس بها بلديات (سيدي مخلوف 38 ./.) أرفع أو على الاقل متساوية لمثيلتيها في المعتمديتين الاخرتين اللتين بهما بلديات (ميدون 25 ./. وبنقردان 36 ./.).

ان هذا التهافت على بناء المساكن وبأكثر ما يمكن منها ، يمكن أن يفرز شكلا من أشكال التمايز من نوع الذي يمكن أن يدعمه عدد المساكن عند كل عائلة أو صفة السكن كأن تكون ملكية أو كراء .

/ب/ الوضعية العقارية

جدول صفة السكن (1)

الصفة	1975	1984
ملاك	88,4	88,7
مكتري	6	6,7
صفة مجانية	5,6	4,6
	./.100	./.100

1) التعداد العام للسكان ص 56 . لا نرقم الا الجداول التي استخرجناها من عملنا الميداني الاساسي والذي أنجزناه سنة 1988 بولاية مدنين .

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

يبرز الجدول بوضوح أن أغلب سكان الولاية يملكون مساكنهم وهذا تدعمه ملكية الارض التي عليها أقيم أو أقيمت مساكن العائلة أما الاقلية الاولى و نسبتها 6 في المائة فهي متكونة من وافدين من مدن أخرى اقتضت ظروف عملهم في الوظيفة (شرطة - حرس - تعليم ...) وضعية الكراء. وأخيرا يمكن تفسير وضعية الاقلية الثانية باستمرار العائلة وشمولها لافراد من ذوي القربى وهكذا ترانا نعود من جديد الى وضعية التماثل وحتى وجود بعض العائلات التي تملك أكثر من مسكن لا يمكن أن يبرر ادعاء تمايز اجتماعي وبالتالي وضعية تهيء لشكل من أشكال التحول الاجتماعي بل على العكس من ذلك ، لان هذا السلوك بحكم انه يندرج في اطار هذه العائلة التي تسهر على تسيير حياة الابناء في طفولتهم و في كبرهم لا يمكن أن يكون الا استمرارا لنفس الذهنية التقليدية .

/e/ خاتمة

بينت المقاييس الكمية للسكن في ولاية مدنين غياب أي أس من أسس التمايز الاجتماعي بين سكان الريف و الحضر من ناحية وبين سكان الريف انفسهم أو الحضر انفسهم من ناحية أخرى. ولمتدخل أن يتدخل : صحيح أن الفلاحة المعاشية (مثلما سنرى لاحقا) لا زالت تساهم في مدخول سكان الريف كما الحضر و تربط مصالح هؤلاء باولئك . وصحيح أيضا أن المناطق الحضرية تكاد تكون خالية من أية نواة صناعية وصحيح ثالثا ان فئة الموظفين المدينين للدولة بوظائفهم لم يستطيعوا التملص من قيود العائلة (سنتثبت من ذلك لاحقا أيضا) و لكن ألم تقدر أدلوجة هذه الدولة المجسدة في قيم التعليم من التأثير حتى في هذه الاقلية ؟ ان التنوع الملحوظ في المساكن الحجرية الجديدة حوش ، حوش - فيلا ، فيلا يعتبر موشرا ايجابيا في هذا الاتجاه ولنعتمد الان على المقاييس المعمارية للتثبت من ذلك .

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

ب- التمايـزات المعماريـــة

يقدم لنا الجدول عـدد (مساكن العائلة) نتائج احصائية قريبة من نتائج كنا تحصلنا عليها في دراسة انجزت سنة 1984 من حيث الاشكال السكنيـــة و الاذواق المعمارية التي تسيرها منذ بداية الستينات الى منتصف الثمانينـــات. هذا سيمكننا ولا شك من تعميم بعض النتائج التي قدمتها لنا الدراسة الميدانيـة حول بنقردان على كافة ولاية مدنين في مرحلة أولى و من التركيز على استثنـاء وهـو معتمدية سيدي مخلوف التي ،حين نفصل نتائجها الاحصائية عن نتائج كامل الولايـة نتحصل على نتائج خاصة بها ومغايرة . غير أن هذا الاستثناء سوف لن يكـون الا تأكيـدا للقاعدة وهذا ما سنراه بعد التحليل الذي سيمر بمحطتين وهمـا مدى تطابق التحولات السكنية التي عرفتها بنقردان مع تلك التي عرفتها كامل ولايـة مدنين - بما فيها بنقردان- ثم مدى شذوذ التحولات السكنية في سيدي مخلـوف و مغايرتها لبقية المعتمديات الاخرى .

/e/ النمـــوذج العـــام

بعـض التعـريفـــات

الحـــوش : هو مجموعة من الغرف التي تشكل فضاء مستطيلا أو مربعا يتوسطهـا فناء وهذا هو الشكل الناجز من الحوش وحتى ان كان هناك غرفة أو غرفتيـــن متلاصقتين ، فاننا نصنفهما في نفس النمط لانهما في آخر الامر تكونان حوشـا فـي طور الانجـاز .

الفيـــلا : تختلف الفيلا في تخطيطها عن الحوش في شيئين أساسيين :

أ و لا : الفيلا في شكلها الخارجي تشبه الحوش لكنها تتضمن فراغا يسمى فيـراندا فيحيلها الى " خبزة الا ربح " مثلما يقولون في بنقردان .

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

ثـانيـــا : الفيـــلا لا تحتوي على فناء عار .

الحـــوش فيـــلا : هو حوش ناجز أو غير ناجز أضيفت اليه فيراندا و/ أو صالـــــة أو فيلا كاملة بحيث أصبح لا هو بالحوش ولا هو بالفيلا. قد يبدو هذا الصنـــــف اصطناعيا وغير ذى فائدة ولكننا نرى غير ذلك .

بعـــــض المـــلاحظـــات والا فـتراضـــات

في الدراسة الاولى (1) لاحظنا تواجد الانماط السكنية الرئيسية الثلاثـــــة (حوش - فيلا - حوش - فيـــلا) وخاصة النمطين الاولين وعلى الرغم من أن النمـط الاول قد طغى بشكل كبير خلال الفترة الفاصلة بين 1960 - 1975 والثاني خـــلال الفترة الفاصلة بين 1975 - 1984 فاننا لم نعدم بعض الفيلات في الفترة الاولـــى و الاحواش في الفترة الثانية . ان هذا التواجد الذي يكاد يكون حسابيـــــــا (37,5 ٪ . للحوش مقابل 42,5 ٪ . للفيلا) سوف يتكرر في الدراسة الثانيـــــة - ولو بدرجة أقل - (58 ٪ . للحوش و 28,5 ٪ . للفيلا) وهذا التقارب في النسب هو الذي سيمكننا أيضا من تعميم هذا الافتراض على كامل ولاية مدنين . هل تسيـــر حركة السكن في اتجاه تقاطع تفريقي (Ségrégationiste) بين أنصار الحـــوش رمز الاصالة والحفاظ على التقاليد والعادات العربية من ناحية وبين اتباع الفيـــلا عنوان الحداثة والتفتح على قيم وعادات المدينة الحديثة من ناحية أخرى ؟ أم أن هذا التوازن الثابت سائر في طريق الانحلال لفائدة أحد الجانبين وبالتالي نحو تلاقـــي هذا بذاك ؟ واذا قلنا تلاقي فقد قلنا امتصاص احدهما للاخر .

الجواب يمر عبر النمط السكني الثالث الذي أهملناه الى حد الان في الدراسة الاولى ، كما في الدراسة الثانية . لا تتجاوز نسبتي هذا النمط السكني بالتتالي 3,18 ٪ . و 6 ٪ . ومع ذلك فلنتتبع تطوراته من 1960 الى 1984 سبق أن قلنا أن الاحـواش

---

1) نرمز الى الدراسة التي قمنا بها سنة 1984 حول بنقردان بالدراسة الاولى والدراسة الثانية هي التي قمنا بها سنة 1988 حول كافة ولاية مدنين بما فيها بنقردان .

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

و الفيلات التي بنيت خلال هذا الربع من القرن لم تنجز في نفس الوقت الذي شرع فيه في البناء بل لقد تطلب ذلك الانجاز سنوات عديدة لكن ذلك لم يطرح مشكـــلا حول التسمـية التي نطلقها على كل منها .

مقابل ذلك نسجل اشكالا بالنسبة للحوش - فيلا لانه يتكون من جزئين أحدهما قديم والآخر حديث (راجع التعريف) . في مثال السكن في بنقردان لاحظنا تفاوتا في تزايد الجزء القديم (1ر3) والجزء العصري (2ر95) في نفس المسكن وهذا يؤكـــد تخيرا في الذوق المعماري ويؤدي الى اعتبار " المسكن المثال " ومطمح جميع السكـان هـو الفيلا وتوالي السنوات الواحدة بعد الاخرى يزيد في اجماعهم على هذا الاختيـار و تأكيد الاتجاه الادماجي لحركة السكن لا في بنقردان فحسب بل وفي كافة ولايـــة مدنين أما التمايز الخارجي بين الحوش والفيلا فلا يخرج عن الاسباب التالية :

أ و لا : تأخر نمط الحياة الجديد في الوصول الى أغلب معتمديات ولاية مدنين (1) و لذلك كانت أغلب مساكن الستينات في شكل حوش ولكن في السبعينات طرأ تغيـــر في الذوق المعماري ، فعمد العديد من السكان الى تزويق الحوش وحتى اضافة فيلا كاملـة ملاصقة له فكان الحوش فيلا .

ثـانيـــا : ان ما قد يبدو صراعا بين "الاصالة" (الحوش) و "التفتح" (الفيـلا) ليس في حقيقة الامر الا خدعة ، لان السكن الحجرى عموما لم يدخل الولاية الاحديثا .

خـاتمـــــة : لكن تبقى مشكلة : فالفيلا ليست هي الحوش فعناصرها من الداخـــل و تقسيم الفضاء فيها يختلف عن الحوش . ان البت في هذه المشكلة يعني نفي ونقض للبنية الادماجية التي توصلنا اليها في الفقرات السابقة لذا نرجىء الحديث عنهـــا الى بنية اللاندماج .

---

1) تبقـى معتمدية جربة وبدرجة أقل جرجيس استثناء .

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

ه/ النمـــوذج الاستثنـائـــي

جـدول عـدد 3 مساكن العائلة في سيدى مخلوف

النـــــــــــــوع	العـدد	النسبـــة
حـــوش	19	56
فيـــــلا	1	3
حوش فيـــــلا	2	6
كمـــــــر	8	23
خـــــص	1	3
ملـجـــــأ	3	9
الجملـــــــــــة	34	100./.

يدعم هذا الجدول استثنائية معتمدية سيدي مخلوف ذلك أنه يبرز غيابا شبه تام لنمط الفيلا مقابل هيمنة تكاد تكون كلية للحوش، تضاف اليها أهمية نسبية لسكنى الكمر. ان هذا الاستثناء لا يمكن أن يمس من النتيجة النهائية التي توصلنا اليهـــا و مفادها انخراط كل سكان ولاية مدنين في نمط سكني واحد : الفيلا و الاسبـــاب هي الاتيـــة :

أ و لا : حين نصل الى العنصر الذي يخص الوظائف الانتاجية للعائلة سنتأكد من أن

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

نمط الحياة الذي ظل - ولا يزال - مهيمنا في كامل المنطقة هو النمط الترحالي صحيح ان المدرسة والادارة وغيرها من المؤسسات ، لعبت دورا في استقرار العائلات ولكن رغم ذلك فان تنقل احد أعضاء العائلة بالقطيع زمن نزول المطر أو بعض أعضائها عند جني الزيتون أو حتى كلها (عند العطلة الصيفية للتلاميذ) لما يحين الحصاد ، هي ممارسات لاتزال عادية لا من قبل من لا عمل له ضمن العائلة بل وحتى ممن كان مشتغلا بالوظيفة . لكن مدخولها من المحدودية بحيث انه لم يسمح بأكثر من مسكن حجري لا يفوق الحوش أبهة بل هناك نسبة تقارب 35 ./. من سكان سيدي مخلوف تسكن الخص أو الكمر أو حتى أحد الملاجي ء (1) .

ثانيا : ان الانماط السكنية التي أحصيناها في معتمدية سيدي مخلوف وان كانت أقل قيمة من الفيلا فان هذا لا يعني عزوفا من سكانها عن هذا النمط المثال . على العكس من ذلك فان سكنى الحجر مهما كان الشكل الذي تشكلت فيه (الكمر مثلا كان رمزا من رموز الحراك الاجتماعي أثناء الاستعمار الفرنسي اذ كان يقطنه "المخازنية و القوميين")(2) و اذا سجلنا غيابا للفيلا فذلك يرتبط بالتقلبات التي عرفتها الهجرة في كامل ولاية مدنين وبالسرعة التي انتشر بها نمط الحياة المديني الجديد .

---

1)الخص : هو عبارة عن مساحة دائرية محاطة بعدد من أوتاد الزيتون أو التين أو السدر أو القصب ثم تربط جميع هذه الاوتاد بعضها ببعض بواسطة قش (صريع الزيتون). أما السقف فشكله نصف دائري : هذا هو " الخص العربي "

- الكمر: هو بناء حيطانه من حجر وسقفه في شكل نصف دائري (Voute)يقد من الجبس (الجبس عبارة عن طبقة من الحجر الهش الموجود تحت الارض فيبلل بالماء ويستعمل لوص الحجر بعضه ببعض- كالجير- أو لاقامة كمرة السقف).

- الملجأ : هو عبارة عن مسكن حجري صغير بنته الدولة لاعانة المعوزين على تحسين ظروف عيشهم لكن نصيبا كبيرا منهم بقي شاغرا منذ الستينات الى الان و أصبح مستعملا كمخزن لعلف الحيوانات .

2)القومي أو المخازني هو التونسي الذي يعمل كموظف مع السلطة الاستعمارية في عسكر الحدود المتاخمة لليبيا أو الجزائر بالنسبة للاول ورجل أمن في الامور الداخلية بالنسبة للثاني .

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

فعندما ازدهرت الهجرة - هجرة الشغل - في اتجاه ليبيا وفرنسا كان نمـــط الحياة الجديد لا يزال في بدايته بحيث أينعت سكنى الحوش وهذا تؤكده الدراســة التي قمنا بها في بنقردان سنة 1984 التي بينت أن هذا النمط السكني قد انتشـــر خلال كامل الستينات وحتى النصف الاول من السبعينات اذ سجلنا انجاز 64ر8 ٪ من الاحواش مقابل 27ر6 ٪ فقط من الفيلات في تلك الفترة لكن حين ركدت هجرة الشغـل نحو ليبيا وتوقف طلب فرنسا لليد العاملة التونسية انطلاقا من السبعينات ،سجلـت الحركة السكنية تراجعا وركودا في المناطق التي لم تستطع التأقلم مع الشكل الجديـد الذي اصطبغت به الهجرة مثل سيدي مخلوف ،وازدهارا في المناطق الاخرى التـــي تكيفت مع هذا النمط الجديد من الهجرة : هجرة التجارة التي بدات تشق طريقهـــا - ميزة لا تخص الجنوب بل كامل البلاد - بالتوازي مع نمط الحياة الجديد وأفرزا معـــا نمطا سكنيا جديدا : الفيلا في بنقردان وميدون وغيرها من المعتمديات .

/ه/ خـاتمـــــــة

ما ان تتبدى لنا جاذبية الدولة بانخراط سكان الريف في الادلوجة التحديثيـة المسجدة في اندماجهم السكني حتى يطفو على السطح سؤال كنا طرحناه منذ أربـــع سنوات على سكان بنقردان : ((ماهي الاذاعة والتلفزة التي تفضل الاستماع اليها ؟)) . كنا ننتظر جوابا في اتجاه الاذاعة والتلفزة الليبيتين . لكن أغلبية الاجوبة لم تأخـذ لا تلك الوجهة و لا الوجهة المعاكسة - الاذاعة والتلفزة التونسيتين - وانما وجهـــة ثالثة : الاذاعتين والتلفزتين معا .

أما التبرير الاساسي الذي قدم لهذه الاجابة فهو الحرص على " تتبـــع الاخبار من الجهتين لمراقبة سير العلاقات بين النظامين " وهذا لا يعكس - طبعـــا - في شيء وعيا وحسا مدنيين أو قدرة على الحكم على الاشياء ونضجا سياسيـا أو التزاما بالوحدة العربية على " الطريقة التونسية " أو " الطريقة الليبية " . من احـــترف

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

"الكتـرة" لا يهتم كثيرا بمن الظالم ومن المظلوم من النظامين ؟ الى مصلحـــة من أفضى الصراع ؟ الاهتمام الوحيد : ما هو أثر كل ذلك على الهجرة ؟

ان هذه البراجماتية التي تطبع ذهنية كل ممارسي الهجرة تطرح ســـوءا لا جديدا : هل ان تبني مجتمع ما قيما استهلاكية ما ـ السكن مثلا ـ كاف للبرهنـــة على اندماجه في المشروع المجتمعي الذي يبشر بتلك القيم ؟ ان الاجابة تتطلـــب تجاوز المقاييس الكمية و المعمارية للوصول الى المضامين الثقافية التي تمفصلت مع النمـط السكني المعبر عن هذه القيم .

2 = الـلا انـدمـــــاج

عندما سأل اندرى ادام أحد سكان المدن القصديرية المغربية عن سبب نزوحه من الريف اجابه قائلا : " هنا في المدينة ، كل فرد يصبح سيدا " و المقصـــــود بالسيادة طبعا ليس السيطرة على الاخر أو استغلاله وانما "عدم الخضوع أو الارتبـاط بأحد ـ " باستثناء الحكومة البعيدة عنه "ـ ويضيف أدام معلقا " أن هذه القيمـة ـ الفرد ـ التي نمت في هذا القرن العشرين داخل المدينة المغربية هي قيمة اخترعها الغرب منذ مدة غير بعيـدة " (1) .

ان الفرد الذي اكتشفه ادام موجود في المدينة الكبرى، أما نحن فسنحـــاول البحث عنه في بعض المدن الداخلية الصغيرة التي تعرف تحولات سكنية كبيـــــرة و لتحقيق هذا الغرض سنعتمد على متغيرات ثلاث وهي الوظائف السلطوية للمسكـــــن ووضعية المرأة والتعليم .

I) André Adam. Urbanisation et changement culturel au Maghreb. A.A.N.S-C.N.R.S I972. page 22.

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

أ - الوظائف السلطوية للمسكن

بينت لنا الدراسة التي أنجزناها في بنقردان سنة 1984 أن توزع السلطة داخل أية مجموعة يعكس الى حد بعيد طبيعة الانشطة والادوار التي يلعبها مختلف أعضاء هذه المجموعة ونحن اذ نحاول تعميم نتائج هذه الدراسة على كافة معتمديات ولاية مدنين - رغم بعض الخصوصيات - فلاننا سجلنا اتفاقا يكاد يكون كليا سواء من حيث الانشطة الموجودة في كل معتمدية أو فيما يتعلق بشكل توزع الادوار بين أعضاء العائلة الواحدة .

ب/ الانماط السكنية

يقدم لنا كل من احصاء سنة 1984 والعمل الميداني الذي أنجزناه حول ولاية مدنين سنة 1988 تصنيفين لانماط السكن نسمي الاول تصنيف - أ - والثاني تصنيف - ب - ورغم أن هذا الاخير قد ورد في مكان سابق من البحث فاننا نعيد نسخه هنا حتى تسهل عملية المقارنة .

جدول عدد أصناف السكن

نوع السكن	1975	1984
دار - برج - حوش	74ر8	80ر6
فيلا أو شقة	6ر4	14ر1
كوخ أو خيمة	18ر8	5ر3
المجموع	100./.	100./.

تصنيف أ (1)

---

1) التعداد العام للسكان والسكن (نفس النشرية السابقة) ص 53.

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

جـدول عـدد 2 مساكن العائلـة (جدول مذكورسابقا)

الصنـــــــف	عـــدد	النسبـة
حـــوش	103	58
فيـــــلا	51	28,5
حـــوش - فيـــلا	11	6
كمـــــــر	9	5
ملجـــــأ	3	2
خـــــص	1	0,5
المجمـــــــوع	178	100./.

تصنيـــــف ب (1)

اعتبرت نتائج التصنيف - أ - " تطورا ملحوظا في نوعية المسكن " و دون أن نخوض في التفاصيل نقول ان الاختلافات التي جاءت بالتصنيف - ب - ماهي الا تـأكيـــد لذلك فارتفاع نسبة الفيلات وانخفاض نسبة الاكواخ ترجمة عن المسار الذي أخذتـــه الحركة السكنية بهذه الولاية لكن و مع ذلك فلنا أن نسجل بعض الاختلافات منهـــا ماهو غير هام وما هو هام . النوع الاول يتصل بغياب صنف أو اثنين من المساكن بهـــذا التصنيف أو ذاك. ويعزى ذلك الى مجرد اختلاف في التسميات فالخص أو الكمـــــر

1) عمل ميداني تم سنة 1988.

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

في التصنيف - ب - ما هما الا كوخ أو حوش سقفه دائري يمكن أن نجدهما في التصنيف - أ - . أما غياب الملجأ في التصنيف - أ - والشقة في التصنيف - ب - فمرده من ناحية نقص في تعداد 1984 وحدود البحث الميداني لسنة 1988 الذي اقتصر على المناطق الريفية فحسب .

أما الاختلاف الهام - حسب رأينا فيتعلق بغياب صنف (الحوش - فيلا) من تعداد سنة 1984. ان توضيح أسباب هذا الغياب سوف لن يفيدنا في توضيح الوظائف السلطوية للمسكن فحسب بل و أيضا سيدعم سبب اختيارنا لمصطلح عائلة عوضا عن مصطلح أسرة . ان غفلة احصاء 1984 عن هذا الصنف - رغم انه لا يمثل نسبة احصائية كبيرة - كان من جملة الاسباب الهامة التي جعلته يسقط مصطلحا مدينيا : الاسرة على واقع تقليدي - قبلي - مغاير : العائلة و تتجلى وظيفية الحوش - فيلا في استجابته أيما استجابة للتغيرات التي طرأت على الذوق المعماري فهو يلبي في الان ذاته طموحات السكان في الرفعة بواسطة عناصره المعمارية كالصالة والفراندا (أو حتى فيلا ملاصقة) من جهة وحاجات العائلة في الاستمرارية لضرورات الفلاحة المعاشية (العائلية) والهجرة (العائلية كذلك) . ولقد انجر عن تلك الغفلة خطأ ثان، اذ قدرت نسبة المساكن التي تضم أكثر من أسرة واحدة بـ 2ر1 ٪ . فقط لكن نتائج العمل الميداني التي بين أيدينا تفند ذلك .

و سنرى في الجدول الموالي ان نسبة المساكن التي تضم أكثر من أسرة واحدة تصل الى 29 ٪ . وهي كما نرى كافية لبيان خطأ اعتبار تقديرات التعداد العام للسكان . صحيح أن هذه النسبة هي معدل لنسب الثلاث معتمديات التي تقدم لنا بعض الاختلافات اذ هي في بنقردان بـ 5ر52 ٪ . وميدون بـ 19 ٪ . وسيدي مخلوف بـ5ر9 ٪ .

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

جـــــدول عـــــدد 4 : تـــوزع المساكـــن بين العائلات

العائلات / عدد مساكن العائلة	بلقـــردان		مـــدون		سيـــدى مخلوف		الجملـــــة	
	عدد العائلات	نسبة العائلات	عدد العائلات	نسبة العائلات	عدد العائلات	نسبة العائلات	عدد العائلات	نسبة العائلات
مسكـــن واحـــد	20	47ر5	30	81	28	90ر5	78	71
2 مساكـــن	7	16ر5	2	5ر5	1	3	10	9
3 ساكـــن	10	24	0	0	2	6ر5	12	11
4 ســاكـــن	3	7	3	8	0	0	6	5ر5
5 مساكـــن	1	2ر5	1	2ر75	0	0	2	1ر5
6 ساكـــن	0	0	1	2ر75	0	0	1	1
7 ساكـــن	1	2ر5	0	0	0	0	1	1
الجملـــــة	42	% 100	37	% 100	31	% 100	110	% 100

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

لكن حتى أضعف نسبة منها (سيدي مخلوف) توازي ثماني مرات النسبة التي يتقدمها تعداد 1984, ومع ذلك لمعترض أن يقول لماذا كل هذا الالحاح على هذا الصنف من العائلات الذي لا تتجاوز أهميتها الاحصائية الثلث والعزوف عن الصنف الاخر- المساكن التي تضم أسرة واحدة- الذي تمثل نسبته الاحصائية أغلبية ساحقة (72 ٪) ؟ للاجابة على هذا الاعتراض نقدم الملاحظات التالية :

أولا : وجود أسرة واحدة في المسكن لا يعكس موقف عداء أو هروب من العائلة و انما غياب الابوان بسبب الوفاة وتحول قيادة العائلة الجنينية الى رب " الاسرة " الحالية في انتظار زواج أحد أبناءه الذكور .

ثانيا : ثم هناك عدد كبير من الاسر التي تسكن مسكنا على حدة والحال أن رب العائلة لا زال على قيد الحياة لكن هذا لا يعني في شيء انحلال العائلة لان مسكن " الاسرة " لا يبتعد عن مسكن العائلة الا بضعة أمتار والا نفصال ان يكون معماريا ، فان الاتصال يبقى على مستويات عدة : الاكل والسهرات العائلية فضلا عن استمرارية الانشطة الاقتصادية المشتركة .

ثالثا : ويتأكد هذا الاتصال حين نذكر بان الـ 110 عائلة التي وقع استجوابها تملك الى جانب الـ 110 مسكنا التي يقيم فيها رب العائلة 71 مسكنا آخر واذا جمعنا هذه بتلك أصبح 181 أي بنسبة 1,6 مسكنا على كل عائلة وهذه المساكن الفائضة ليست الا مساكن الابناء الذين تزوجوا أو هم على أهب الزواج لكن امتلاكهم لمساكن خاصة لم يؤهد الى اعتبارهم " أسر " مستقلة- مثلما فعل تعداد 1984- بل انهم يواصلون حياتهم مع العائلة .

ان ارتفاع نسبة الاسر التي تسكن منزلا واحدا يفيد بأن المستوى المادي لهذه الاسر ضعيف ويحثنا على طرح الفرضية التالية : كلما ارتفع عدد " الاسر" داخل مسكن ما ، كان ذلك دليل على فقرها وضعف دخلها المادى لكن مكافحة نتائج

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

كل معتمدية بالاخرى يؤدى الى عدة اشكالات : هل ينسحب هذا الحكم على ميدون احدى أكثر مناطق ولاية مدنين ممارسة للهجرة ؟ هل أن الضعف النسبي لهذا الصنف من العائلات في بنقردان مجرد برهان على غناها ؟ أخيرا اذا كان الامر كذلك فهل ان ضعف نشاط الهجرة في سيدي مخلوف هو السبب الكامن وراء ارتفاع هذا الصنف بها وهكذا يصبح منطقيا ربط انهيار العائلة وتعويضها بالاسرة بتطور نشاط الهجرة ؟

تمتاز ميدون عن سيدي مخلوف بحيوية الهجرة ومع ذلك فان نسبة العائلات المقيمة هنا في مسكن واحد تكاد تضاهي مثيلتها هناك (81 ٪ . مقابل 90,5 ٪ .) هذا يعني أن استمرارية العائلة لا علاقة لها بممارسة الهجرة لننظر الحالة الاخرى ولنتثبت من أن العكس صحيح أو لا ؟

في بنقردان تصل نسبة العائلات التي تقيم في أكثر من مسكن الى أكثر بقليل من النصف (52,5 ٪ .) فهل هذا دليل على أننا أمام سكان مستوى دخلهم وصل الى حد أرفع مما هو عليه هناك بحيث يجعلهم أقرب الى الاستقلالية السكنية و أبعد عن العائلة ؟ لكن المورد الذي وفر المساكن في بنقردان هو نفسه الذي يمارس في ميدون .

ان هجرة بنقردان تختلف عن هجرة ميدون في نقطتين هامتين الاولى : في وجهتها و الثانية في طبيعتها : وجهة ليبيا أدت بسكان بنقردان الى ممارسة هجرة قصيرة المدى ولكنها متواصلة بحيث أصبحت " شغلا " يوظف ما فاض من مداخيله - بعد خصم المصاريف اليومية - في بناء المسكن تلو المسكن أما وجهة

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

فرنسا - بالنسبة لسكان ميدون - فهي طويلة المدى وتطمح الى التوقف . مما يدفع بصاحبها الى التفكير - ربما قبل المسكن - في انجاز مشروع تجاري أو غير تجاري . و لما كانت طبيعة الهجرة في بنقردان بالاساس تجارية ، فان رب " الاسرة " لم يكن مجبرا على ادماج أفراد " أسرته " بأعضاء عائلته في مسكن واحد خوفا عليهم من غياب يعلم مسبقا أنه لن يطول أما مهاجر ميدون الذي يرتبط بعقد شغل بفرنسا فانه لا خيار له - خاصة اذا هاجرت معه زوجته - في أن يكلف أباه بتربية أبناءه عوضا عنه خوفا عليهم من هول الاغتراب الثقافي .

بهذين النقطتين يتوضح سبب تفوق معدل المساكن لدى سكان بنقردان (2 مساكن على عائلة) على مثيله لدى سكان ميدون (1ر5 مسكن على كل عائلة)، لكن هل يمكن ذلك من القول بأن ميدون أكثر تشبث بالعائلة من بنقردان ؟ نعم اذا كان شكل من أشكال الهجرة فقط هو الذي يحتاج اليها . تبقى اذن مشكلة سيدي مخلوف فهي لا زالت متشبثة بالعائلة دون أن يكون لها أي شكل من أشكال الهجرة ؟

هل نكون قد انتهينا من حيث بدأنا ؟ أبدا و انما نكتفي بهذه الفرضية - موقتا - أن أي نشاط يمارس في مدنين - هجرة أو غيرها - يؤدي بالضرورة الى استمرارية العائلة ، أما الادلة على ذلك فسنجدها في عنصر الوظائف الانتاجية للعائلة .

/ه/ سلطة الاب داخل العائلة

هل يستجيب التقسيم الفضائي للمسكن الجديد - فيلا أو حوش أو حوش- فيلا - بوصفه مسكنا مبنيا على مقاس حاجات الاسرة الى حاجيات العائلة ؟

لما كان الاب هو رمز حيوية العائلة فاننا نحاول البحث عن التعبير المعماري

الذي يجسد سلطته ، فكيف تفصلت الصالة (أو المربوعة بالحوش الناجز أو غرفة الاب بالحوش غير الناجز) وهي عنصر معماري مديني مع نظام تصورات ورموز المجموعات الريفية بمدنين ؟

في اطارها المرجعي الذي أنشاها ، تلبي الصالة حاجات عديدة فاذا كان سياج الحديقة هو الحد الفاصل بين الداخل والخارج ، بين الاسرة والاخرين (جيران ، حي ، زملاء ...) اذا كان أيضا عنوان استقلالية الاسرة ، فان الصالة هي اخر قلعة بين الداخل والخارج و يمكن أن نقيس درجة حرارة العلاقة التي تربط بين أي زائر وأي فرد من أفراد الاسرة حسب تجاوزه من الصالة الى الداخل أو بقاوءه عند حدود ها فما هي المحددات التي تقف وراء هذا التصلب في العلاقات ؟

من مفارقات الحياة المدينية ان تنامي دور الاب الاقتصادى - بعد دخول الابناء الى المدرسة - عوض أن يؤدي الى تدعيم سلطته ، أدى الى اضعافها والى - تبعا لذلك - تناقص أدواره الاجتماعية الاخرى فمسوءولية التصرف في ميزانية الاسرة أصبحت مشتركة بينه وبين زوجته ، ان لم يتخل لها عن نصيبه منها . أما مسوءولية التنشئة الاجتماعية للابناء فقد طرأ عليها تغيرات عديدة من جراء التعقد والتخصص اللذين أصبحت عليهما الموءسسات الاجتماعية فقد أخذت المدرسة والنادي (رياضي ، ثقافي ...) وغيرها من الموءسسات على عاتقها مسوءولية تكييف الطفل مع ظروفه الجديدة .

ان الاب لا يستطيع أن يرفض فحسب بل ان ظروف حياته نفسها تجعله يبارك هذا لانه هو نفسه جزء لا يتجزأ من هذا الوضع . فكيف أدى هذا الاخير الى نشأة الميزة الاساسية لحياة المدينة : الفردانية ؟

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

ان تنوع المؤسسات الجديدة أفرز تنوعا في الجماعات الاجتماعية و هذا بدوره انعكس - أي أثار تنوعا - على مختلف أفراد الاسرة الواحدة . ان جماعة أو جماعات الانتماء التي تكيف حياة الاب (الجماعة المهنية ، جماعة المقهى ...) ليست هي نفسها التي تكيف حياة الام (مجموعة نساء الحي ، زميلات الشغل ان كانت تشتغل ...) أو حياة الابن (نادي رياضي ، مدرسة ...) ان تنوع - و أحيانا تضارب - الاطر المرجعية لكل فرد من أفراد الاسرة هو الذي أحال المنزل الى وضع يشبه الى حد بعيد النزل (الاكل والنوم) .

و في هذا الاطار المعبأ بالفرانية ، تصبح الصالة وظيفية الى أقصى حد فلما كان لكل فرد من الاسرة ارتباطاته وعلاقاته الخاصة ، فان من يزور البيت لا يهم بالضرورة كل الافراد ، وبالتالي تصبح الصالة مكان استقبال الزائر من قبل الفرد الذي يهمه مباشرة حتى لا يقع الاعتداء على حرية الافراد الاخرين الذين قد يكونون في حالة نوم أو بصدد تناول عشاءهم أو غذاءهم .

تلك هي أوجه استعمال الصالة في المحيط الذي أنشاها ويجب أن لا ننسى أننا تحدثنا عن حياة الاسرة كتجريد - بمفهوم النموذج المثالي القيبري - و ليس كواقع حقيقي مائة بالمائة . فالى أي مدى كانت الصالة في مدنين بديلا وظيفيا لبيت الشعر ؟

ان التماثل الكلي الذي أبرزناه من خلال استمرارية و حيوية العائلة كممثل للمجتمع التقليدي في كامل ولاية مدنين - ممثلة في المعتمديات الثلاث - من حيث وظائفها الاستهلاكية ، أو الذي سنبرزه - في الفصل الموالي - من خلال وظائفها الانتاجية هو الذي سيشرع لنا تعميم النتائج التي توصلنا اليها

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

أثناء دراستنا التي كنا أنجزناها منذ أربع سنوات ببنقردان .

مكـان السهـرات العائليـــة (1)

المكـــــــــــان	العدد	النسبـة
مخزن (مربوعة) بالحوش	5	2ر9
احدى غرف الحوش	116	68ر2
صالة أو غرفة بالفيـلا	49	28ر8
الجملـــــة	170	100/.

كل الاجوبة الموجودة بالجدول تبين أن السهرات العائلية تلتئم أمـــا بمربوعة الحوش (أو الحوش ـ فيلا) أو باحدى غرفه و اما بصالة الفيلا أو الحوش ـ فيـلا أو باحدى غرفـه .

لكن اذا ذكرنا أن العينة التي أمامنا (170 عائلة) لها 245 مسكنـــا منها 105 فيلا (لها كلها صالة) و 45 حوش ـ فيلا (بها كلها صالة أو ما يقوم مقام الصالة) ثم قارنا ذلك بالجدول الذي أمامنا فان ذلك يظهر اشكالا لان نسبة المساكن التي بها صالة (أو ما يشبهها) تصل الى 63ر6 /. (من 245 مسكـــن) لكن الجدول الذي أمامنا يبين أن 28ر8 /. فقط من العائلات (170) اختـارت

---

1) فتحي الرقيق ـ مصدر مذكور ـ ص 104 .

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

الصالة لسهراتها العائلية . هل يؤدي هذا بنا الى اعتبار الصالة عنصرا معماريا غير مرغوب فيه ؟ لنؤجل الجواب ولندخل مباشرة الى داخل الصالة .

قد نجد - وقد لا نجد - الاثاث المعهود في أية صالة مدينية من أرائك وطاولة وزرابي لكن ومع ذلك فاننا لا نعدم فيها مكانا مفروشا على الطريقة العربية حيث يجلس الاب وأبناؤه وأقاربهم من الرجال . فماهي الوظيفة أو الوظائف التي تؤديها الصالة للعائلة ؟

أ و لا : ان الزائر هنا هو في غالب الاحيان من الاقارب لذلك فان زيارته ليست خاصة بعضو من أعضاء العائلة بل اليهم جميعا ، لذا فان زيارته تدخل في باب صلة الرحم وتساهم في تقوية الروابط العائلية .

ثانيا : ان الجلوس بالصالة يكون عادة على الارض لذا فانها كثيرا ما تستعمل للاكل واذا انتفت الفروق بين غرفة الاكل وبين الصالة فيمكن أن نتساءل : هل حافظت الفيلا على التقسيم الوظيفي المعهود لفضائها ؟ بل يمكن أن نذهب الى أبعد من ذلك : هل تختلف الصالة عن أية غرفة أخرى ؟ قد تحمل النقطة الموالية جوابا .

ثالثا : لما كانت الصالة تفتح على الخارج وعلى الداخل ببابين مختلفين فانها تمكن الزائر من الدخول مباشرة بدون المرور بداخل المسكن وتمكن صاحب المنزل أيضا من الاتصال بزوجته - في حضور الزائر - دون اخراج عن طريق الباب الداخلي وهكذا تستجيب الصالة لحاجة ثقافية وهي فصل النساء عن الرجال .

/ ه/ خاتمة

ان كل النتائج التي توصلنا اليها تسير في اتجاه واحد : تأكيد نظام الرموز و التصورات والمواقف والسلوكات التقليدي - القبلي - وفي نظام الرموز والتصورات

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

و المواقف والسلوكات الجديد ... ابراز للعائلة واغفال للا سرة و كأننا أمام حالة من " التاريخ الراكد "- الذي لم يوجد قط- وكأن مجال دراستنا قلعة مغلقة نزلت عليها الفيلات والسيارات وكل أنواع البضاعة الجديدة من السماء دون ارتباط بدولة أو أدلوجة .

ان هذا الاعتراض وجيه ولمجابهته نقترح الفرضية التالية : ان الاسرة موجودة في ولاية مدنين وللبرهنة على وجودها نعتمد على متغيرتين اثنتين : وضعية المرأة ووضعية التعليم . المرأة لان لها في الخطاب السياسي و الا دلوجي وضعا متميزا اذ أصبحت مجلة الاحوال الشخصية التونسية " مضربا للامثال " في تحرير المرأة . أما التعليم فلانه في تونس اعتبر- و لا زال ولكن بدرجة أقل الحاحا- مخرج البلاد من التخلف حسب نفس الخطاب طبعا .

ب - وضعية المرأة

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

جـــــدول عـــــــــدد مكـــــان الطبـــخ

المكان / الصنف	بنقـــــردان				ميـــدون				سيـدى مخلوف				الجملـــة			
	قيـــلا		فيـــره		قيـــلا		فيـــره		قيـــلا		فيـــره		قيـــلا		فيـــره	
	ع	ن	ع	ن	ع	ن	ع	ن	ع	ن	ع	ن	ع	ن	ع	ن
مطبخ مجهزا تجهيزا تاما (غاز + ثـلاجـــة)	12	80	6	22	10	91	12	46					22	81,5	18	21,5
مطبخ مجهزا تجهيزا ناقصا (فـاز فحسب)	3	80	18	67	1	9	9	34,5	1	100	19	63,5	5	18,5	46	55,5
كمرأوخص مجهزا (غاز فحسب)			3	11			2	8			10	33,5			15	18
كمـر أو خص غيرمجهز(حطب)							3	11,5			1	3			4	5
الجملـــــة	15	100٪	27	100٪	11	100٪	26	100٪	1	100٪	30	100٪	27	100٪	83٪	100٪

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

ان نسبة المطبخ المهيأ (aménagée) و المجهز تجهيزا عصريا (فيه غاز و ثلاجة وبه تقسيم وظيفي لكل أركانه يحاول الاقتراب من الموجود بالفيلا المدينية) ليس حكرا على الفيلا بل ان الحوش والحوش - فيلا خاصة يسيران في اتجاه تجهيز المطبخ بدليل أن 5ر21 ٪ منهم لها مطابخ مجهزة وحتى الـ 5ر55 ٪ منها والتي تحتوى على مطبخ مجهز تجهيزا ناقصا فان ذلك لا ينفي ما قدمناه بل يؤكده لان مرد ذلك غياب النور الكهربائي الذي يحرم هؤلاء السكان من الانتفاع بالثلاجة وخاصة في سيدي مخلوف أين سجلنا غيابا مطلقا بكل العينة لأي مطبخ مجهز بثلاجة لكن هذا النقص لا يهم سكان الحوش أو الحوش - فيلا فقط بل و أيضا 5ر18 ٪ من سكان الفيلات.

هذا المكان - المطبخ - بلا جدال مجال المرأة. والمرأة المثالية في التقسيم الجنسي للعمل هي التي تعطي وقتا طويلا للمطبخ لان مجتمعات اليوم مجتمعات وفرة واستهلاك - بما فيها المجتمعات التابعة بواسطة اثر الاستعراض - وقد عرفت المرأة في مدنين هذا التحول فأصبحت تتمتع بمطبخ مجهز وكفت - الا في حالات قليلة نسبتها 5 ٪ من جملة الاحواش والاحواش - فيلا مقسمة بين سيدي مخلوف وميدون - عن استعمال الحطب و أغنتها المخابز العصرية عن الطابونة فيكفيها الاستماع الى بعض " روشتات " (Recettes)حصة المرأة الاذاعية لتصنف أشهى الاطباق المدينية (1).

---

1) في برنامج " البيت السعيد " باذاعة صفاقس على الساعة الرابعة تقول احدى النساء المستجوبات من جهة قفصة أن " العصيدة المحلية آخذة في الزوال تاركة المجال للعصيدة العصرية ، عصيدة الزقوقو وفي هذا أكثر من دليل على هيمنة نمط الحياة المديني الجديد على الانماط المحلية الريفية " تاريخ الحصة 17/ 10/ 1988.

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

يتحدث لوكوربيزيي (Le Corbusier) وجمع من الاتنولوجيين والمهندسين المعماريين " عن تحرير البشر بواسطة السكن " (1) فهل تحررت المرأة الريفية بولاية مدنين لانها امتلكت مجالا خاصا بها دون غيرها من أعضاء العائلة أو لانها أصبحت طباخة من طراز رفيع ؟

ان التحرر الذي عرفته المرأة المدينية أدى الى مساهمتها في اتخاذ القرارات الداخلية ـ على الاقل ـ للاسرة وانه لمن العبث البحث عن مساهمة المرأة في مدنين في صنع القرارات التي تتخذ في العائلة ـ حتى وان تعلقت بأبنائها ـ لان المساهمة تفترض حدا أدنى من الاختلاط بين الجنسين .

لو سلمنا بأن الفيلا هي أرقى أشكال السكن و أقربها الى نمط الحياة الجديد ، فقد تتضمن في داخلها علاقات " متطورة " بين الرجل والمرأة أحد ملامحها : الاختلاط. لنتأكد من هذا الافتراض نعود من جديد الى دراسة سنة 1984. تفيدنا هذه الدراسة التي أنجزناها في بنقردان أكثر من التي قمنا بها في كامل ولاية مدنين لانها تمت في المنطقة البلدية أي حيث تكون نسبة الفيلات أرفع واحتمال نجاح مقياسنا أفضل .

طرحنا آنذاك السؤال : أين يجلس كل من الرجال والنساء على سكان 49 فيلا .

I) J. E. Haver - Habitat et logement. Que sais-je . P. U . F, Paris I974. page 5I.

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

جـــدول نسبـة الاختـلاط ونسبـة الفصل لدى سكان الفيلا

العـــلاقـــة	رجـــال		نســـاء		المكـــان
	عدد	نسبة	عدد	نسبة	
فصـــل	32	65ر3	0	0	1 بالصالـــة
	07	14ر2	39	79ر5	2بغرفة على حدة بالفيلا
الجملـــة	39	79ر5	39	79ر5	
اختـلاط	10	20ر5	10	20ر5	بطلة الفيلا أو باحدى غرفها
المجموع العام	49	100	49	100	

ان الجدول الذي أمامنا يبرز نسبة اختلاط تساوى 20ر5 معنى هـــذا أن الـ 49 أسرة ـ أو عائلة ـ التي اختارت مكان السكن فيلا مستقلة عن حـــوش أو حوش ـ فيلا الاب ، تمثل فئة اجتماعية تطمح الى تجسيد نمط الحياة الجديـد ، فنلاحظ أنها تولي اهتماما بتربية الاطفال وتعليمهم أكثر من غيرها من العائـــلات ثم اننا نسجل لديها أيضا انبثاق هوايات مدينية جديدة : الاعتناء بالحديقـــة المحيطة بالفيلا وهذا هام جدا لان الحفاظ على الحديقة يفرض عادة اقامة ســـور وهذا بدوره ضرب من ضروب القطع مع العائلة .

ان هذه النسبة من الاختلاط (20ر5 ./.) وان تكن ضعيفة نوعا ما لكنهـــا في حقيقة الامر كبيرة خاصة اذا قارناها بنسبة الاختلاط الموجـــودة لدى 121 عائلة المتبقية والتي تسكن الحوش و الحوش ـ فيلا ، هناك وصلت نسبة الاختـــــلاط الى 8ر2 ./. فقط .

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

و لم يقتصر هذا التحول بالمواقف و السلوكات على داخل الفيلا وانما تجاوزه الى المستوى الاجتماعي ككل مما يدل على ان 49 أسرة بصدد ابدال مجموعة انتمائهـــا الاصلية القائمة على رباط الدم باخرى قائمة على رباط المواطنة والا فكيف نفسر أنـه على جملة 16 مسؤولية اجتماعية وثقافية ورياضية تحمل سكان الفيلات 11 منهـــا و اعتنق 34 منهم (3ر69 ٪ .) مبدأ مصاهرة " البراني " (الذي ليست لـــه علاقة دموية بالعائلة وهو أيضا القادم من مدينة أخرى خارج بن قردان) بل كيـف نفسر اقدام 27 (2ر55 ٪ .) منهم على احاطة فيلاتهم بسور اتفق أغلب سكـــان بنقردان على اعتبار بناءه " عيبـــا " ؟

تلك بعض ملامح التحول الذي عرفته فئة اجتماعية في بنقردان فكيف انعكست نتائجه على وضعية المرأة ؟ من مقاييس تحرر المرأة في الخطاب السياسي والادلوجي السائد : السفور والشغل .

سبق أن قلنا بأن المطبخ مكن المرأة ـ زوجة ساكن الفيلا ـ من دور خصوصي : الطبخ لكن الطبخ أصبح فنا يتطور يوما بعد يوم وسيادة المرأة عليه تتطلب منهـا مواكبة لكل ما يجد من جديد في هذا المجال فبالبضاعة المعروضة سواء كانـــت غذائية أو أدوات طبخ أصبحت من التنوع بحيث أن أوقات فراغ الزوج لم تعد تكفـــي للتعرف عليهـا .

ان منطق الحياة الجديدة يفرض اتصال المرأة بالسوق مباشرة لكن المرأة هنـا ـ بنقردان ـ لا تكاد تخرج من مسكنها سواء كانت من سكان الفيـلا أم الحوش أما عـــن

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

الشغل فان المرأة لم تتوقف يوما عن النشاط الفلاحي مهما كان شكل مسكنها غير أن الشغل مقابل أجر لم نسجل منه الا 11 حالة - الرقم لن يكون مختلفا في كافة ولاية مدنيين - جلهن لم يتزوجن بعد لكنه في الاغلب شغل وقتي لا يتجاوز الاربع أو الخمس سنوات حسب ما يفرضه تاريخ الزواج .

هل أن سكان بنقردان ضد شغل المرأة - وبالتالي ضد تحررها - ؟ الجواب نعم باستثناء نوع معين من الشغل : الوظيفة غير أن هذا الاستثناء ليس موقف سكان الفيلا وحدهم وانما موقف الجميع . الى أي مدى يمكن تعميم هذه النتائج على كامل ولاية مدنين ؟ مسألة نشاط المرأة الفلاحي نوعجله الى الفصلين الثاني وخاصة الثالث أما مسألة الوظيفة وتبعا التعليم فسنجيب عنها في العنصر الموالي .

ج - وضعية التعليم

تنتمي جل مواطن الشغل القارة بولاية مدنين الى القطاع الثالث منها النصف تقريبا وظيفة . ان قيمة هذه الاخيرة ليست في جرايتها المتواضعة وانما فيما توفره من شغل مريح واجازات ورفعة . وقد انعكست كل هذه الايجابيات في تصور سكان جهتنا من خلال موقفهم من التعليم .

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

جـدول عدد 6 ماهي سبل ضمان مستقبل الابنـاء

المكـان / السبـل	بنقـــردان		ميـــدون		سيدي مخلـوف		الجملـــة	
	ع	ن	ع	ن	ع	ن	ع	ن
الدراســـة	19	45	12	32,5	11	35,5	42	38
الهجـــرة	4	9,5			2	6,5	6	5,5
الفـلاحـــة	1	2,5	1	2,5	1	3	3	2,5
الدراسة والفلاحة	15	35,5	17	46	11	35,5	43	39
الدراسة والهجرة	1	2,5	2	5,5	1	3	4	4
الهجرة والفلاحة					3	10	3	2,5
البحث عن الشغل باحدى المـدن					2	6,5	2	2
لا جـــواب	2	5	5	13,5			7	6,5
الجملـــة	42	100	37	100	31	100	110	100

ان السبيلين الطاغيين على بقية السبل التي طرحت على سكان مدنيـــن هما الدراسة أولا والفلاحة المصحوبة بالدراسة ثانيا. لنترك الحديث عن الاختيـــار الثاني للفصل الموالي ولنركز الان اهتمامهما على الاختيار الاول .

/ ه / الظـــروف العائليـــة للتعليـم

يبدي السكان اهتماما متزايدا بالتعليم فلو عدنا الى جدول كما عرضنـــــاه

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

في مكان سابق حول "أين توظف مرابيح الهجرة" لاحظنا انهم يولون عناية بتوفير ما يحتاجه الابناء من مصاريف الادوات المدرسية واللباس و المواصلات بل أن نسبة كبيرة منهم مستعدة لدفع معلوم التعليم الحر ان لزم الامر، وما تزايد عدد مدارس التعليم الحر (في بنقردان مثلا توجد 2 مدارس حرة مقابل 3 تابعة للدولة) الا دليل على ذلك غير أن الجو العائلي الذي ينمو فيه هؤلاء الابناء يمثل عدة نقاط ذات وظيفة معاكسة (dysfonctionnelle)

أولا : من الامور المألوفة في بنقردان وميدون وحتى سيدي مخلوف هو غياب الاب موقتا أو لفترة طويلة ، فهل نجح البديل الوظيفي - الجد أو العم - في القيام بدوره ؟ تصل نسبة العائلات التي تضم 10 أعضاء وأكثر في كل من بنقردان و ميدون وسيدي مخلوف على التوالي الى 5ر40٪ و 46٪ و 5ر38٪ . كما أن نسبة العائلات التي تضم من 5 الى 9 أعضاء تكاد توازيها في الاهمية أو تفوقها فهي على التوالي 52٪ و 5ر37٪ و 5ر48٪ . ان هذه النسب تبين أن مسؤولية البديل الوظيفي محكوم عليها مسبقا بالفشل .

ثانيا : سلبية الام : اذا كنا في نطاق العائلة فان الام لا تتجرأ على القيام بمهمة تربية ابنها مادام البديل الوظيفي للاب- الجد أو العم - موجودا أما اذا كنا في نطاق "الاسرة" (سكان الفيلا) فهذا لا يعني أولا أن دور الجد أو العم قد أسقط وثانيا ، حتى وان ثبت العكس فان جهل الام وسلبيتها الموروثتين لن تقدما الى الابن شيئا .

ثالثا : "الحلم الجماعي" ان النجاح الخاطف الذي تمكن منه الهجرة له أثر سلبي على ذهنية التلميذ اذ أنه يؤدي في حالات كبيرة الى احباط "مشروع التعليم" الطويل والمضني ليحل محله "مشروع الهجرة" "القصير و السهل" ولتأكيد ذلك يكفي قطع المسافة الرابطة بين راس جدير ومدينة مدنين للاطلاع على عدد التلاميذ الذين ما ان يخرجوا من مدارسهم الابتدائية

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

أو الثانوية حتى يعوضوا آبائهم في مهمة ابدال الدينارات بالجنيهات الليبية (1).

/ه/ نتائج التعليم

أولا : لقد مكن التعليم من انجاز نصيب من الاعمال القارة بما خلقه من وظائف لكن سرعة انقطاع التلاميذ عن الدراسة أو اكتفائهم بنصيب من التعليم الثانوي لم يعطهم أكثر من وظائف متواضعة لا تغني لا عن أموال الهجرة ولا - تبعا لذلك - عن روابط العائلة أما اذا صادفنا بعض حالات النجاح الكلي في التعليم بالاحراز على شهادة عالية ، فان الحراك الاجتماعي يدفع بالمعني بالامر مباشرة الى احدى المدن الكبرى وبالاخص العاصمة وهذا في حد ذاته مظهر عجز التعليم عن احلال الاسرة محل العائلة .

ثانيا : من المفارقة أن أموال الهجرة التي توظف في قسم كبير منها في سبيل التعليم هي التي تسببت في تواضع نتائجه بل وكرست حاجة المتعلمين انفسهم اليها فبحكم تواضع مداخيلهم كموظفين وبحكم ارتفاع مصاريفهم أيضا كموظفين تشبعوا بنمط الحياة الجديد فانهم - بعد حصولهم على الشهادة - مجبرين على ممارسة الهجرة كبقية أعضاء العائلة .

ثالثا : ان الوظيفة لم تعجز عن احلال الاسرة محل العائلة - وبالتالي احلال " الحداثة " محل " التقليدية " (البداوة اذا شئنا) فحسب بل انها ذاتها أصبحت عنصرا من عناصر " التقليدية " فبنفس الكيفية التي يمجد بها قديما الفارس الفقير يمجد اليوم الموظف الفقير (ذو الدخل المحدود) لان الرفعة

---

1) وصل الامر الى حد تعليق لافتة كتب عليها " صرف " فوق جذع شجرة على الطريق الرابطة بين بنقردان وراس جدير .

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

في نظام القيم التقليدي (القبلي) لا ترتبط حتما بالثروة ولهذا السبب نفهم لماذا لا يجد شغل المرأة بالوظيفة نفس المعارضة التي يجدها شغلها بمكان آخر .

III الوظائف الانتاجية للعائلة : برنامج التنمية الريفية

ان اقبال سكان مدنين على برنامج التنمية الريفية لا يبرهن عليه فرحهم وابتهاجهم لزيارة أي مسؤول له علاقة مباشرة أو غير مباشرة أو حتى من يعتقدون - خطأ - أن له به علاقة (1) فحسب بل وأيضا تبرهن عليه النتائج الاحصائية التي توصلنا اليها من خلال البحث الميداني .

جدول عدد 7 الاعانة المتمتع بها

المكان / الاعانة	بنقردان		ميدون		سيدي مخلوف		الجملة	
	ع	ن	ع	ن	ع	ن	ع	ن
اعانة مادية تامة	23	49	26	55,5	26	72	75	57,5
اعانة مادية ناقصة	13	27,5	5	10,5	3	8,5	21	16
اعانة عينية	1	2	4	8,5	2	5,5	7	5,5
اعانة مادية وعينية تامة	4	8,5					4	3,5
اعانة مادية وعينية ناقصة	2	4,5					2	1,5
اعانة الغيت	4	8,5	12	25,5	5	14	21	16
الجملة	47	100	47	100	36	100	130	100

1) أثناء قيامنا بالعمل الميداني نجد صعوبة جمة في اقناع المستجوبين بأن لا علاقة لنا بـ" موزعي " الاعانات وبأن عملنا علمي بحت .

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

تبلغ الاعانات التامة (أي القروض و المنح المتفق عليها بين المنتفع ومصلحة التنمية الريفية والتي قدمت كليا الى المنتفع أي بنسبة 100 ./.) 75 (57,5 ./.) تضاف اليها الاعانات الناقصة وعددها 21 (16./.) والتي لم يسلم منها الا قسط واحد و أخيرا الاعانات العينية التامة أو الناقصة المقدرة بـ 6 (17,5./.). مقابل كل هذه الاعانات التي تحققت كليا أو جزئيا تبدو الاعانات الملغاة 21 قسط (16./.) وهي كما نرى نسبة ضئيلة والغاؤها لا يعود الى خلل في توزيع الاعانات أو في ضبط قائمات المنتفعين و انما - كما سنرى لاحقا - الى تخلي أصحاب المشاريع أنفسهم .

و الواقع فان نسبة التخلي عن المشاريع كانت تكون أرفع لولا الاغراء الذي يحدثه البرنامج لدى سكان الريف أجمعين فالعديد من هؤلاء أبدوا تذمرا و شكوى من بعض الصاعب التي تحول دونهم و الحصول على الاعانة أولا ها تعدد الوثائق والاوراق الادارية التي يطالب بها المنتفع زيادة عن التعطيلات الاخرى وخاصة منها تلك التي تتعلق بالبنك الذي سيصرف الاعانة نقدا. أما الصعوبة الثانية فهي تقسيط الاعانة وهذا ليس كل شيء فالأقساط و خاصة القسط الاول الذى من المفروض أن ينطلق به " المشروع " لا يسلم الا بعد أن يكون المنتفع قد أنجز مرحلة العمل التي تجيز له الحصول على ذلك القسط وهذا ما أدى بالعديد من المنتفعين الى التساؤل : " ما قيمة أية اعانة اذا قدمت بعد انجاز العمل " ؟ .

وبقدر ما كانت انتقادات المنتفعين للبرنامج واقعية و مشروعة بقدر ما كانت التعليلات والحجج المقدمة من قبل مصالح التنمية الريفية معقولة ومقنعة ففيما يتعلق بالمأخذ الاول يرى مسؤولو البرنامج أن الاوراق و الوثائق وخاصة تلك التي تثبت ملكية شخص ما لقطعة أرض ما ضرورية و الا فان الاساس الذي سينبني عليه أي " مشروع " فلاحي سيكون أساسا هشا واذا اقتضى الامر تعطيلات

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

و خسائر في الشغل وغيره ، فتلك مشكلة اجتماعية عامة تتجاوز البرنامج نفسه أما المأخذ الثاني القائم على نقطتين فالرد عليه كذلك مقنع اذ ليس صحيحا أن المنتفع يعاني كثيرا من تأخر الاقساط المالية ووصول كل منها بعد انجاز مرحلة العمل الموافقة له من المشروع .هذا تعميم لا يصح الا على المرحلة الاولى أما بقية المراحل فلا ، لانه - المنتفع - ان انجز هذه المرحلة الاولى على حسابه الخاص وقبض ما يوافقها من مقابل مادي فبامكانه استغلاله للانهماك في انجاز المرحلة الثانية وهكذا دواليك...

و الحقيقة فان الدافعين الاساسيين الكامنين وراء تقسيط الاعانة هما أولا الخوف من تخلي المنتفع عن انجاز كامل مراحل " المشروع " (و أسباب هذا التخلي عديدة و أولها " مشروع " هجرة وآخرها استعمال مال الإعانة لاية غاية استهلاكية) اذا ما قدمت له الاعانة كاملة . ثانيا ان دفع المنتفع الى انجاز مرحلة العمل الاولى من حسابه الخاص هو في الواقع اختبار لمدى حسن نيته و عزمه على العمل وتعويده على تحمل المسؤولية والتعويل على موارده الخاصة و اشعاره في اخر الامر ان ما تقدمه له الدولة بعد كل مرحلة عمل ان هو الا مكافأة و ليس مقابلا لما قام به .

كل هذه الحجج الصادرة عن مصالح التنمية الريفية ، رغم متانتها ، لم تنف الصاعب التي لا زال المنتفعين يعانون منها ، ومع ذلك فان اقبال سكان الريف - وغير الريف - على الاعانات لم يتوقف وانشغالهم بها لم يفتر وهذا نلمسه من عملنا الميداني الذي أفرز لنا الجدول الموالي ملخصا مواقف وتصورات العينة من / حول " المشروع ".

1 = تصورات ومواقف السكان حول / من البرنامج

جدول عدد 8 لو فتحت ليبيا أبوابها هل يقع التخلي عن "المشروع" (1)

المكان / الاختيار	بنقردان		ميدون		سيدي مخلوف		الجملة	
	ع	ن	ع	ن	ع	ن	ع	ن
التثبت بالمشروع	21	50	24	65	9	29	54	49
يبقى البعض ويهاجر البعض	12	28,5	10	27	13	42	35	32
التخلي عن المشروع	3	7			1	3	4	3,5
لا جواب (ليس له مشروع)	6	14,5	3	8	8	26	17	15,5
الجملة	42	100	37	100	31	100	110	100

توضيحات

أولا: ان اقتراح ليبيا كبديل عن "المشروع" ليس خيارا مطلقا فالاختيار ليس بين الهجرة الى ليبيا والمشروع وانما بين هذا الاخير والهجرة مهما كانت وجهتها.

ثانيا: ان اختيار ليبيا كبديل هجرة يفسر بتناقص قيمة الهجرة في اتجاه فرنسا خاصة وأوربا عموما.

ثالثا: أثناء قيامنا بالعمل الميداني لا تزال العلاقات بين تونس وليبيا محتشمة - لبضعة أشهر على الاقل - ولكن الحديث عن عودة العلاقات وما أثاره لدى سكان الجنوب - خصوصا - من آمال هو الذي جعلنا نستغل هذا الشعور لمقارنته بشعورهم تجاه البرنامج ومدى تحمسهم له.

ملاحظات

لو تركنا جانبا مجموعة الاجوبة "التخلي عن المشروع" و مجموعة لا جواب

1) انجز العمل الميداني من بداية شهر مارس الى نهاية شهر جوان من سنة 1988 وهي الفترة التي بدأت بانفراج العلاقات بين النظامين التونسي والليبي وانتهت بفتح الحدود على مصراعيها.

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

(التي لم تحض باعانة أو توقفت مشاريعها منذ مرحلتها الاولى أو أخيرا التي فشلت " مشاريعها " تماما) والتي لا تمثل نسبها على التوالي أكثر من 3ر5 ٪ . و 15ر5 ٪ . من جملة الاجوبة الجملية ، فاننا نتحصل على نتيجة أولية وهي أن 81 ٪ . من المستجوبين ، أي أغلبهم عبروا عن رغبة في المحافظة على " المشروع " ولا ينقص من قيمة هذه النتيجة ان أقل من نصفهم تقريبا - و32 ٪ . من العينة الجملية - ربطوا تمسكهم بالمشروع باستمرار حركة الهجرة .

احصائيا ، لا تحتاج هذه الاغلبية الساحقة الى مزيد من التعليق حول تشبث المنتفعين ببرنامج التنمية الريفية ، لكن و مع ذلك فلا بد من تصنيف التعليلات التي قدمها كل الذين مالوا الى هذا الاختيار في سلم من المواقف و هذا بطبيعة الحال عمل صعب لاننا لن نستطيع - مهما حاولنا - التعرض لكل المواقف ، لذلك رأينا أن نلخصها في ستة ، أربعة لتفسير سلوك من تشبثوا تشبثا مطلقا بالمشروع (49 ٪ .) واثنان لمن كان تشبثهم مشروطا بتواصل حركة الهجرة (32 ٪ .).

أ - التشبث المطلق " بالمشروع "

/ ه / أولا : نجاح " مشروع " الهجرة

على 89 ، هناك 12 (13ر5 ٪ .) - 11 ٪ . من العينة الجملية - يتشبثون " بالمشروع " الفلاحي معللين ذلك بأن الهجرة قد أدت دورها و أصبح لهم " مشروعا " فلاحيا ناجحا باعتبار أن المنتفع أصبح يبيع انتاجه في السوق وبناء عليه لهم كل الفائدة في عدم تخليهم عنه .

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

/ ه/ ثانيا : أسباب مهنية بحتة

عدد هؤلاء 21 (5ر23 ٪) من 49 وموقفهم يحمل مفارقة اذ كيف يتشبث شخص ما بمشروع فلاحي اذا كان موظفا أو تاجرا أو حرفيا ؟ لن تتوضح المفارقة الا لاحقا . ان صاحب المخبزة أو الطاحونة أو محل بيع الموارد المنزلية يفضل الاهتمام " بمشروع " فلاحي على الهجرة الى الخارج .

/ ه/ ثالثا : أسباب ثقافية اجتماعية

هنا - 13 شخص (5ر14 ٪) - لا يقع الحديث عن "مشاريع" فلاحية أو تجارية ناجحة وانما عن الفلاحة التي " يجب الحفاظ عليها لانتاج الحاجات التي تستهلكها العائلة " و " لتدعيم الروابط العائلية فتتكرر عبارات تدل على تعلق بالارض مثل " خدمة الارض هي التي تدوم " و " ليس له مكسب في ليبيا " أو " مرتبط بالزرع والزيتون " و الحال أن هذا الزرع وذاك الزيتون لا يصلان أحيانا حتى الى تلبية الحاجات العائلية .

/ ه/ رابعا : أسباب عائلية بحتة

ان كان الموقف الاول تشبث "بالمشروع " لان تجربة الهجرة قد نجحت و انتهت مهمتها ، فاننا هنا أمام موقف معاكس في تعليلاته اذ تتالف هذه العائلات من أشخاص لم ينعموا بتجربة الهجرة وهذا - طبعا - ما يفسر قلة عددهم 4 (5ر4 ٪) بالنسبة لهم ، التشبث " بالمشروع " وعدم الاهتمام بالهجرة مرده ، غياب " الوالي " (المقصود هو السند العائلي من اخوة وأبناء وغيرهم ...) أو كبر السن والعجز .

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

ب - التشبث المشروط "بالمشروع"

تصب تعليلات هذه المجموعة تقريبا في نفس صب التعليلات السابقة مع اختلاف وهو ان الموقف في أغلب الحالات تعبير واضح عن مقارنة بين النشاطين : اقتصاديا يعتبرون " مدخول الهجرة أفضل من مدخول الفلاحة " فالنشاط الاول "كَوَّنَ كل العائلة " في حين أن النشاط الثاني " مدخوله بسيط جدا " الى درجة أن العديد من المنتفعين باعانة التنمية الريفية قد صرفوها في تحسين مسكن أو في حاجة يومية. اجتماعيا لا يتغير موقف هؤلاء من " مشروع " الفلاحة المقترح، لكن ان وقع الحفاظ عليه فلانه يجب الحفاظ على النشاط الفلاحي بصورة عامة لان ذلك هو السبيل الوحيدة لصيانة " ملك العائلة " لذا اقتضى الامر تقسيما للادوار بين أعضاء العائلة : " الهجرة نشاط الرجال " و " الفلاحة كبار السن والنسوة والذراري " .

خاتمة

الاستنتاج الذي نخرج به من استعراض هذه المواقف هو أن كل حديث قيل حول الفلاحة - " مشروع " التنمية الريفية - هو حديث - صراحة أم ضمنا - عن الهجرة سواء ساهمت أم لم تساهم في نجاحها وهذا الاستنتاج يؤدي الى طرح سؤال كبير حول علاقة هذين النشاطين ببعضهما وهذا يبقى مرهونا بدراسة مميزات هذه الهجرة .

2 = مميزات الهجرة

في الخاتمة المرسومة أعلاه ، انتهينا الى أنه كلما تحدث سكان مدنين عن الفلاحة كلما سقطوا - بوعي أو بغير وعي - في الحديث عن الهجرة وما الفرضيات الثلاث الموالية

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

الا تأكيد - واع فقط - لتلك الخاتمة .

الفرضية عدد 1

لا يوازى اقبال سكان مدنين على اعانات التنمية الريفية (81 ٪ . من العينة الجملية دون اعتبارمن أقبل عليها ولم يتحصل على شيء) الا اقبالهم على ممارسة الهجرة بل ان هذه الممارسة من العمومية بحيث انها تمكننا من الزعم بأنه كلما أزهرت الهجرة الا وازدهرت الانشطة الفلاحية وكلما ركدت الا وركدت معها .

الفرضية عدد 2

غير أن هذه العمومية التي تسم بميسمها نشاط الهجرة بكامل الولاية ليس لها دائما - حسب المعتمديات - نفس الشكل و لا نفس الاثر المحدث على بقية الانشطة فاذا كانت تجارية صرفت مواردها في مشاريع استهلاكية بحتة واذا كانت هجرة شغل استغلت رساميلها في " مشاريع " انتاجية أو ما شابهها .

الفرضية عدد 3

بغض الطرف عن شكلها - هجرة شغل أو هجرة تجارة - تؤثر الهجرة أيما تأثير في النشاط الفلاحي عموما وفلاحة التنمية الريفية خصوصا لا من حيث انها تمده بالرسمال الضروري - فهذا ثانوي - ولكن من حيث أنها تسدل عليه نفس الغطاء العائلي الذي انسدل عليها .

أ = عمومية الهجرة

تتجلى عمومية هذه الظاهرة على مستويين اثنين : العائلة و المجتمع أما على

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

المستوى الاول، فلا نكاد نجد عائلة واحدة ليس فيها عضو - ان لم نقل أكثر - يهاجر الى الخارج فعلى 110 عائلة أحصينا 141 عضوا مارسوا - قديما - الهجرة أو هم يمارسونها حاليا وهو ما يقدم لنا معدلا بواحد على كل عائلة على الاقل و الواقع فان هذا المعدل دون المعدل الفعلي لان العديد من المستجوبين نفوا أن يكونوا قد هاجروا أو انهم يهاجرون لاسباب أمنية أو لانهم لا يعتبرون هجرتهم لبضعة أيام - أوحتى ساعات للتزود بالبنزين الليبي الزهيد - هجرة بالمعنى الصحيح .

جدول عدد 9 عدد الناشطين الذين عملوا أو يعملون بالخارج

معتمدية المهاجر / تاريخ الهجرة ووجهتها	بنقردان		ميدون		سيدي مخلوف		الجملة	
	ع	ن	ع	ن	ع	ن	ع	ن
يعمل حاليا بليبيا	9	13			1	4	10	7
يعمل حاليا بفرنسا	5	7,5	22	45	2	8,5	29	20,5
عمل من قبل بليبيا أو ببعض الاقطار العربية	47	69	9	18,5	21	87,5	77	54,5
عمل من قبل بفرنسا أو ببعض الاقطار الاوربية	7	10,5	18	36,5			25	18
الجملة	68	100	49	100	24	100	141	100

تأتي معتمدية بنقردان في صدارة المعتمديات الاخرى من حيث نسبة المهاجرين فيها اذ أظهر البحث الميداني 1,6 مهاجرا في كل عائلة مقابل 1,3 في

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

ميدون و 7ر0 فقط في سيدي مخلوف ولو كنا نبحث عن تأكيد عمومية الهجرة في كامل الولاية لكانت هذه الارقام كافية لاثبات " وظيفية " الهجرة للانشطة الفلاحية - برغم الاختلافات- لكننا على خطى ليفي ستراوس نتشبث بالاختلاف والتنوع مهما كانت نسبيته حتى ندرك أكثر الاسباب الكامنة وراء " وظيفيتها المطلقة أو النسبية أو حتى "لا وظيفيتها ".

ان التفسير الشائع حول الجهات الحدودية ، يمكن أن يقدم لفهم صدارة بنقردان في هذا المجال، فهي تتفق في ذلك مع جهات أخرى كالجنوب الغربي و الشمال الغربي وحتى مع مناطق اخرى من بلدان أخرى مصنعة أو غير مصنعة مما يعطي هذا التفسير صبغة كونية لكنه يبقى عديم الجدوى لتعقل حركة الهجرة بالمعتمديات اللاحدودية من ناحية ومدى تأثير حدودية الهجرة أوّلاً حدوديتها فمي انجاح أو افشال برنامج التنمية الريفية من ناحية أخرى .

ان هذا التفسير يبقى عاجزا أمام التساؤلات التالية :

أ و لا : اذا كان ازدهار نشاط الهجرة مرتبطا بحدودية المنطقة التي تمارسه فكيف نفهم ازدهاره و ركوده في منطقتين كميدون وسيدى مخلوف والحال ان الاثنين لا حدوديتان؟

ثانيا: لماذا، أخذت هجرتيهما قديما وجهتين مختلفتين تماما ،الاولى بالاساس نحو فرنسا والثانية كليا باتجاه ليبيا ؟

ثالثا: كيف نفسر نزول مستوى الهجرة حاليا في سيدي مخلوف الى نسبة 4 ./ . فقط بعد أن كانت قديما تفوق حتى مثيلتها في بنقردان (5ر87./ . مقابل 69 ./ .)؟

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

رابعـــا : هل من المعقول أن تهبط نسبة هجرة سكان بنقردان نحو ليبيـــا من 69 ٪ . قديما الى مستوى 13 ٪ . فقط ، اذا كان اقتصاد هذه المعتمدية يقوم حاليا على التنقل بين ليبيا و تونس ؟

لا حاجة لنا من التذكير بأن فرنسا احتاجت الى قوة عمل المستعمرات انطلاقا من فترة ما بين الحربين ولقد عرفت البلاد التونسية - كغيرها من المستعمرات الفرنسية - نزيفا لهذه القوة منذ ذلك الحين الا أننا نستثني بن قردان وسيدي مخلوف من هذه الهجرة لسببين أساسيين:

أ و لا : ان السلطة الاستعمارية - برغم التغييرات التي أدخلتها - لم تقض نهائيا على أساليب الانتاج والحياة الاجتماعية الاصلية اذ ظل الترحال مورد الرزق الاساسي لاغلب سكان المنطقتين .

ثانيـــا : لو كان سكان بنقردان وسيدي مخلوف قد ساهموا في تلك الهجرة فعلا لتزامنت معها انجازات معمارية من النوع الذي عرفته المنطقة في الستينات والسبعينات لكن شيئا لم يكن من ذلك .

ومقابل ذلك ، ساهم سكان ميدون في تلك الهجرة نظرا لتأقلمهم مع نمط هجرة الشغل " الفرنسية " و تلبيتهم لمطلب المهارة - ولو نسبيا - بحكم انتماءهم الى مركز حضري - جربة - سياحي تتوفر فيه حظوظ التعليم والتكوين المهني خاصة ابتداء من الستينات ولعل هذه الخصلة التي ميزت سكان ميدون هي التي جعلتهم يساهمون حتى في الهجرة التي استقطبت جمعا كبيرا من طالبي الشغل من معتمديتي بنقردان وسيدي مخلوف .

لكن هذا الاستقطاب سرعان ما تلاشى بسبب الاقبال المتزايد لليد العاملة العربية و الافريقية وحتى الاسيوية على ليبيا والازمات الحادة التي كانت تقوم من حين لاخر بين نظام هذا البلد والنظام التونسي وهنا ما فرض اما الاعراض عن الهجرة

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

- وهذا ما فعله سكان سيدي مخلوف فنزلت نسبة هجرتهم الى ليبيا من 87,5 ٪ الى 8,5 ٪ حاليا - وأما التكيف مع الوضع الجديد وهذا ما فعله سكان بنقردان الذين لم يعودوا يولون اهتماما كبيرا باطالة الاقامة هناك وتجشم البحث عن شغل ، وأصبحت غايتهم الاولى هي القيام بصفقات تجارية خاطفة وبأكثر ربح وفي هذه النقطة بالذات يلعب الموقع الجغرافي الحدودي دوره ويرجح كفة بنقردان على سيدي مخلوف. هذا طبعا لا يعني انه الشرط الوحيد الكافي ، فممارسة التجارة تتطلب دراية واطلاعا على الانماط الاستهلاكية المدينية ولهذا كانت " أسواق ليبيا " الموجودة بجربة ومدنين وخاصة صفاقس في مستوى أو حتى فوق مستوى السوق الموجودة في بنقردان .

لكن اذا كانت هجرة التجارة بمثل هذه الاهمية فلماذا أجاب جل سكان بنقردان بأنهم لا يمارسون حاليا الهجرة الى ليبيا ويعزز هذا الجواب النسبة الاحصائية التي كانت ب 13 ٪ مقابل 69 ٪ قديما ؟ ان نسبة كبيرة من الاستجوابات قمنا بها أثناء فترة بداية الانفراج بين النظامين بحيث كانت التجارة منحصرة في النشاط السري - " الكنترة " - ولم تعمم الا لاحقا كما أن الروتينية التي أصبحت تتم بها الجولات داخل ليبيا حاليا تبسطت وتسهلت اجراءاتها الى حد أن الرحلة في غالب الاحيان لا تتجاوز يوما أو اثنين وفي بعض الاحيان بعض الساعات .

ان استجابة معتمديتي ميدون وبنقردان - أكثر من معتمدية سيدي مخلوف - لمطلبي الكفاءة في الشغل والكفاءة في التجارة هو الذي مكن من توفير فائض مالي وظف - فيما وظف - في تنمية العمل الفلاحي ، فسجلنا عددا من المشاريع الناجحة التي أصبح أصحابها يبيعون انتاجهم في السوق ونسبتها على التوالي 35,5 ٪ و 35٪ في كل من بنقردان وميدون في حين لم نسجل أكثر من 16 ٪ في سيدي مخلوف وهذا السبب عينه هو الذي يفسر لنا لماذا كانت نسبة من ليس لهم

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

مشاريع أرفع في سيدي مخلوف (26 ٪) من ميدون (8 ٪) وبنقردان 5ر14 ٪) .

و مع ذلك فهل توجد استثنائية الوضع في سيدي مخلوف الى تماثل وضعيتي بنقردان وميدون ؟

ب : أشكال الهجرة

جدول عدد 10 ماهي الفوائد التي جنتها العائلة من الهجرة

(حسب المعتمديات)

المكان	بنقردان		ميدون		سيدي مخلوف		الجملة	
	ع	ن	ع	ن	ع	ن	ع	ن
بناء مسكن أو مساكن للعائلة	29	36	18	25	11	38	58	32
زواج المعني بالامر أو أحد ابناءه	16	20	10	14	7	24	33	18
تعليم الابناء ومصاريف يومية	15	18ر5	8	11	3	10ر5	26	14ر5
تكوين رأس مال للفلاحة	9	11	10	14	4	13ر5	23	12ر5
تكوين مشروع اخر تجاري أو غيره			10	14	2	7	12	6ر5
تجهيز مسكن (تلفزة راديو)	9	11	3	4			12	6ر5
شراء سيارة	3	3ر5	4	5ر5	2	7	9	5
شراء ملك			9	12ر5			9	5
الجملة	81	٪100	72	٪100	29	٪100	182	٪100

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

تصرف العائلات في ولاية مدنين ثلث مداخيل الهجرة (32 ٪) في السكن والثلث الثاني في الزواج والتعليم (18 ٪ + 14ر5 ٪) أما القسط المخصص لتكوين رأس مال للفلاحة فلم يصل حتى الى نصف الثلث الاخير (12ر5 ٪) و يمكن أن نؤكد بأن هذه الاختيارات لا تخص معتمدية دون أخرى اذ توضح لنا النسب حسب المعتمديات أن مصاريف السكن على سبيل المثال استحوذت على 36 ٪ في بنقردان و 25 ٪ في ميدون و 38 ٪ في سيدي مخلوف و الزواج بالتالي على 20 ٪ و 14 ٪ و 24 ٪ وحتى حصة "الرأسمال" المعتمد للفلاحة لم يعرف تفاوتا كبيرا (11 ٪ و 14 ٪ و 13ر5 ٪) بين هذه المعتمدية أو تلك.

يمكن لهذه الملاحظات أن تنسف - من البداية - العلاقة التي أقمناها - و التي نطمح الى اثباتها - في الفرضية عدد 2 بين قيمة الهجرة وقيمة الفوائد التي تجني منها لكن قراءة الجدول من زاوية أخرى يمكن أن توضح أشياء جديدة. ان العدد الجملي للعينة المستجوبة يساوي 110 عائلة في حين أن الاجوبة المتحصل عليها تساوي 182 معنى هذا أن عددا كبيرا من العائلات أعطت أكثر من جواب و بالتالي تحصلت على أكثر من فائدة من أموال الهجرة والجدة تكمن في معرفة مكان هذه العائلات.

اذا كانت بنقردان الممثلة بـ 42 عائلة قد أعطت 81 جوابا وميدون الممثلة بـ 37 عائلة قدمت 72 جوابا وأخيرا سيدي مخلوف الممثلة بـ 31 عائلة أفادت بـ 29 جوابا، فاننا نخرج بمعدلات أجوبة - فوائد - تقارب على التوالي 1ر9 و 1ر9 و 0ر9 و هذا معناه، انا كانت العائلة الواحدة في كل من بنقردان و ميدون قد غنمت فائدتين من الهجرة فان سيدي مخلوف لم تغنم الا واحدة. اكثر من ذلك، هذا الفارق صائر الى مزيد من الاتساع اذا ذكرنا بنتائج الجدول الاخير و الذي بين أن الهجرة في هذه المعتمدية الاخيرة لم تعد تمارس حاليا الا بنسبة 12ر5 ٪.

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

و بناء عليه ، نخص الان الطرف عن سيدي مخلوف، و نوجه اهتمامنا نحو بنقردان و ميدون و بالذات نحو المصاريف المعتمدة مباشرة في المواطن الانتاجية . تبدى نتائج الجدول انتصارا لصالح ميدون . اذا كان تفوقها في مجال تكوين رأس المال الفلاحي (14 ٪ . مقابل 11 ٪ .) محتشما فيمكن تدعيمه برأس المال الموظف لشراء الاملاك (12,5 ٪ . مقابل لا شيء) أو بالرأسمال المخصص للمشاريع التجارية أو غير التجارية (14 ٪ . مقابل لا شيء) و في هذين الحالتين يكون التفوق مطلقا، فهل يرد هذا التفاوت الى طبيعة كل من هجرتي ميدون - هجرة شغل نحو فرنسا - وبنقردان - هجرة تجارة نحو ليبيا - واذا كان الامر كذلك ، فان "وظيفة" تلك ستكون أرفع من "وظيفة"؛ هذه بالنسبة لبرنامج التنمية الريفية .

- هجرة التجارة

قد يبدو الجدول الذي سنعرضه الان وكنا تحصلنا عليه من دراسة 1984 لاول وهلة غريبا عن القضية التي نحن بصددها - هجرة التجارة - ولكنه ، مثلما سنرى أشد ما يكون التصاقا بها .

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

ما الذي ينقص المنطقة حسب رأيك

الاجـــوبـــــــــة	العدد	النسبـــة
1) المشاريع الاقتصادية التي تخلق مواطن الشغل (22/. صناعية - 9 /. مشاريع فلاحية)	100	45,8
2) تجهيزات وخدمات اجتماعية متنوعة (كهرباء - ماء صالح للشراب - طرقات نظافة شوارع)	48	22
3) وسائل ترفيه وتثقيف متنوعة (سينما - مسرح)	39	17,8
4) التخطيط المحكم لعمران المدينة بسبب تقصيـــر الاطارات و المسوءولين	16	7,3
5) لا جواب : لا يهتم بـ"مشاكل الغيـــر"	09	4,12
6) تخلف عقلية أبناء المنطقة وكسلهم	06	2,7
المجمـــــــوع	218	100/.

ملاحظـــات أوليـــة

= على عينة بـ170 عائلة، تحصلنا على 218 اجابة وهذا يعني أن العائلة الواحـــدة تقدم أحيانا جوابا ثانيا أو حتى ثالثا اضافة الى الاول .

= هناك 100 اجابة تطالب بمشاريع اقتصادية متنوعة ونسبتها 45,8/. .

= لنا أيضا 103 اجابة تضم المجموعتين الثانية والثالثة وتطالب في جملتها بمجموعـة من الخدمات الاجتماعية (كهرباء - ماء صالح للشراب نظافة . .) أو الثقافـة (دور

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

سينما - و مسرح) أو تنظيمية (طرقات ، تخطيط عمران المدينة) ونسبة هذه المجموعة الكبيرة الثانية تساوي 2ر47/. .

= أما المجموعتان الصغيرتان الخامسة والسادسة ، فاننا نغض عنها الطرف و نحصر بحثنا في المجموعتين سالفتي الذكر.

تساؤلات

أ و لا : تطلب المجموعة الاولى - من الدولة طبعا - وتلح في طلبها لمواطن الشغل التي تمكن من الاستقرار، وحين نحاول الدخول في تفاصيل حول نوعية مواطن الشغل المطلوبة نكتشف ان 22 منها (22/.) فحسب صناعية و 9 (9/.) فقط فلاحية، أما البقية فهي أما تجارية (لا ندري كيف تخلق الدولة مواطن شغل في التجارة) وعددها 12 (12/.) و أما غير محددة وهنا يبدو جليا ضبابية موطن الشغل في ذهنية سكان بنقردان ومادام عدد مواطن الشغل اللا صناعية واللا فلاحية المطلوبة يساوي 69 (69/.) فانه يجوز لنا القول بانها النسبة المهيمنة .

ثانيا : بلغت أصوات المجموعة الثانية المطالبة بجملة من الخدمات الاجتماعية 103 صوتا - أي 3 أصوات فقط فارق على المجموعة الاولى -

استنتاجات

ان هذا التساوى في عدد الاصوات لدى المجموعتين والذي يكاد يكون حسابيا يثير مفارقة لا بد من فك التباسها ، فالطموح الى التمتع بالخدمات الاجتماعية الحديثة يفترض مسبقا أن تكون الضرورات الحياتية الاولية الاخرى قد تحققت - ان ليس كليا - فعلى الاقل بنسبة تخول لهم بعد المطالبة بالخدمات الاجتماعية .

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

الا أن الواقع يبين أن الانجازات التنموية في مجال التشغيل تبقى محدودة جدا وحتى التضخم المرضي للقطاع الثالث لا يغرينا كثيرا ذلك أن الناشطين في صلبه أغلبهم من ذوي الدخل المحدود الذي لا يسمح بنمط حياتي يضاهي الموجود بالمدن الكبرى .

فلنبدأ بطرف المفارقة الاول ، والذي أسميناه بالضرورات الحياتية الاولية - أي الشغل - ان نسبة 69 ٪ . من الذين طالبوا بمواطن شغل لم توضح طبيعة الشغل المراد فهذه المجموعة القبلية التي تخلت عن استقلاليتها واصبحت تنتمي الى الدولة الجديدة وتدين لها بجملة من الواجبات ترى أن من حقها - مقابل هذا التنازل - ان تنال شيئا ما من هذه الدولة . ماهو هذا الشيء ؟ قبل الاجابة لا بد من استعراض النقاط الاتية :

= ان الشغل المنتج خارج القطاع الثالث - لم يعرفه التوازين (1) لا في العهد الفرنسي ولا مع الدولة الجديدة الا في شكل حلم يصور في وسائل الاعلام المسموعة و المرئية .

= كما أن الشغل الذي عرفوه من خلال الهجرة - القديمة - الى كل من ليبيا وفرنسا لا يمكن أن تحققه لهم الدولة التونسية - والا ما كانوا قد هاجروا - لا من حيث " الكرسار " و لا من حيث قيمة الدخل المالي .

= ان الهجرة - هجرة التجارة - أصبحت تقليدا في بنقردان ولما كان شغل الاجارة فلاحيا كان أم صناعيا يتميز بأوقات وعدد ساعات وأجور مضبوطة ضبطا شديدا ، فانه يجد نفسه في تناقض مع طبيعة الهجرة التي تقتضي شيئا من الحرية الفردية ، وليس صدفة أن 12 من جملة الـ 69 ألمحوا الى الشغل التجاري و هم بطبيعة الحال لم يقصدوا الشغل التجاري لذاته و انما لاتصاله بالهجرة التي توفر له رأس المال و البضاعة و لان الشغل التجاري يوفر تلك الحرية التي سبق

---

1) التوازين : هي التسمية القبلية لسكان بنقردان .

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

الحديث عنها وهذا بطبيعة الحال لا ينسحب على فئة التجار فحسب بل على كل فئات القطاع الثالث خاصة لما لهم من فرص للحصول على اجازات وعطل تجعلهم على اتصال مستمر بهذا التقليد الراسخ : الهجرة .

أما الذين تحدثوا بوعي عن مواطن شغل صناعية و فلاحية فان نسبتهم تعادل 31 ./. .

= ان عددهم قليل و لا يمثلون الا رأي 26 شخصا (باعتبار أن هناك من أعطى صوتين : واحد للعمل الفلاحي والثاني للعمل الصناعي) ولذلك فان نسبة الثلث لا تعكس الرأي المهيمن .

= من جملة هؤلاء الـ 26 (31صوت) ، نلاحظ وجود 11 يعملون في القطاع الثالث ولهم مواطن شغل قارة وذات دخل محترم (5 تاجر - 2 معلم - 2 سائق 1 حاجب بشركة - 1 طباخ بالمعهد) اذن نلاحظ أن نسبة أقل بقليل من النصف ممن اقترحوا مواطن شغل في مجالي الصناعة و الفلاحة هم اناس ينتمون الى الطبقات الوسطى وأبعد من غيرهم عن ممارسة هذه الاشغال التي يقترحونها .

= الاشخاص الـ 10 اللاحقون هم عمال قارون أو غير قارين في بنقردان أو بالخارج ، يمارسون جميعا " الكنترة " (1) بين بنقردان وليبيا منهم 4 يمارسون اضافة الى ذلك نشاطا فلاحيا خاصا في بنقردان و لا نعتقد أنه من قبيل المنطق أن يقترحوا لانفسهم عملا صناعيا أو فلاحيا بثماني ساعات يوميا وبأجر أدنى تضبطه الحكومة التونسية ، بل نتأكد من أن مناداتهم الواعية لتوفير مواطن شغل من ذلك النوع موجه لغيرهم وليس لهم .

= لم يبق اذن الا خمسة أشخاص ليسوا من نشيطي القطاع الثالث أو "الكنترة" - ما عدا واحدا - طالبوا بمواطن شغل فلاحية وصناعية وهم واعون بأن ذلك قابل

---

1) " الكنترة " أصل الكلمة (Contre Bande) وتعني ادخال - أو اخراج - بضاعة ممنوعة من البيع أو من غير تقديم الاداءات الجمركية وذلك بالتسرب عبر مسالك خفية .

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

للانسحاب عليهم اذ منهم الفني في الكهرباء و العامل بشركة و البناء الا أن عددا بخصة ضمن مجموعة بخمسة وعشرين لا يعني شيئا كبيرا أو نسبة موءثرة .

خـــاتمـــــــة

ان كل ما قمنا به هو اظهار الخلل الموجود في الطرف الاول من المفارقة و هو قلة طلبات مواطن الشغل في منطقة تشكو الفقر الفلاحي و الصناعي مقابـــل أهمية الطلبات المتعلقة بالخدمات الاجتماعية. ان الخلل يكمن في أن ما نسميـــه عادة الشغل المنتج (الفلاحي أو الصناعي) ليس هو الشغل الذي يطالب به سكـــان بنقردان و حتى ان ورد على لسان 31 ٪ . منهم .

ان المسألة قد تعقدت أكثر فأكثر و يمكن لنا أن نوءكد أن الدولـــة لو استطاعت أن تحقق الشغل "الكريم" (فلاحي أو صناعي) لكل سكان بنقـــردان فلا نعتقد أنها ستجد تجاوبا كبيرا لانها قبل أن تفعل ذلك كانت قد غرست فيهـــم شيئا آخر اسمه " أدلوجة الاستهلاك" وهو الطرف الثاني في هذه المفارقة التـــي نحن بصددها . ان هذه الادلوجة هي التي جعلت الطلبات الاجتماعية تسبـــــق - بل و تمحي - الطلبات المتصلة بالشغل نفسه .

و لا نريد هنا أن نفرض التدرج الاوربي القديم (الذي تبنته الدولـــة الجديدة أيضا و تلك مفارقة أخرى) القائم على : ضرورات أولية - ضرورات ثانيـــة . فتجربة أوربا الصناعية لا ولن تتكرر مع "البلدان النامية". وهذه مسلمة قد فـــرغ علماء الاجتماع و الاقتصاد من البرهنة على بداهتها . ومع ذلك فلا نعتقد أن المطالب الثانية يمكن أن تقوم على مجرد خواء أدلوجي بحت، اذ لا بد لها من حد مـــادي أدنى يمكن من تحقيقها . ولهذا السبب كانت الهجرة - خاصة الى ليبيا - المخـــرج الوحيد الذي به حل هذا التناقض بين ضرورات نمط الحياة الجديد (و خدماتـــه

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

الاجتماعية المتنوعة) من جهة وحدود الاستجابة له من جهة ثانيـــة .

⊖ هجـــــرة الشغـــــل

يبدي مثال ميدون اختلافات عن بنقردان من حيث توظيف موارد الهجرة فـــي مواطن لم يقبل عليها سكان هذه الاخيرة بالمرة مثلما تبرزه نتائج الجـــدول عدد 10 و التي أكدت على العكس من ذلك نسبتين بـ14 ٪ و 5ر12 ٪ من جملـــــة موارد الهجرة خصصت في ميدون لتكوين مشاريع تجارية و غير تجارية ولشـــــــراء أملاك و أراضي .

هل يجـوز ربط هذا التوجه الاستهلاكي لدى قرابة ربع عينة ميـــــــدون (14٪ + 5ر12٪) بطبيعة الهجرة نحو فرنسا : فقد تكون هجرة الشغـــــل أثرت في ذهنية المهاجرين ذوي الاصل الريفي . فيتحول تصورهم للعمل من مجـــرد نشاط ينجز لتلبية حاجات العائلة يزيد أو ينقص أهمية حسب تقلبات العناصـــــر الطبيعية أو ارتفاع أو تدني أملاك العائلة الى شغل يومي يؤدي كدور اجتماعـــي يتحصل بموجبه على دخل مادي قار تلبى به حاجات اجتماعية هي الاخرى قـــارة (تعليم ـ مصاريف سكن ـ مصاريف ترفيه ...) و بالتالي يكف المرء عن ممارســـة نشاطه كالتزام عائلي فحسب ليصبح التزاما اجتماعيا ؟

ان هذا التوجه وان يكن "لا استهلاكيا" فانه على أية حال لا يمكـن أن يكون " انتاجيا " فتأسيس المشاريع التجارية و شراء الاراضي الفلاحية من قبـــل مهاجري ميدون أبعد ما تكون عن " روح المقاول الشومبتيري " المغامرة و أقـــــرب ما تكون الى " روح المهاجر الذي أرهقته الغربة " فراح يبحث عن " مشـــروع " يكون بمثابة التقاعد المبكر. وهذا ما توفر له بفضل الموقع الجغرافي القريب مـــن مدينة جربة السياحية فراح يتاجر في بعض المواد المدينية الاستهلاكية والاراضي

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

الصالحة للبناء و المعمار. وهكذا بينما كان "المهاجر البنقرداني "يذهب ويـــؤوب يوميا الى / من ليبيا لجلب البضاعة يستريح " المهاجر الميدوني " على عتبة محلـه ليلبي طلبات السياح الرائحين والغادين حوله .

خـاتمـــــة

بينـا اذن أن الهجرة كاحدى الوظائف الاساسية في العائلة لا تؤدي الـى تثبيت قيم انتاج بقدرما تدعم قيم استهلاك. وتستوي في ذلك هجرة التجارة وهجـرة الشغل. لكننا نصطدم باعتراض : هل الفلاحة ـ وفلاحة التنمية الريفية على وجـه الخصوص ـ نشاط استهلاكي؟ وتبعا لذلك لا عقلاني ؟ اننا لا نريد اثبات لا عقلانية هنا النشاط من حيث أنه استهلاكي و انما من حيث أنه عائلي وهنا نصل الـــى الفرضية الثالثـة

ج ـ عائليـــة الهجـــرة

لا نقصد فقط بعائلية الهجرة وجود نسبة هامة من أعضائها يمارسون هـــذا النشاط بل أيضا و بالاساس كون هذا الاخير أصبح دورا من الادوار يؤدى في نطاق نمط من أنماط تقسيم العمل داخل هذه المؤسسة . وهذا لا يعني ادعاء بـــأن كل أعضاء العائلة يتماثلون تماما يستوي فيهم أصحاب الاعمال القارة ـ موظفون بالاساس ـ بأصحاب الاعمال غير القارة أو بالعاطلين . فانتماء كل منهم الى جماعة انتماء مهنية أو غير مهنية لا يمر دون أن يؤثر في علاقة كل منهم بعائلته و بمختلف أعضائهـــا ، لكن ما نريد ابرازه هو أن ضعف البنية الاقتصادية العصرية هنا ـ مجال بحثنـا ـ يجعلها لا تحتاج الا لبعض أصناف من الموظفين ، فأصحاب الشهائد العليـــا و المهارات الفنية تجذبهم ـ وينجذبوا الى ـ المدن الكبرى . ما تحتاجه ولايـــة

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

كمدنيين لا يتعدى حدود الوظيف المتوسط أو البسيط من ذوي الدخل المتواضع الذي و ان كان يوفر أجرا شهريا قارا فانه يبقى دون ما يقتضيه نمط الحياة الجديد . و لهذا السبب فان الهجرة لن تنسحب على صنف مهني أو غير مهني دون آخر بمن فيهم الموظفون ، أكثر من ذلك فانها ستفرض تقسيما للادوار داخل كل عائلة حسب جماعة انتماء كل من أعضائها .

كنا وضحنا في مكان سابق ، هيمنة الطابع الاستهلاكي للهجرة بنوعيها على الطابع الانتاجي . وهذا يعني أن المهاجر لا يرمي في أغلب الاحيان الى تركيم ثروته لبناء مشروع انتاجي و انما الى صرف ما غنمه في بعض " الصفقات " الصغيرة لبعض أدوات الاستهلاك أو العقارات (أراضي) التي تستفيد منها العائلة أو التي تباع محققة ربحا سريعا ، غير أن بعد المسافات - خاصة بالنسبة لمهاجري فرنسا - وتعقد هذا النشاط نفسه حتم على العائلة نفسها تكيفا جديدا تمثل في اختصاصات تلخصها في مهاجر مقيم و مهاجر وسيط و مهاجر على عين المكان .

/ = / المهاجر المقيم : هو الذي يقيم بشكل متواصل في البلد المقصود فتتكون له بطول المقام هناك و بحكم ضغوطات العمل الرأسمالي - المقصود هنا حالة فرنسا - خبرة بما يعرض هناك من انتاج استهلاكي جديد يمكن أن يباع في السوق التونسية . و لكن هل تتمتع هجرة بنقردان بمثل هذا الاختصاص ؟ لا ونعم . لا اذا ذكرنا بأن هجرة الشغل - طويلة المدى - نحو ليبيا قد انتهى أمرها منذ بداية السبعينات و لم يبق منها شيء كبير . نعم اذا قلنا ان بنقردان - كغيرها من مدن الجنوب التونسي - خلقت " البديل الوظيفي " لهذا الصنف من المهاجرين سواء بما بقي من علاقات دم قبلية قديمة أو علاقات مصاهرة حديثة العهد لم تقطعها حتى أيام العداء بين نظامي البلدين . ان شراء غاز أو ثلاجة أو جهاز تلفزة بربح سعره في السوق

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

التونسية ليس سهلا بل هو ممنوع على غير الليبيين ، ولذا أصبح الليبي في غالب الحالات ممثل صنف "المهاجر المقيم" بالنسبة لسكان الجنوب وبالاخص لسكان بنقردان.

/ =/ المهاجر الوسيط : في ميدون ، يلعب هذا الدور أحد الاخوة أو الاب أو أحد الابناء. وهوءلاء عادة ممن يتمتعون بعمل قار يوفر في الان نفسه فرصة الاسترخاص للتغيب والراتب المنتظم وهي من جملة الامتيازات التي تسهل قضاء العطل خارج الحدود للاتصال بالمهاجرين المقيمين وجلب البضاعة التي كدست و الاموال التي اكتنزت. ان هذا الصنف من المهاجرين ينسحب أيضا على بنقردان ولكن بدرجة أكثر أهمية نظرا لان وساطتهم ليست سنوية أو حتى شهرية بل انها تكاد تكون يومية .

/ =/ المهاجر على عين المكان : هذا الدور ينقسم بدوره الى دورين احدهما مباشر و الاخر غير مباشر. الاول يتمثل في تسويق البضاعة فيما يسمى "بسوق ليبيا". و يشرف على هذا العمل عادة شبان أو شيوخ أو حتى أطفال مثلما يقع الان في بنقردان أين يجند عدد كبير من تلاميذ المدارس و المعاهد بمحل البيع أو على قارعة الطريق الموءدية الى ليبيا بغاية ابدال العملة ، أما الدور الثاني فيتلخص في عمليتي السهر على تنشئة أبناء كل العائلة وصرف موارد الهجرة في لوازمها اليومية والاستثنائية كالبناء وتهيئة مقتضيات زفاف أحد أعضاء العائلة ، وهنا لا فائدة من البحث عمن يوءدي هذا الدور فهو مسوءولية من لم يكن من الصنف الاول أو الثاني من المهاجرين بشرط أن تتوفر فيه الخصال المطلوبة .

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

خاتمـــة عـامـــة :

حين يفشل برنامج التنمية الريفية في احلال الاسرة (خلية المجتمع العصـــري) محل العائلة (خلية المجتمع التقليدي) وتنجح هذه الاخيرة في التحكم في كل الانشطـة الاستهلاكية والانتاجية بالريف التونسي فلا يسعنا الا أن نتساءل : أين تلـــــك العقلنة التي كنا رسمنا نموذجها المثالي في الجزء الاول من هذه " التنميـــــة اللاعقلانية " التي يبرزها هذا الجزء الثاني من العمل و التي تتناقض فيها الاهداف المرسومة مع ما يحدث من نتائج ؟

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

الجزء الثالث

اللاعقلانية التنموية

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

I الانـــدمـــاج

- بـرنامـج التنميـة الريفيـــة المندمجـــة

"

وبعـــــد ،

فان برنامج التنمية الريفية المحدث بمقتضى الامر عدد 310 لسنـــة 1973، قـد تقـرر تطويره ببرنامج التنمية الريفية المندمجة الذي شرع فيه ابتداء من السنة الحالية .

و يهدف هذا البرنامج الجديد الى :

- النهوض بالمناطق الاقل حضوة وذلك بـ. . .
- خلق موارد الرزق ومواطن الشغل الى جانب . . .
- دعم البنية الاساسية و
- تحسين ظروف العيش بهذه المناطق التي تم اعداد مجموعة من المشاريع المندمجـــة لفائدتها .

"

من منشور السيد الوزيـــــــر الاول

عدد 8/ د - المؤرخ في 23 ماي 1984 (1)

حين نقارن هذا النص المؤسس لهذا البرنامج الجديد بالنص الذي أسس للبرنامج القديم - أي برنامج التنمية الريفية - الذي كنا تحدثنا عنه في الجزء الاول من عملنـــا و المقصود هنا تطويره ، يحق لنا أن نتساءل : أين يكمن التطوير؟ فالهواجس التـــي تحرك هذا : النهوض بالمناطق الريفية و تحقيق التوازن الجهوي من خلال خلق مـــوارد الرزق وتحسين ظروف العيش ، هي نفسها التي كانت حركت الاخر منذ بدايـــة عشرية السبعينـــات .

"كما أن طرق تنفيذ هذا البرنامج (المقصود هو البرنامج الجديد) تعتبر امتـدادا

---

1) الجمهورية التونسية - وزارة التخطيط - المندوبية العامة للتنمية الجهويـــــة برنامج التنمية الريفية المندمجة (1985 - 1989) . جوان 1985 . ص 1 .

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

للطرق التي تمكن برنامج التنمية الريفية العادي من وضعها والتي أمكن بفضلها ارساء تقاليد و أساليب أظهرت نجاعتها في ميدان الانجاز على المستوى الجهوي" (1).

و في نفس التقرير المؤسس للبرنامج الجديد نجد هذا التناقض أيضا : فمن جهة يرى أن البرنامج القديم قد "حقق انجازات كبيرة تأكدت بوضوح من خلال نتائج التعداد العام للسكان لسنة 1984 اذ لوحظ مثلا أن نسبة التزويد بالماء الصالح للشراب قد ارتفعت بين سنتي 1975 و 1984 من 16 الى 33 في المائة بالولايات الداخلية كما ارتفعت نسبة التنوير في نفس الفترة وبنفس الولايات من 18 الى 50 في المائة فيما تقلصت نسبة الاكواخ في هذه الجهات من 42 الى 9 في المائة فقط خلال نفس الفترة". (2)

و من جهة أخرى يعيب على برنامج التنمية الريفية أنه "ركز تدخلاته على تحسين ظروف العيش وعلى البنية الاساسية أكثر من اهتمامه بالانتاج والتشغيل... بدا وكأنه يبتعد عن المسار الذي ضبط له عند بعثه وقد تبين من خلال النتائج الاولية لدراسة تقييم هذا البرنامج أنه من الضروري تدعيمه واعادة توجيهه حتى يصبح بحق برنامجا تنمويا يهدف للنهوض بمتساكني الريف من حيث الانتاج والدخل ومن حيث تحسين ظروف ومستوى العيش في آن واحد." (3)

صحيح أن احدى أشد الانتقادات التي وجهت للبرنامج القديم هي اطنابه في تمويل الانشطة غير الانتاجية (البنية الاساسية) اذ قاربت الاعتمادات المخصصة

---

1) المندوبية العامة للتنمية الجهوية - وزارة التخطيط .
دراسة الجدوى لبرنامج التنمية الريفية المندمجة 1984 - 1986
- التقرير العام - ديسمبر 1984 - ص 6 -

2) نفس المصدر - ص 1 -

3) نفس المصدر - ص 1 و 2 -

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

لها النصف (50/4 في المائة). لكن واذا غضضنا الطرف عن الاعتبارات السياسية و الدعائية الاستعراضية التي قد تكون دعت الى ذلك الاطناب ، فيمكن القول أن الامر معقول. وهذا لا لاننا نريد أن نساند المنطق الداخلي لفلسفة البرنامج القديم و انما لاننا نريد أن نبين أن ذلك المنطق هو ذاته الذي يتحكم في فلسفة البرنامج الجديد والادلة على ذلك عديدة أولها أن ما رصده هذا الاخير من اعتمادات لمثل تلك الانشطة قريبة من ثلث اعتماداته (30 في المائة) و ثانيها أنها علاوة على أهميتها ماكانت لتتنزل من النصف الى الثلث لو لم يكن البرنامج القديم قد تكفل بأعباء ثقيلة ذات طابع تقني واداري بالخصوص ، فأفاد منها البرنامج الجديد بخير كلفة وثالثها ، ومثلما سنرى لاحقا ، أن جزء كبيرا من الاموال المستثمرة في برنامج التنمية الريفية المندمجة ذات أصل خارجي وليس بعيدا أن يكون أصحاب هذه الاموال قد لعبوا دورا في انحسار حصة الانشطة غير الانتاجية من الاعتمادات الى مستوى الثلث .

قد نكون بالغنا في رصد نقط التشابه بين البرنامجين ولم ننتبه لنقطة قد تكون مركزية في البرنامج الجديد وهي : الانتاج . فقد تكررت عدة مرات كسبب من أسباب "تحسين متوسط دخل الاسرة ويتمثل ذلك في ستة أضعاف مستوى عتبة الفقر بالريف ... و التخفيف من البطالة باحداث 5 ملايين و 442 ألف يوم عمل أي ما يعادل 20.000 موطن شغل ..." (1)

لكن يجب أن لا نحمل هذه العبارة - الانتاج - أكثر مما تتحمل فالدعوة الى رفع الانتاج لم تغب عن بال من دعوا الى تأسيس البرنامج القديم ، فالحديث عن مواطن الشغل وموارد الرزق وحضائر العمل لم يفصل يوما عن هاجس الرفع من الانتاج . وعلى أية حال ، اذا كان للبرنامج الجديد تصور مغاير للانتاج - والانتاج

---

1) نفس المصدر - ص 2 -

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

الفلاحي هو الذي يهمنا هنا في المقام الاول - فان هذه النصوص تبقى عديمة الجدوى. لذا فالاجدى هو الانطلاق من التغيير الذي طرأ على اسم البرنامج أو بالاحرى من الاضافة التي حولته من برنامج قديم الى برنامج جديد : الاندماج .

أ - مفهوم الاندماج

"يتمثل الاندماج الذي هو الركن الاساسي في هذا المشروع في محورين اثنين أولهما ترابط العمليات المنتجة بالعمليات غير المنتجة بحيث يمكن المسلك الفلاحي من تزويد منطقة الاحياء بالاسمدة والبذور والحيوانات والمعدات والتجهيزات اللازمة لخدمة الارض ولاحيائها وترويج المنتوج المنتظر من منطقة المشروع . وفي نفس الاتجاه تكون المساكن المقرر بناؤها أو الحنفيات العمومية أو مراكز الصحة الاساسية وغيرها من المنشئات مركزة داخل منطقة المشروع حتى ينتفع بها متساكنو المنطقة ويقبلون على عمليات الاحياء في ظروف ملائمة .

أما المحور الثاني للاندماج فهو تكامل العمليات المنتجة بين بعضها البعض ، بحيث يستفيد المزارع بأكثر من عملية واحدة تكون غالبا من صنفين مختلفين هما العمليات المنتجة عاجلا مثل الخضروات وتربية الارانب والنحل والاغنام ، والعمليات المنتجة آجلا مثل غراسة الاشجار وتحسين المرعى . ويرمي هذا الاندماج الى توفير دخل أدنى للمنتفع في انتظار الانتاج الذي سيتوفر له من الاشجار المثمرة ومن عملية تحسين المرعى " . (1)

ورغما عما تتسم به هذه الاحالة من وضوح في تحديد معاني - أو بالاحرى معنيي - الاندماج فانها لم تأت بجديد يفيض عن قديم . فالمعنى الاول للاندماج قد سجل حضوره منذ بدايات برنامج التنمية الريفية وهذا النص خير دليل : "ينبغي

---

1) نفس المصدر - ص 3 -

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

أن يكون محتوى الدراسات المتعلقة بالمشروع ذي التنمية المندمجة مطابقا لمنشور السيد الوزير الاول .... الذي سطر فيه النموذج العام الواجب اتباعه عند القيام بهذا النوع من الدراسات... ونظرا لتشعب أي مشروع مندمج فان القيام بها ينبغي أن يقرر من طرف لجنة جهوية للدراسات يقع احداثها في مستوى كل ولاية وتضم تحت اشراف الكاتب العام للولاية أو المسؤول من مصلحة التنمية الريفية الممثلين الجهويين للوزارات والمؤسسات المعنية بالامر." (1) وهذا معناه أن العديد من الوزارات كوزارة الفلاحة والتجهيز والتربية القومية والصحة العمومية و من الشركات القومية كالشركة العقارية للبلاد التونسية وشركة استغلال وتوزيع المياه ومن الدواوين كديوان العطلة التونسيين بالخارج والتكوين المهني والتشغيل ، كلها تتكامل لتحقيق عمل مشترك فهل يختلف هذا المعنى للاندماج عن المعنى الجديد ؟

أكثر من هذا فالاندماج بين الانشطة ذات الصبغة الانتاجية والانشطة ذات الصبغة غير الاهتاجية لا يراعى داخل الجهة فقط بل وأيضا بين المستوى الجهوي و المستوى الوطني : ينبغي لمشاريع التكوين المهني أن تكون مرتبطة ارتباطا وثيقا بالتشغيل لذا " لا يمكن اقرار احداث أي مركز للتكوين المهني الا بعد نفاذ الامكانيات القومية وأخذ رأي المؤسسة القومية المسؤولة عن التكوين وفي حالة وجوب التكوين في المراكز القومية يمكن عندئذ اسناد بعض المنح للمترشحين على حساب اعتمادات برنامج التنمية الريفية" (2).

أما المعنى الثاني للاندماج - أي اندماج الانشطة الانتاجية مع بعضها البعض - فهو أيضا لم يكن غائبا في البرنامج القديم . وفي الواقع فأن يكون

---

1) منشور عن الوزير الاول عدد 26 مؤرخ في 10 جوان 1975 .

2) نص المنشور - ملحق عدد 1 -

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

للعائلة بعض رؤوس الغنم أو الابل هو تقليد راسخ في الريف التونسي لم تطح فـــي القضاء عليه حتى سياسة الستينات التي اعتبرت في وقت ما أن تربية الغنم - وخاصـــة الماعز - ألد عدو للفلاحة . أفيعقل أن نقول ان نشاطا رعويا - أو غير رعوي - مـــواز لنشاط الغراسة أو الزراعة هو اكتشاف جديد جاء مع سياسة الاندماج؟ اذا كان هـــذا معنى الاندماج فهـــو أرسخ من أن يرسخه برنامج تنموي جديد أم قديم . أما نحـــن فيكفينا الان أن نظهر هذا المعنى من البرنامج القديم حتى لا يسري خطأ اعتبـــاره انجازا من انجازات البرنامج الجديد . وسيتكفل الجدولين المواليين بذلك :

جدول عدد 11 نسب العائلات التي تملك أو لا تملك قطيعا في البرنامجين في ولاية مدنيـــــن

قيمة القطيع بعدد الرؤوس	لاشيء	1 - 10	11 - 20	21 وأكثر	لاجواب	الجملـــة
برنامج التنمية الريفية (ولاية مدنين بما فيها بنقـــردان)	13,5	67	10	9,5	0	100 بالمائة
برنامج التنمية الريفية المندمجة (العامرية - معتمدية بنقردان)	0	50	30	15	5	100 بالمائة

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

جدول عدد 12 نسب العائلات التي تملك أو لا تملك قطيعا في البرنامجين في معتمدية بنقـردان

قيمة القطيع بعدد الروءوس	لاشيء	1 ـ 10	11ـ20	21 وأكثر	لا جواب	الجملـــة
برنامج التنمية الريفية (كامل معتمدية بنقردان)	9ر5	64	14ر5	12	0	100 بالمائة
برنامج التنمية الريفية المندمجة (عمادة المعمرات ببنقردان)	0	50	30	15	5	100 بالمائة

يؤكد الجدول الاول ـ على مستوى كامل ولاية مدنين ـ كما الجدول الثانـــي ـ على مستوى معتمدية بنقردان ـ على أصالة نشاط اقتصادي مواز لنشاط آخر نقول مـواز حتى لا يقال ثانوي . فهناك نسبتين بـ(9ر5 في المائة) و (15 في المائة) من العائـلات ـ كما يظهر في الجدول الاول ـ التي تملك قطيعا يتجاوز عدد الروءوس فيه الـ 21 . لكن ما نرمي اليه ليس قيمة القطيع ولا عدد روءوس الغنم الذي يضمه بقدرما هـــو ابراز كيف أن ـ ولعل الامر ليس مجرد صدفة ـ حجم القطيع الاكثر تعمم في البرنامجين و في الجدولين هو المتكون من روءوس عددها محصور بين واحد وعشرة .

لكن ماهو مجرد تخمين سيتحول الى يقين حين نذكر بأن أهم البرامج التنمويـــة المتعلقة بسكان الريف ابتداء من أقدمها برنامج التنمية الريفية ومرورا ببرنامج العائلـة المنتجة وانتهاء بأحدثها برنامج التنمية الريفية المندمجة تحـدد مقدار الاعانـــة المقدمة سواء كانت قرضا أو هبة في نفس ذلك الحجم وغالبا ما يكون الامر في حـــدود

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

عشرة سواء كان القطيع خرفانا أم معزا أم ابلا .

وقد يخطر لذي بال أن يقلب الافتراض فيقول ان من اختار العدد هم مخططو برنامج التنمية الريفية المندمجة فتبعهم أتباع البرنامج الاخر . لكن هذا الافتراض لن يصمد طويلا أمام المعطى التاريخي وهو أنه هو نفسه لم يتأسس الا سنة 1984 ولم يدخل حيز الانجاز الفعلي - هنا في بنقردان - الا بعد سنتين ، اضافة الى أنه الوحيد الذي تتضمن فيه الاعانة نشاطين أو أكثر . وهذا خلافا لبرنامج التنمية الريفية الذي - بحكم عدد المنتفعين به - لم يكن قادرا على حمل أكثر من نشاط واحد . وهو الفلاحة السقوية أو الغراسة في حالة العينة التي اخترناها . حينئذ لا يمكننا الان الا أن نؤكد حقيقة أن هذا النشاط الموازي ماهو الا ابتداع واقعي تكيف معه البرنامجين بطريقتين مختلفتين ، القديم تعايش معه في حين سعى الجديد الى تبنيه واعتباره جزءا لا يتجزأ من تدخلاته .

وما يؤكد لنا ذلك هو أن الجدول الثاني الخاص ببنقردان أين نلاحظ غيابا تاما للعائلات التي لا تملك قطيعا في البرنامج الجديد مقابل نسبة منها بـ(9ر5 في المائة) من البرنامج القديم . أما الفارق السلبي بين نسبتي (50 في المائة) و (64 في المائة) للعائلات التي تملك قطيعا في حجم من واحد الى عشرة رؤوس ، فماهو الا تعبيرا عن انتقال - أو قل تطور - من طور ملكية قطيع متوسط العدد الى طور ملكية قطيع أكثر عددا : من (14ر5 في المائة) الى (30 في المائة) ومن (12 في المائة) الى (15 في المائة) . ويمكننا قراءة الجدول الاخر الخاص بكامل الولاية بنفس الكيفية فيحصل لنا استنتاج عام مفاده أنه بين النسب القديمة الموجودة في أعلى كل من الجدولين و النسب الجديدة الموجودة في أسفله تحول من مجرد التعايش مع نشاط موازي الى التدعيم . أي تدعيم ذلك النشاط الموازي .

فهل يكون الفارق المعنوي بين التدعيم والتعايش هو الداعي الى الاضافة اللفظية التي ميزت البرنامج الجديد عن القديم : الاندماج ؟ هذا التساؤل

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

أو اذا شئنا الافتراض الجديد يحتم علينا رفض معنيي الاندماج الواردين في النصوص المواخذة للبرنامج القديم و المؤسسة للجديد . فلو كان المقصود بالاندماج مجرد اضافة عدد من الخرفان الى فلاح يمارس الفلاحة السقوية في معناه الاول واقامة مدرسة أين يتعلم أطفاله في معناه الثاني لكان البرنامج القديم قد قام بالمهمتين بما أنه لم يكن يفعل غير ذلك منذ تأسيسه . غير أن الامر غير ذلك و المعنى المقصود من الاندماج والذي سميناه تدعيما ، له بنية خفية لن يسهل ضبطها الا من خلال العمل الميداني . ان ما نقصده بالتدعيم هو عملية كنهها لا ما سيضاف الى حالة أصلية بقدر ماهو ما في تلك الحالة من أسباب شجعت على الاضافة . و هكذا فاذا سلمنا بأن المقصود بلفظة الاندماج هو معنى التدعيم فان قيمة برنامج التنمية الريفية المندمجة لا تكمن فيما رصدت له من اعتمادات مالية فاقت بكثير اعتمادات البرنامج القديم فحسب بل وخاصة فيما اكتشفه من موارد غير مالية كامنة في الواقع الريفي نفسه .

ب- المعنى الحقيقي للاندماج

قبيل الوصول الى خاتمة الجزء الاول من هذا العمل (1) توصلنا الى نتيجة جديرة بأن نذكر بها الان : " نجح البرنامج وفشل النموذج " . أما البرنامج فقصدنا به برنامج التنمية الريفية الذي قدمنا بعض الارقام حول نجاحه وأما النموذج فهو البناء النظري المتكون من ثلاثة عناصر : هدف التنمية والاضحية البشرية اللازمة للقيام بأعباء التنمية والادلوجة التي ستبرر تلك الاضحية والذي اعتبرناه - أي البناء النظري - القاسم المشترك بين كل التجارب التنموية .

---

1) المقصود هو الجزء الاول من هذه الاطروحة المتكونة من أربعة أجزاء .

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

حكمنا عليه بالفشل لان هدف التنمية - "نجاح البرنامج" - قد تحقق دون أن نتمكن من التعرف الى الاضحية البشرية الضرورية . وحتى افتراض أن تكون أضحيـــة هذا النجاح هي مجموعة الفلاحين الذين فشلوا في الاستفادة من برنامج التنميـة الريفية ، فانه افتراض خاطئ، لان نجاح الاخرين - أي الذين أصبح لهم مورد مـــن البرنامج - لم يقع على عاتق اولئك . هذا من ناحية ، ومن ناحية ثانية أصبـــح - تبعا لذلك - البحث عن مواطن التبرير عن أدلوجة الحداثة مجرد لغو حديـــث ما دامت الاضحية غير موجودة .

لكن ، وابتداء من الجزء الثاني من نفس هذا العمل ، تبين لنا أن نجـاح البرنامج لم يكن ينفصل عن نجاح "الاقتصاد الترحالي(1)" برمته . فالموارد النقدية و العينية التي صبت كلها في "كدس الاب" (2) ما كانت لتتجمع لولا العلاقـــات العائلية التي وفرت لها شرط النجاح : تكاتف جهود مختلف أعضاء العائلة. وعلى هذا حكمنا بأن واجهة الفيلا أو الفيراندا ليست أكثر من غشاء رقيق يغطي تقسيمـــا للفضاء والادوار ذا بعد قبلي ، وانتهينا الى أن من كنا اعتبرناهم - فلاحـو التنميـة الريفية الناجحون - أبعد من أن يكونوا أضحية للتنمية ليسوا الا أضحيتها المضللـة : أو لم يحرمهم اطارهم العائلي واقتصادهم الترحالي من صفة "المواطنة" أســـاس المشروع المجتمعي للدولة "العقلانية" الحديثة ؟

ولم يبق الان لنسترد الثقة في نموذجنا الا أن نبحث عن الادلوجة التـــي ضللت هؤلاء "الفلاحين الناجحين" . وحين نطرح الان هذه المهمة فاننـــا

---

1) الاقتصاد الترحالي : المقصود خاصة الهجرة وبدرجة أقل الفلاحة التقليدية القائمـة على الترحال من أماكن الحصاد الى أماكن الرعي .

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

نضع أنفسنا أمام السؤال المطروح كعنوان لهذا العنصر: المعنى الحقيقي للاندماج ؟ ان السؤال يتضمن أن هناك معنى ظاهري - ولنقل تضليلي - للاندماج ، وهو ما كنا بيناه في العنصر السابق انطلاقا من مقارنة بين نصوص البرنامجين ومكافحتهما ببعض النتائج الميدانية المستمدة من واقع تطبيقهما ، ومعنى خفي لم يقع التصريح به حتى تضمن حظوظ نجاح التنمية .

وهذا معناه أننا سنكتشف الان المعنى الحقيقي للاندماج الذي تعايش مع البرنامج القديم وسعى الى تدعيمه البرنامج الجديد ، واذاك نكون قد استرجعنا العنصر الثاني من عناصر نموذجنا (هدف التنمية) . أما العنصر الثالث (الادلوجة التبريرية) والذي سيمكننا من دراسة الاسباب - ولعلها أسباب " عقلانية " - التي دعت الى اخفاء المعنى الحقيقي للاندماج ، فانه يتطلب خروجا عن حدود عملنا الميداني وقراءة لاهم الاهداف التنموية على مستوى كامل البلاد . وهذا ما سيتم في العنصر الموالي . وقد نصل بعد لم شمل هذه العناصر الثلاثة الى خاتمة : نجح البرنامج ، ونجح النموذج أيضا .

- تقديم البرنامج

لن يتمكن القاريء من تتبع تحليلنا لنصوص برنامج التنمية الريفية المندمجة مهما تكن الفقرات التي سننسخها ضافية الا اذا كان له اطلاع على بعض النصوص التي نراها ضرورية. ولهذا سنقترح البعض منها ونصنفها في الملحق الموجود في آخر الكتاب كما يلي :

= أولا : نصوص سنرمز لها بحرف [أ] و ستمكن القاريء من الاطلاع على محتوى البرنامج مطبقا على مستوى 215 عمادة موزعة على خمس جهات تمثل الاكثر جدارة من جهات البلاد التونسية .

= ثانيا : نصوص سنرمز لها بحرف [ب] سنقتطفها من دراسة عنوانها

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

تقرير عن سير البرنامج وحالة الانجاز المادي والمالي (1) وهي دراسة الجدوى منها التأكد من سلامة الخطى التي وقع تخطيها ومن صلابة الارضية التي ستتبنى عليها بقية الخطى. فنشير الى ما يعترض الانجاز من عوائق وصعوبات أو الى ما في فلسفة البرنامج من تعال وجموح.

= ثالثا : نصوص خصوصية نرمز لها بحرف [ج] فيها معلومات عن الجهة التي قمنا فيها بالعمل الميداني المتعلق ببرنامج التنمية الريفية المندمجة ونعني بها عمادة المعمرات الواقعة في معتمدية بنقردان.

- مساهمة المنتفع

فيما يخص الاعانة المباشرة للمزارعين المستفيدين يمول صندوق التنمية الريفية المندمجة " الاستثمارات الخاصة عن طريق القروض المتوسطة والطويلة المدى بنسبة 60 بالمائة من التكلفة وبفائض قدره 4 في المائة وعن طريق منح تبلغ 35 في المائة من التكلفة. وتتحصر نسبة التمويل الذاتي للمستفيد من البرنامج في 5 في المائة من التكلفة وذلك نظرا لانعدام الامكانيات المالية لديه". (2)

قد تبدو هذه الفقرة مماثلة لفقرات أخرى وردت في نصوص حول كيفية توزيع اعانة التنمية الريفية - أي البرنامج القديم - من حيث نسبة القرض ونسبة المنحة لكن سنرى لاحقا أننا بدأنا ننفصل عن السياسة التنموية القديمة. وحتى النص الموالي المنظم لشروط الانتفاع بالبرنامج الجديد يتطلب منا كثيرا من التمحيص لندرك أن صبغته الخاصة وما أريد له من حظوظ النجاح وما استنبط له من "نظام خاص في التصرف في أموال الصندوق يختلف على الانظمة المعهودة بالنسبة

---

1) هذا التقرير حرر في مارس 1986 - لكن تجميع معطياته بدأ منذ 1985 أي سنة بعد بداية الانجاز.

2) دراسة الجدوى لبرنامج التنمية الريفية المندمجة 1984 - 1986 - التقرير العام - ديسمبر 1984. ص 13

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

للقروض الاخرى"... (1) هي بالفعل خصائص لا يتميز بها الاهو. نقول أن ذلك يتطلب منا تمحيصا شديدا لان كل النصوص المُوجِهة للبرامج التنموية الاخرى حررت بمثل هذه العبارات الصارمة في لهجتها والرخوة في تطبيقاتها. إلا هو. فلننظر الى ما جاء في المنشور عدد 8 الصادر عن الوزارة الاولى والمؤرخ في 23 ماي 1984 كيف ضبط شروط الحصول على الاعانات والقروض لفائدة المترشح ومن أهمها :

أولا : أن لا يفوق دخله السنوي 2.000 دينار، مع اعطاء الاولوية لذوي الدخل الضعيف.

ثانيا : أن يباشر العمل بنفسه .

ثالثا : أن يساهم في تمويل المشروع وذلك بتقديم مساهمة مادية أو عدد من أيام العمل .

رابعا : أن يدلي بما يثبت ملكيته للارض من رسوم ملكية أوشهادة حوز أو أن يمضي على التزام معد لهذا الغرض قصد اثبات ملكيته للارض .

حسابيا تبدو نسبة الـ 5 في المائة من رأس مال المشروع التي يساهم بها المنتفع - مثلما رأينا في النص السابق - والشرط الاول المذكور هنا وكأنهما يسيران فعلا في اتجاه اعطاء الاولوية لذوي الدخل الضعيف لكن الواقع غير ذلك اعتمادا على ما يلي :

- اعتمادا على مستوى عتبة الفقر الذي "حدد بأسعار 1980 بدخل لا يقل عن 60 دينارا " (2) والذي لن يتجاوز بأية حال ضعفه أي 120 دينارا سنة 1989 ، فان 2.000 دينارا تعتبر دخلا جد محترم .

---

1) نفس المصدر ص - 14 -

2) وقع اعتماد مقياس عتبة الفقر في البحث القومي حول الاستهلاك العائلي الذي يستند بدوره على المقاييس المعتمدة من طرف البنك العالمي - المصدر برنامج العائلة المنتجة 1982 - ص 6 .

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

هذا من ناحية أولى. ومن الناحية الثانية ماهي المعايير التي ستسمح لنا بتقدير مداخيل طالبي اعانة التنمية الريفية المندمجة والحال أن مداخيل الجميع ، والامر لا يهم ولاية مدنين بل كل ولايات داخل البلاد وحتى العديد من المدن الساحلية ، غير قابلة للتحديد ما دامت متأتية من اقتصاد "لا شكلي"، أو ترحالي (فلاحة - هجرة - أعمال منزلية خاصة ...). فمن يستطيع حينئذ أن يثبت لنا أن من استفادوا بالاعانة هم ذوي الدخل الضعيف؟ نحن لانزال بعد في مرحلة الشك.

- لكن الشرط الثالث سيقربنا من اليقين، فضرورة أن يساهم المنتفع بـ5 في المائة في تمويل المشروع تخفي خدعة مصدرها ضعف هذه النسبة. و الحقيقة فان الاعانة لم تعد 150 أو 300 دينار كما دأب على ذلك البرنامج القديم فهي الان تصل الى آلاف الدينارات. فهل يقدم ذو دخل ضعيف على قرض في هذا الحجم وبفائض دون أن يكون له سند مادي وعائلي يشجعه على المجازفة ؟ ولا يغرنا أن له منحة بـ 35 في المائة فهي لا تقدم قبل المشروع وانما تخصم من القرض الذي سيسدده. وبناء على هذا فان عبارة " اعطاء الاولوية لذوي الدخل الضعيف " ليست الا احدى التي بقيت ذكراها من البرنامج القديم و الذي كانت اهتماماته اسعافية بالاساس.

- كنا أقمنا ارتباطا بين المشاريع الناجحة في نطاق البرنامج القديم وممارسة أصحابها للهجرة والامر لا يمكن أن يكون الا كذلك بالنسبة لمشاريع البرنامج الجديد لان التمويل هنا أكثر أهمية ، فأنى لذي الدخل الضعيف بـ5 في المائة. وحتى لو افترضنا أنها ممكنة ، فمن أين له بالقسط الاول الذي به ستنطلق اشغال حفر بئر عميقة أو غراسة هكتارات الاشجار المثمرة، اذا كان فعلا كذلك ؟

- من الاسباب الرئيسية التي جلبت لبرنامج التنمية الريفية - أي البرنامج القديم - الانتقادات الشديدة هو تغليبه للطابع الاستهلاكي على الطابع الانتاجي. ولا نقصد بالاستهلاك هنا توفير النور الكهربائي والماء الصالح للشراب و الطرقات وما الى ذلك من خدمات، فهذا كله صحيح وقد استفاد 50 في المائة من اعتمادات البرنامج ،

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

و لكن ما نريد الاشارة اليه هو تبديد الـ 50 في المائة المتبقية في اعانات أخذت شكل صدقات وهبات حتى ولو أنها قدمت على أنها قروض (كانت أفضل نسبة لتسديد القرض تساوي 15 في المائة فقط) .

● هل كان البرنامج الجديد يرمي الى ترك الاعتبارات السياسية الدعائية والشخصانية البغيضة التي بددت اعتمادات البرنامج القديم لمدة طويلة وتبني فلسفة جديدة قوامها الجدوى وترشيد المصاريف ؟ واذا ما صح ذلك فهل مرده الى قيمة الاستثمارات في البرنامج الجديد والمقدرة بـ 311ر9 مليون دينار (مقابل 100 مليون دينار في المخطط الخامس و 63 مليون دينار في المخطط الرابع بالنسبة للبرنامج القديم) ؟ أم أيضا لان جزءا هاما من تلك الاستثمارات مصدرها خارجي (160ر8 مليون دينار موزعة على صناديق عربية واسلامية وافريقية) لا يتسامح مع تبديد أمواله في اعتبارات من مثل تلك المذكورة أعلاه ؟ ستجد كل هذه التساؤلات ما يشفي غليلها من أجوبة ولكن الثابت الان هو أن المنتفع باعانة التنمية الريفية المندمجة سيتسلمها من يد بيروقراطي يعمل بالبنك القومي التونسي المتصرف في صندوق التنمية الريفية المندمجة مقابل امضائه على التزام بتسديد أقساط القرض بفوائضه . فهل سيعرف هذا البيروقراطي معنى "ذو الدخل الضعيف" اذا كان ملف هذا المنتفع الذي أمامه يبين أنه غير قادر على الايفاء بالتزامه (non solvable)

و القدرة في نظر البيروقراطي تقاس اذا كان للمنتفع دخل قار، والدخل القار لا وجود له الا بشغل قار والشغل القار يكاد ينحصر في حدود الوظيفة العمومية، ولا يعقل طبعا أن يسعى البرنامج الى اخراج الموظفين من الوظيفة الى الفلاحة ؟ هذا معناه سقوط معيار الدخل الذي لا يقل عن 2.000 دينار أما شرطي القدرة على ايفاء الدين أولا وتعويض المعير البنكي بشيخ العمادة ثانيا فلن يسقطا فهما الذين سيزكيان ملف المنتفع اعتمادا على معيار النعمة الظاهرة كعدد الاولاد المشتغلين وعدد الفيلات والسيارات وغير ذلك ، ثالثا وهنا يصبح الحديث عن شرطي

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

أن "يباشر العمل بنفسه" أو "أن يدلي بما يثبت ملكيته للارض" لغو حديث صوري. فاذا كان أحد أعضاء العائلة - الاب عادة - قد استطاع أن يبرز للعموم أن ما يملكه كل أعضاء العائلة تحت تصرفه فهل سيعجز عن أن يقدم شهادة ملكية للارض الجماعية باسمه الخاص؟ ان الشرط الوحيد الذي يمكن لنا أن نقبله هو المتعلق بمساهمة المنتفع في تمويل المشروع لكن يجب أن نوضح فقط أن القدرة على المساهمة ليست مالية فحسب بل وخاصة عددية أي عائلية .

- دور العائلة

ان طموحنا الساعي الى تعميم اعتبار العائلة أحد أهم العناصر البنيوية للاندماج في التجارب التنموية يصطدم ولا شك بصعوبة تباين الجهات واختلاف تفاعلها مع هذه التجارب فجنوب البلاد ليس كوسطها ولا هذا كغربها أو شمالها . وقد بينت دراسة ميدانية في القيروان أنه "كلما ثقل عبء العائلة (من حيث عدد أفرادها) كانت مساحة الارض التي تستغلها صغيرة وتبعا لذلك دخلها منخفضا . وكلما صغر حجم عائلته تيسر حاله ، وعلى العكس كلما تعدد أفرادها عسرت أحواله " (1).

ان هذه الملاحظات المستقاة من تجربة ميدانية أخرى لا يمكن أن تفند ما توصلنا اليه من تعميمات ولعلها تثريها أيضا . فنحن حين اعتبرنا العائلة - والعائلة متعددة الاعضاء خصوصا - أحد أهم العناصر البنيوية للاندماج فلأن هذا العنصر ينتمي الى كل بنيوي تتأثر به وتؤثر فيه كل العناصر. فهل كان حتميا أن تسقي المرأة خضروات السانية والطفل أن يرعى بالغنم اذا لم يكن أبوه مهاجرا بليبيا أو بفرنسا وأخوه موظفا ببنقردان أو ميدون ؟ ان قيمة العائلة هنا ليست في عدد أعضائها بقدر ماهي في تنوع وظائفهم . وأن يكون لنشاط الهجرة دور في توفير رأس مال فلاحة التنمية الريفية

---

1) محسن الطرابلسي - المجلة التونسية للعلوم الاجتماعية - العدد 70/ 71 السنة 1982
مقال حول : الانشطة المندمجة في برنامج التنمية الريفية: مثال القيروان ص 196 (المقال باللغة الفرنسية)

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

لا معنى له اذا لم يتكيف بنيويا مع بنية العلاقات العائلية .

قد نعزو سبب اختلاف تصورنا لدور العائلة مع تصور الباحث الطرابلسي الى أن تاريخ دراسته يعود الى سنة 1982 أي قبل ظهور برنامج التنمية الريفية المندمجة بسنتين ، لكن سبق أن بينا أن معنى الاندماج كان حاضرا لا في البرنامج القديم - بدليل عنوان مقاله - فحسب بل وفي الواقع الريفي أيضا . هذا من جهة ومن جهة أخرى فانه بقي أسير التصور الذي كرسته وسائل الاعلام المسموعة والمرئية والمكتوبة - أثناء السبعينات على وجه الخصوص - حول الوظيفة الاسعافية للبرنامج وهذا ما يفسر تعجبه حين لاحظ : "منطقيا كانت العائلات الاجدر من غيرها بالاسعاف هي التي تكون من ناحية ضعيفة الدخل ومقدار مصاريفها الضرورية مرتفع من ناحية أخرى . فعبء العائلة هو أحد المؤشرات الذي يجب أخذه بعين الاعتبار في ترتيب العائلات المحتاجة" . (1) و هكذا فدرجة اندماج البرنامج تقاس بمدى استجابته لاشد الحالات عوزا وفقرا . و الواقع فاننا لا نلتقي هنا مع أول النصوص التأسيسية للبرنامج القديم فحسب بل و حتى مع أحدث ما حللنا في البرنامج الجديد ولعل أقربها الى البال عبارة "اعطاء الاولوية لذوي الدخل الضعيف" .

لكن المنطق الداخلي للاندماج - والذي اكتشفناه في منطقة درسنا - غير ذلك و برهاننا على ذلك هذه الاحالة الموجودة في نص المقال - والتي تعبر أيضا عن دهشته - والمعبرة عن "تناقض بين القول بأن الفقراء المعدمين هم وحدهم المنتفعون بأرصدة التنمية الريفية من ناحية وتجاهل أن أغلب المنتفعين لهم أراض تتراوح مساحتها بين 10 و 20 هكتارا ." (2) صحيح أن هذا الكلام المتناقض هو كلام مخططي برنامج التنمية الريفية ولكن صحيح أيضا أن مقال الباحث لم يسع الى التساؤل حول الاهداف والاسباب التي استوجبت هذا التناقض .

---

1) نفس المصدر - ص 195 .

2) نفس المصدر - ص 194 .

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

فيما يتعلق بالاسباب فعنصرها قريب من هذا المكان وسنراه لاحقا أما الاهداف فلا بأس من التذكير بما لمسناه في شروط اختيار المنتفعين ألا وهو : " أقدرهم على ايفاء دينه " صحيح أن المعيار هنا ليس عدد الفيلات ولا عدد السيارات - فالهجرة ليست تقليدا في القيروان - ولكنه يبقى على كل حال معيارا خارجيا : " عدد الهكتارات المملوكة" ولهذا أيضا نجد في نفس المقال أن نسبة العائلات التي تمتعت باعانة البرنامج دون أن يكون لها أرض لا تتجاوز 14 في المائة .

ومع ذلك فان معيار عدد الهكتارات لا ينقص البتة من قيمة معيار عدد أعضاء العائلة . وقد لا تمكننا الدراسة التي بين أيدينا - دراسة محسن الطرابلسي حول القيروان - من تدعيم هذا القول لكن واحدة أخرى حول جهة مماثلة - من وسط البلاد - قد تفي بالغرض . فغياب نشاط الهجرة في جهة ريفية ما لا يؤدي الى نفي لاهمية العائلة - كقوة عمل - في الانشطة الاخرى ونخص بالذكر منها علاوة على فلاحة التنمية الريفية الانشطة التقليدية الاخرى كالزرع والحصاد وجني الزيتون والرعي ...

ولعله من المفارقات أن نلاحظ في جهات داخلية - تشبه الى حد ما جهة القيروان - أن غياب نشاط الهجرة وحضور الرجال مع بقية أعضاء عائلاتهم سوف لن يخفف عن هؤلاء عبء العمل الفلاحي ، بل على العكس وباسم " احترام التقاليد " (1) تتحمل المرأة والطفل وظائف مضاعفة .

- مساهمة المرأة والطفل

يقع الربط دائما بين تقدم ميكنة الفلاحة وتراجع حجم قوة العمل البشرية وقد ثبتت مشروعية هذا الربط في بلدان تعمم فيها التصنيع وانتشر فيها الى ابعد المناطق الريفية بحيث أضحت الضيعة الفلاحية منشأة كغيرها من المنشئات الصناعية الاخرى .

I) Sophie Ferchiou. les Femmes dans l'agriculture tunisienne Edi. I985. P. 25. (Etude de cas: Sidi. Bouzid).

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

و يقع هذا أيضا حتى في البلدان التي اجتاحها التصنيع عنوة رغم ما قد تبديه سياساتها من قلق ازاء قلة مواطن الشغل التي يتطلبها قطاع الفلاحة المتطور.

لكن قطاع فلاحة التنمية الريفية - الذي لا يخفي طموحاته التطويرية - له تصور خاص للميكنة . فكل أدوات المداواة والرش أو قنوات البلاستيك الصالحة للري و توجيه المياه التي تقدمها المصالح التابعة للبرنامج ، هي لا ريب في ذلك افراز لمسار الميكنة الذي يسري في جسم الاقتصاد ولكنها لا تحيل جزءا من قوة العمل اللازمة لمشروع التنمية الريفية على العطالة . ولعل الموتور هو وسيلة الانتاج الوحيدة التي يمكن استثناءها من هذا الحكم . فالماء الذي يتدفق لري مساحات الخضروات والاشجار المثمرة ما كان له أن يتدفق لولا هذا الانجاز التقني الذي وان يكن هو أيضا ، في الظاهر ، مصدر عطالة جزء من قوة العمل الا أن الطابع الاندماجي للبرنامج سيبين أن تلك العطالة ليست الا نظرية .

ذلك أن امكانات العمل الفعلية التي يوفرها الموتور لا تندمج فقط مع المعدل الضعيف - عموما - لمساحة الارض المرغوب استغلالها ولا مع قيمة المنتوج الموجه أساسا للاستهلاك العائلي ، وانما أيضا مع مدلولي عنصري الزمن والعمل في ذهنية لا فلاحي التنمية الريفية الموجودين بمدنين بل وأيضا أمثالهم الموزعين على كامل تراب البلاد . وتتكفل المعطيات الاتية بشروحية المجازفة بمثل هذا التعميم :

جدول عدد 13 : الذكور الذين يمارسون أولا يمارسون الفلاحة (1)

الاجابات المستجوبون	نعم			لا			
النسب بالتفصيل	متزوج	أعزب	أرمل	تلميذ	له عمل آخر	مهاجر	عاجز
	41,5	17	3	23	9,5	4,5	1,5
النسب الجزئية	61,5 في المائة			38,5 في المائة			
النسبة الجملية	100 في المائة						

1) هذا الجدول مستمد من دراسة عينة التنمية الريفية المندمجة (عمادة المعمرات ببنقردان).

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

جدول عدد 14: الاناث اللائي يمارسن أو لا يمارسن الفلاحة (1)

الاجابات المستجوبات	نعم			لا			
	متزوجة	منقطعة	تلميذة	متزوجة	منقطعة	عاملة بصنع	تلميذة
النسب بالتفصيل	21	15	1ر5	40	18	3	1ر5
النسب الجزئية	37ر5 في المائة			62ر5 في المائة			
النسبة الجملية	100 في المائة						

تتقابل معطيات الجدولين تقابلا ذا معنى فحين يغيب (38ر5 في المائة) من الرجال عن مقر العائلة لوضعيات مختلفة كالدراسة أو العمل أو الهجرة تسير الامور الفلاحية وكأن أحدا منهم لم يتخلف بما أن نسبة أخرى من النساء تكاد تساويها حسابيا (37ر5 في المائة) تحضرن للقيام بهذا الدور. اننا اذن أمام تقسيم جنسي للعمل يجعل العمل الفلاحي نشاطا مشتركا بين الجنسين مقابل تخصص الرجال بأنشطة أخرى خارج البيت والنسوة بشؤونه الداخلية .

لا مراء بعد هذا من القول بأن جل العائلات المنتفعة ببرنامج التنمية الريفية تكتفي ذاتيا من حيث قوة العمل اللازمة، ولكن لو لم يقع الالتجاء الى قوة عمل الاناث والاطفال والى طاقة "الموتور" فهل كان أصحاب المشاريع سيلجون الى قوة العمل النظرية التي افترضنا أنها تعطلت بفعل الميكنة ؟

وياتي الجواب هنا بلا تردد أو أدنى نسبة من الشك : لا . فالدراسات الميدانية الثلاث التي أنجزناها على التوالي سنة 1984 (بنقردان) وسنة 1988 (كافة ولاية مدنين في نطاق التنمية الريفية) و (عمادة المعمرات من معتمدية بنقردان في نطاق

1) نفس المصدر

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

التنمية الريفية المندمجة) كلها لم نتحصل فيها ولو على شخص واحد يعمل عملا فلاحيا بالاجر عند شخص آخر. وان حدث ذلك- وهذا مجرد افتراض ممكن- فمن باب التعاون الذي يرد في أقرب مناسبة .

ولنا في بعض منتفعي التنمية الريفية القديمة أو المندمجة المحسوبين داخل عيناتنا أو في بعض الحالات الاخرى التي لاحظناها خارج تلك العينات أمثلة من المساحات الفلاحية الشاسعة و الامكانيات التسويقية الكبيرة في السوق المحلية و الوطنية وحتى الخارجية (ينتج الفستق في بعض الضيعات في بنقردان وهو موجه للتصدير) ومع ذلك فانها لم تشذ عن القاعدة رغم أنها تمتاز باستعمال معدات متطورة (بيوت مكيفة سعر الواحدة ألف دينار ، أدوات الري قطرة قطرة) وتتمتع برأسمال هام (آبار كاترية الذهب، قروض من موسسات بنكية أو مصالح فلاحية مستقلة عن صندوق التنمية الريفية).

ان هذا الاستثناء ، قد يعطي فكرة ذات فائدة ولكنه لا يمكن من التعميم طالما أن أغلبية فلاحي عينتنا محدودو الامكانيات الاقتصادية : صغر حجم قطعة الارض المستغلة وضيق أفق السوق . ولهذا السبب يجدر بنا تمحيص تجربة مماثلة حيث تكون الدوافع والشروط الاقتصادية - في معناها الضيق - متوفرة لا من تلقاء نفسها وانما بدفع من مخططي البرنامج . ففي دراسة حديثة عن أحد البرامج المندمجة (1) "من جملة الوسائل التي لجأ اليها مخططو هذا البرنامج هي اذكاء التناض بين الفلاحين بتوزيع الاعانة المالية والعينية توازيا مع معدل انتاجيتهم".

واذا أردنا البقاء في حدود اشكاليتنا الخاصة ، يمكن أن نوكد أن هذا النهج الانتاجي والانتاجوي لم يوءد هو الاخر الى خلق طلب في اليد العاملة من خارج العائلة . بل استفاد من التقسيم الجنسي للعمل الذي كان سائدا أيام الفلاحة

I) Sophie Ferchiou. Of. cit. page 44.

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

التقليدية المعاشية . والواقع فان هذه الاخيرة ، وان تكن تضاءلت أهميتها المباشرة ، فانها أورثت نظاما مرجعيا من العادات والتقاليد الابوية و حتى الاسلامية الذي يسمح بتحقيق تلك الاهداف دون - بل بفضل - أن تفقد العائلة تماسكها .

قد تبدو اشكالية الباحثة بعيدة عن اشكاليتنا . لانها تبحث في وضعية المرأة بشكل عام لذلك نراها تسجل أولا "تراجع في تعليم الفتيات كظاهرة ترتبط مباشرة ببرنامج التنمية" (1) و ثانيا "أمية معممة لدى فتيات صغيرات كثمن ضروري لقوة العمل التي يحتاجها نمط انتاجوي من التنمية" (2) وتحوصل متعجبة - مثلما تعجب باحث آخر في مكان سابق - "السؤال الذي نطرحه ليس لماذا يوجد تراتب جنسي ، وانما لماذا تدعم برغم التغيرات الاجتماعية والاقتصادية التي جدت في كامل البلاد وكيف أمكن لنموذج التنمية المندمجة أن يهمش المرأة ، والحال أن هدفه الرفع من ظروف عيش المجموعة الريفية ؟" (3).

ان هذا التساؤل الاخير هو الذي يشد الاشكاليتين الى بعضهما لانه يثير مسألة الاندماج فالباحثة تفترض من ناحية ان التراتب الجنسي موجود منذ القديم وهذا صحيح ومن ناحية أخرى أن درجة التغير الاقتصادي والتغير الاجتماعي متزامنان و يدفعان أحدهما الاخر وما البرامج التنموية الريفية المندمجة الا عمليات مندرجة في نفس الاتجاه . ان هذا الفهم للاندماج هو نفس الفهم الذي نجده لدى أشهر

I) Sophie Ferchiou. Of. cit. page 5I.
2) même Ouvrage , page 57.
3) même Ouvrage , page 22.

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

الوظيفيين الذين يتصورون المجتمع " كل متجانس ومتناسق الاطراف" ويجعلنا نعتبر " زيادة عدد النساء المشتغلات بالفلاحة بما يقارب 34.000 بين 1975 و 1984 تطورا وتحسنا في وضعيتها والحال أن ذلك تم فقط لان هناك عدد من الرجال الذين تخلوا عن ذلك النشاط يقدر ب 60.000 " (1) لنفس تلك الفترة .

واذا كانت باحثتنا قد رأت في وضعية المرأة الريفية الوجه "المظلم "لعملة التنمية الذي سيحيل كامل القطعة المعدنية الى سواد بما في ذلك ما قد يكون بياضا منتهية الى أن أي "خلل " في النسق التنموي هو علامة على "انحلال" كلي وسير باتجاه اللاعقلاني فاننا بالمقابل نستطيع أن نثبت العكس تماما انطلاقا من سوءالين طرحا على عينتين في فترتين مختلفتين وبرنامجين مختلفين (البرنامج القديم و البرنامج الجديد) ولكن في معتمدية واحدة : بنقردان .

جدول عدد 15 : عدد الاعانات المتمتع بها في كل من البرنامجين

عدد الاعانات	اعانة واحدة	اعانتان	3 اعانات	ألغيت	جملة النسب
البرنامج القديم	83	8,5	0	8,5	100 بالمائة
البرنامج الجديد	15	75	10	0	100 بالمائة

I) Recensement du 30 mars I984- caractéristiques économiques

I. N. de la statistique - Volume N°5- page 22.

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

جدول عدد 16: لو فتحت ليبيا أبوابها من جديد هل :

الجـــــواب	التشبـــث بالمشروع	يبقى البعـض ويهاجر البعض	يتخلى عن المشـروع	لا جواب	جملة النسب
البرنامج القديم	50	28ر5	7	14ر5	100 بالمائة
البرنامج الجديد	65	15	0	20	100 بالمائة

اننا نستطيع اقامة علاقة بين شدة تشبث منتفعو البرنامج الجديد بمشـــروعهم (65 بالمائة مقابل 50 بالمائة في البرنامج القديم) من جهة وتركز أكثر عدد ممكن مـن الاعانات بيد كل منهم (75 في المائة لهم اعانتان في الجديد مقابل 83 بالمائة لهـــم اعانة واحدة في القديم) من جهة ثانيـــة .

والواقع فان الجدولين يزيدان هذه العلاقة تأكيدا حين نلاحظ أن نسبتي (7 في المائة) و(28ر5 في المائة) من هؤلاء هم على استعداد للتخلي اما كليا أو جزئيا عن المشـــروع إن ليبيا فتحت أبوابها من جديد . لكن أولئك لا يتخلون أبدا (0 في المائة) أو ان نسبـة تخليهم عن مشروعهم بصفة جزئية أو وقتية ضعيفة رغم أنهم لم يدخلوا بعد في مرحلـــة الانتاج الاقصى .

ولقد قدمنا في مكان غير بعيد عن هنا افتراضا يمكن أن يفسر هذين الملاحظتين انطلاقا من قيمة الاعتماد المالي للبرنامج الجديد والمقدر بـ 9ر311 مليون دينار موزعـة على خمس سنوات مقابل 163 مليون دينار خصصت للبرنامج القديم أثنـاء المخططيـــن الرابع والخامس اللذين يدومان تسع سنوات . وحتى لو اعترض على هذا الافتراض بـــأن اعتمادات البرنامج القديم قابلة للارتفاع الى مستوى اعتمادات البرنامج الاخر اعتمـــادا على أن قيمة الدينار في عشرية السبعينات هي أرفع مما هي عليه في الثمانينـــات،

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

فان هذا الاعتراض لن يستطيع تجاوز عقبة أخرى أمامه وهي عدد السنوات التي تتوزع عليها اعتمادات كل من البرنامجين ليست هي نفسها هنا وهناك بحيث يصبح معدل الاعتمادات السنوي في البرنامج الجديد يقارب ضعف مثيله في البرنامج الاخر.

ويفصح هذا الاهتمام المتزايد بالبرنامج المندمج ميلا الى تركز رأسماله لا في أقل عدد ممكن من السنوات فحسب بل وخاصة في أقل عدد ممكن من المنتفعين. ودليلنا على ذلك أنه بينما كان يعني مفهوم التحري في اختيار المنتفعين في البرنامج القديم عدم نسيان أي "معوز" في حاجة الى "الاسعاف" فأصبح يعني تجنب اضافة اسم منطقة لا تتوفر فيها شروط البرنامج الجديد. ولهذا تقرر بعد قراءة التقرير الذي جمعت معطياته حول سير البرنامج وحالة الانجاز فيه، سنة بعد انطلاقه، تقرر تقليص عدد المشاريع التي ستتمتع بتدخل البرنامج من 268 الى 215 مشروعا بحثا عن "الجدوى" (1) و الحقيقة فان تضخم عدد منتفعي البرنامج القديم قد شكل عقبة حادة أمام اختيار عينة ممثلة 15 في المائة، ما كان لنا أن نتجاوزها لولم نلجأ الى السير العنقودي الذي مكننا من تجميع منتفعي قرابة معتمديتين ونصف في مجموعة واحدة ومن الحصول في الان ذاته على التمثيلية (représentativité)المنشودة. مقابل ذلك كان الامر بسيطا في اختيار عينة البرنامج الجديد، فقد أمكن اختيار عينة ممثلة ب 17 في المائة داخل المعتمدية ودون اللجوء الى تجميعها مع معتمديات أخرى. وهذا معناه أن المسألة لا تكمن في قيمة الاعتمادات بقدر ما هي في طريقة استغلال تلك الاعتمادات.

ان تركز الموارد - الاعانات- بأيدي أقل عاملات ممكنة هو الوجه الاخر للاندماج - كنا حددنا الوجه الاول للاندماج بتعدد أعضاء العائلة وتنوع أدوارهم- هذا الاندماج الذي سيؤدي الى الرفع من الانتاج وتبعا لذلك الى تحسين المدخول

---

1) مصدر مذكور سابقا : دراسة الجدوى لبرنامج التنمية الريفية المندمجة 1984 - 1986 ص 6.

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

العائلي . فهل يصح أن نطلق على هذا البرنامج المتصف بـ"الاندماج" "صفة "اللاعقلانية" . لعلها قمة "العقلانية" التنموية التي وصلت اليها كل برامج التنمية بالريف التونسي . وقد لا يكون اعتراض الباحثة صوفي فرشيو "أنها تنمية على حساب المرأة" سوى تأكيدا لصحة نموذجنا النظري الذي يقتضي فعلا وجود أضحية بشرية في كل تنمية . أما أن تكون المرأة هي "أضحية "التنمية الوحيدة . فهذا موضوع نقاش آخر.

مساهمة الانشطة الموازية

حين نعدها ، نجدها عديدة ولكن حين نبنينها نجدها ذات بنية واحدة: العائلة. وهذا يطرح اشكالا لا أمام برامج التنمية الريفية فحسب بل وأمام كل فلسفة تنمية. فهل أن التنمية وجدت لتؤثر في البنى "المتخلفة" ولتغيرها أم أنها وجدت لتتأثر بها وتغير تصوراتها من خلالها؟ ويتحول الاشكال الى اشكالية : هل أن استمرارية البنية العائلية التقليدية هي مجرد استجابة وظيفية لضرورات التكيف مع الحداثة أم أنها استجابة لضرورات داخلية لا علاقة لها بالحداثة حتى وان كانت هذه الاخيرة قد كيفتها وفق مقتضياتها؟ لعله أيضا ليس غريبا أن نجد طرحا يكاد يكون مماثلا لنفس الفرضية ـ أو الاشكالية ـ في دراسة ميدانية أخرى حول القبايلية بالجزائر، ولا شك أن المقارنة ستكون ذات فائدة غير خافية . وفي انتظار ذلك نوضح أن التثبت من الاحتمال الاول المضمن في الفرضية سيتم أثناء الفصلين المواليين من هذا الجزء الثالث. أما الاحتمال الثاني منها فيتضمنه الجزء الرابع والاخير.

ج = الاسباب الكامنة وراء اخفاء المعنى الحقيقي للاندماج

هل يمكن فصل الاقتصادي عن الادلوجي؟ طبعا لا ، غير أن طبيعة الادلوجي هي اخفاء حقيقة العلاقة . فالاندماج الذي قدم لنا على أنه تناسق بين أنشطة انتاجية مختلفة من ناحية وتناسق بين أنشطة أخرى بعضها انتاجي والبعض الاخر غير انتاجي ، بدا وكأنه مجرد حل تقني جاء به البرنامج الجديد لمجرد اشكال تقني طرأ على

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

البرنامج القديم . وقد دحضنا ذلك حين وضحنا أن الاشكال (اللااندماج) كما الحل (الاندماج)قد تواجدا لا في البرنامج الجديد فقط بل وفي القديم وحتى قبلهما وخارجا عنها . وقد عرفنا البعد " العقلاني " لتدعيم هذا الاندماج في البرنامج الجديد ولم يبق الا أن نعرف ماهي الاسباب التي دعت الى هذا التعتيم حول معناه الحقيقي .

دور الفرد

ان قوة المبادر (entrepreneur)حسب نموذج شمبيتر (schumpeter) [1] تتلخص في حضوره الدائم بالخلق والابداع. والاعتراف بدور ريفي وبرأسماله وبقدرته على انجاح مشروع مهما كبر حجمه هو في حقيقة الامر مشروع لا يقربه كثيرا من هذا النموذج الغربي - ونحن كذلك لا نسعى لذلك - ولكن - وهذا ما نرمي اليه - هو قول صريح بأن الدولة قد تخلت عن دورها التنموي ، وهي لم تعد تنكر ذلك وما كانت أيضا تفضل التصريح علنا بـ " حق التملك الغريزي " أو " حرية الافراد " ... لولم تكن البرجوازية الصغيرة الماسكة بجهاز الدولة مضطرة لذلك للتخلص من تبعات تجربة التعاضد التي سادت في الستينات. وكم كانت تتمنى قوله فقط في أذن الرأسمال المديني الخاص الجديد ، الذي سيفيد من قوانين الاستثمار الجديدة والقادر وحده على دفع العمال نحو رفع الانتاج والانتاجية والضغط على كلفة الانتاج ، وغير ذلك مما عجزت عنه بيروقراطية الدولة المتواكلة والمتنامية .

ان الاعتراف بمثل هذا الدور لصغار الفلاحين هو ضرب لما بقي من دعائم الشرعية المهيمنة : الشخصانية والكاريزماتية اللتين تفرضان دائما أن تقدم الموارد الموجهة

I) Robert.E.Baldwin. Essor économique et développement (le rôle de l'entrepreneur). ed. Nouveaux Horizons, I977. page 63.

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

لتنمية الريف في مظهر استعراضي صدّقي (من صدقة). وكل البرامج التي استحدثت منذ بعث "حضائر مقاومة التخلف" سنة 1958 ... و "التي كان هدفها " تلهية " العاطلين بامدادهم بضروريات العيش كالسميد ..." (1) مرورا ببرنامج التنمية الريفية وبرنامج العائلة المنتجة والحدائق العائلية وتشغيل الشباب وازالة الاكواخ ... الى آخرها برنامج التنمية الجهوية (2) . لم تكن كلها الا تكرارا لنفس المحتوى ولكن الغاية من وراء كل ذلك هو الاكثار من المناسبات التي تستعرض فيها الدولة أبوبتها نحو صغار الفلاحين .

" مكاسب النظام "

هل يستطيع أي برنامج تنموي أن يصرح بأن تحقيق أهدافه يمر عبر حرمان المرأة من حق التعليم وحق الشغل وحق اختيار الزوج بكل حرية ؟ أو عبر حرمان أطفال من حق الدراسة ؟ ومن باب أولى وأحرى نظام اعتبر " مجلة الاحوال الشخصية" و " ديمقراطية التعليم " مكسبين تاريخيين ورائدين يحتذى بهما ...

جدول عدد 17 وضعية فئة الاعمار الثانية في كل من البرنامجين (3)

الوضعية / البرنامج	تلميذ (أو طالب)		منقطع								الجملة
			فلاح		له شغل آخر		مهاجر		عاطل		
	ذ	أ	ذ	أ	ذ	أ	ذ	أ	ذ	أ	
النسب بالتفصيل في البرنامج القديم	38,5	15,5	11	23	4,5	1	1	0	4	1,5	100 /.
النسب حسب الوضعية في البرنامج القديم	54		46								100 /.
النسب بالتفصيل في البرنامج الجديد	45	15,5	6	25,5	4	2	0	0	0	2	100 /.
النسب حسب الوضعية في البرنامج الجديد	60,5		39,5								100 /.

1) صلاح الدين بن فرج - الشباب والتشغيل - أطروحة شهادة الكفاءة في البحث - دورة سبتمبر 1984 - 1985 - ص 10

2) صدر منشور موسس للبرنامج الجهوي للتنمية بتاريخ 3 فيفري 1987.

3) المقصود بفئة الاعمار الثانية هم السكان الذين تتراوح أعمارهم بين 11 و 20 سنة .

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

لا شك أن بعد المسافة بين المدرسة ومكان السكن وغلاء تكاليف التعليم بصورة ملحوظة من سنة لاخرى هي من الاسباب الكامنة وراء "اضطرار" الاباء لحرمان أبنائهم أو منعهم من مواصلة تعليمهم . ولقد لمسنا مدى واقعية هذه التفسيرات أثناء بحثنا الميداني . ولكن وان كنا نقبلها من منتفعي البرنامج القديم فأنى لنا أن نقبلها وقد وردت أيضا على لسان أولياء ينتمون الى برنامج جديد طابعه الاندماج بحيث تنتفي حجة انعدام المدرسة أو بعد المسافة و "قلة ذات اليد" وقد يدحض ارتفاع نسبة التلاميذ (من 54 الى 60,5) وانخفاض نسبة المنقطعين (من 46 الى 39,5) هذا الاستنتاج الذي قد يصبح متسرعا لكن الدخول في تفاصيل بعض النسب سيظهر أنه استنتاج مشروع ومتين الاساس .

فلو دخلنا في تفاصيل هذه المجموعة التي تمثلها نسبة 60,5، لوجدنا أن 87 ٪ هم بالفعل تلاميذ وتلميذات وحتى طلبة لكنهم الى جانب ذلك أيضا يمارسون النشاط الفلاحي المرتبط بالبرنامج أو بغير البرنامج . أما من كانوا متفرغين تماما للدراسة فلا تتجاوز نسبتهم 13 في المائة. ولا تخفى على أحد الاثار السيئة التي ستنعكس على نتائج التعليم . هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فان هذا الارتفاع الضئيل في نسبة التلاميذ بين البرنامجين لا يهم الا الذكور وما كان ليتحقق لولا ارتفاع نسبة انشغال - وبالتالي انقطاعهن عن التعليم - الفتيات بالعمل الفلاحي أولا ورغبة الاولياء في نجاح الاولاد في مجال الدراسة ثانيا . ولعل هذا ما يفسر تذرع بعض الاباء "ببعد المدرسة" حين يسأل عن سبب حرمان بناته من التعليم والحال أن الاستمارة تثبت أن له أولاد يذهبون الى المدرسة . صحيح أن أي مدير مدرسة - ممثل الدولة في قطاع التعليم - لن يقدر على اجبار ولي لتعليم ولده أو ابنته وفي أحسن الحالات لعله يقدم له النصح ، لكن أصح من ذلك أيضا أن مدير برنامج التنمية الريفية ، أي برنامج كان - وهو ممثل الدولة في قطاع الفلاحة - لن يقدر حتى على النصح - ولعله يحاول تجنبه - والا فانه قد يساهم في فشل البرنامج .

هل جئنا بجديد؟ يبدو أن البرجوازية الصغيرة التي قادت تجربة التنمية في الستينات قد استخلصت العبرة من تجربتها الاولى وفهمت أن لا "التصنيع"

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

الذي لا يتناسب اطلاقا مع موارد هذه البلاد " ولا "الزعم بأن التغلب على التخلف يبقى في النهاية رهنا بارتفاع معدل تراكم رؤوس الاموال "(1) هما المخرج من المأزق الذي تردت فيه التنمية الا اذا أخذا بعين الاعتبار الجانب الثقافي والبشري. ذلك أن تجاهل هذا الجانب في التجربة الاولى جعل النخب القائدة تعتقد أنها بـ"التنمية الشاملة "ستحقق السعادة الشاملة والمواطن المشارك. و من هنا يمكن أن نفهم معنى تواجد وتزامن " أقطاب التنمية الصناعية " مع " اجبارية التعليم ". لكن التناغم الوظيفي المنتظر بين الادلوجي والسياسي والاقتصادي لم يسر مثلما توقع له فكان الفشل . فشل نموذج وتدشين نموذج جديد نموذج " التعددية " و " العقود المشتركة ". لكن ما علاقة هذا بالتنمية الريفية ؟

خاتمة

حين يتضح بعد عقدين من تجربة "التعددية " أن "صنصرة" جريدة معارضة كتكوينها ووجود حزب معارض كعدمه وضرب " اتحاد الشغالين " كتأسيس اتحاد آخر مواز ، أفلا يحق التساؤل عن حقيقة " تفتح " الحزب الحاكم ؟

يجوز التساؤل عن حقيقة "تفتحه "عن المؤسسات المعارضة التي ظلت طوال هذه الفترة تنقد السياسة التنموية الاقتصادية والاجتماعية بلغة "العقلنة " التي يفهمها لكن لا يجوز البتة التشكيك في حقيقة أنه " تفتح "فعلا ولكن عن مؤسسات لا شكلية : العائلة ، العشيرة ، القبيلة ، الجهة ... بايجاز كل المؤسسات التي تبنت برامج التنمية الريفية و أنجبت القيمة التنموية الجديدة : الاصالة. فهل ستظل الاصالة مجرد قيمة من قيم التنمية ؟ هناك عدة مؤشرات تدل على أن التنمية تكاد تتحول الى مجرد قيمة من قيم الاصالة . أبسط مثال على ذلك خطاب بعض " المستقلين " أثناء الحملة الانتخابية التشريعية 2 أفريل 1982.

---

1) رمزي زكي - الازمة الراهنة في الفكر التنموي - مجلة 15- 21 - عدد 9 - 1984 .ص47.

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

II التعبئة الاجتماعية

مقدمة

ليس خطأ اعتبار مفهوم التعبئة الاجتماعية مرادفا لمفهوم التنمية فى معنى أن كليهما يرمز الى حالة تحول بين نمطين مجتمعيين التقليدي والحديث . وسنتبين صحة هذا الترادف انطلاقا من أول عنصر نبدأ به حيث سنضبط النموذج المثالي للتحول بشكل عام .

لكن ومقابل ذلك سنسعى أثناء العنصر الذي يليه الى اثبات أن كل منهما اندرج في سياق نظري وتاريخي مغاير لسياق الاخر. فاذا كان مفهوم التنمية قد نشأ في بلدان " العالم الثالث " بعد نهاية الحرب العالمية الثانية وفي غمرة تراجع الاستعمار المباشر وحماس التجارب التنموية الاشتراكية بواسطة الحزب الواحد و الدولة المنمية فان التعبئة الاجتماعية تعود الى فترة زمنية أكثر قدما أي " منذ تأسيس النظام المعاصر للدول العربية ،عند نهاية الحرب العالمية الاولى والذي اكتمل بحصولها على استقلالها بعد الحرب العالمية الثانية . . . كان العرب "عرضة للحداثة " اذ وصلت وسائل الاتصال والتواصل وخاصة المذياع الى أقصى القرى ونمت حركة محو الامية وتدعيم التعليم العمومي وارتفع النمو الديمغرافي والهجرة نحو المدن بما أثر ، بلا ريب ، في قيم وتصورات مئات الالاف من العرب "(1) .

غير أن البلورة النظرية لمفهوم التعبئة الاجتماعية لم تقع بشكل واضح الا في بداية الستينات بفضل اسهامات متعددة أبرزها لكارل دويتش وجينو جرمانسي . هذه البلورة وهذا الاسهام سيقدمان لنا مادة نظرية هامة من حيث أنها تتكهن مسبقا

I) Karl. W. Deutsch. in Michael. C. Hudson. La Théorie de la mobilisation social et la politique arabe.

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

بالنهايات الفاشلة لعديد من التجارب التنموية التي بدأت أوهامها تتعرى شيئا فشيئا منذ نهاية الستينات وتتوضح على امتداد السبعينات. فلنقدم الفرضيتين المواليتين :

أولا : "ان الانظمة السياسية التي لا تفلح حكوماتها في تنمية "القدرات" (capacités) الضرورية لمجابهة "الاعباء" (charges) التي فرضتها التعبئة الاجتماعية ينتظرها بعض التقلبات والفوضى وحتى احتمال الانهيار" (1).

ثانيا : "أن نلاحظ ، اجمالا ، من وجهة نظر التعبئة الاجتماعية ،أن البلدان العربية تنتمي الى صنف "امكان التقلبات المرتفع" (potentiel élevé d'instabilité) وأنها في غالب الاحيان غير مستقرة فعلا هذا كله أمر،لكن أن نعتبر السبب الاساسي لعدم استقرارها هو بنية تعبئتها الاجتماعية ، هو أمر آخر." (2)

ان قيمة هاتين الفرضيتين المقتبستين عن كارل دويتش في تمكيننا من ضبط سبب فشل "التحول التنموي" في تجربة الستينات في مرحلة أولى وطبيعة التجربة الجديدة التي انطلقت منذ بداية السبعينات وخصوصية "التحول" فيها غير القابل للفهم والتحليل الا من خلال نموذج التعبئة الاجتماعية المدعم نظريا بمفهوم اللاتزامنية (asynchronisme) في مستويات التحول وميدانيا بما اكتشفناه من حيوية (vivacité) البنى التقليدية من خلال تجربة التنمية الريفية بتونس في مرحلة ثانية .

1- "التحول" كنموذج مثالي

يفترض التحول نقطتي انطلاق ووصول معلومتين وبين الاثنين توجد تلك المسافة التي نسميها تحولا لانها موسومة في الان نفسه بخصائص وعناصر من المرحلة القديمة آخذة في الزوال وبخصائص وعناصر من المرحلة الجديدة صايرة الى التبلور.

ان تظافر عدة عوامل تاريخية لخصت في "انتشار المعاملات النقدية . . . وتحرير

I) K.W. Deutsh. ibid.

2) K.X. Deutsh. ibid.

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

اليد العاملة وانتقالها الحر... والتعليم ... وفكرة المساواة القانونية ... والنظرة التطورية للانسان والتاريخ"... (1) أدى الى قيام أول تجربة تحول بمثل هذا العمق والتجذر في أوروبا الغربية ووفر المعطيات اللازمة التي مكنت من بناء نماذج نظرية مختلفة للتحول لكن الانجاز الماركسي يبقى أكثرها تميزا وفرادة لانه قدم نظرية كاملة في الانتقال بين عدد من التشكيلات الاجتماعية على امتداد فترة تاريخية طويلة حظي فيها التحول من المجتمع الاقطاعي الى المجتمع الرأسمالي بمكانة كبرى .

وتبدو أعمال بولنتزاس (2) من أكثر الاعمال التي اهتمت بموضوع التحول ، ولربما كانت المسألة التي أثارت انتباهه أكثر من غيرها - رغم أنها لم تغب عن ملاحظة ماركس وانقلز - هي مسألة التفاوت (décalage) في تطور الاصعدة الاقتصادية و السياسية والايديولوجية . صحيح أن التجارب التي درسها بولنتزاس تعتبر كلها تجارب تحول ناجحة (انقلترا - فرنسا - ألمانيا) (3). وغياب أي تجربة تحول فاشلة قد تجعل مقاربة تجارب " العالم الثالث " بنموذج قد ارتبط بالتجارب المذكورة أعلاه ، مقاربة بلا عبرولا دروس. لكننا - على العكس من ذلك - نرى أن ما سجل في تلك التجارب من لا تساو في نمو بنى نمط الانتاج الراسمالي أو التشكيلة الاجتماعية التي يهيمن فيها ، يمكن أن يقوم لدينا مقام " التجربة الفاشلة " وذلك من عدة أوجه :

أولا : ان الاقرار بوجود تفاوت في تطور البنى الفوقية والبنى التحتية أثناء عملية التحول هو تأكيد ضمني - على الاقل - بأن "النموذج المثالي" (Idéaltypique) للتحول هو الذي تتطور فيه بنى الاصعدة المختلفة بنفس السرعة. من هنا اعتبر

---

1) رضا الزواي - التنمية العربية - المأزق والامكان الصعب . دار الرياح الاربع للنشر 1988 - ص 10 - 11 - 12 .

2) Nicos Poulanzas. Pouvoir politique et classes social. MaspéroI980.

3) Ibid. Volume I . pages: I79-I84-I9I.

COLESRIA - BIBLIOTHEQUE

بولنتزاس انقلترا أقرب البلدان الاوربية الى تجسيد هذا النموذج . وهو يلتقي في ذلك حتى مع تصنيف آخر لآلان توران (1) الذي لا يتحدث عن أنماط انتاج وانما عن "أنماط تنمية" (modes de developpement)حيث تلعب النخب القائدة الماسكة بوسائل التغيير ، أي الدولة دورا رياديا في عملية التحول لكن حالة انقلترا تبقى هي "الاستثناء" الوحيد الذي تحول فيه المجتمع بدون أن يكون للنخب ذلك الدور الذي لعبته في ألمانيا البسماركية أو فرنسا البنابرتية .

ثانيا : وحتى لو غضضنا الطرف عن التجربة "الاستثناء" فان الاحكام لن تتفق فاذا كان هناك من يقدم الثورة الفرنسية على أنها المثال "النموذجي" للثورة الاوربية، فهناك من يرى العكس تماما مركزا تارة على الاهمية العددية للبرجوازية الصغيرة و "التأسيس للملكية الصغيرة" (لونتزاس) أو على بقاء الاقتصاد "تقليديا" في جزء كبير منه (كليفورد قيرتز) (2) بهذا البلد .

ثالثا : هل هناك ، حينئذ تجربة تحول تطورت بناها الفوقية والتحتية بنفس السرعة والتوافق والانسجام ؟ هذا الاستفهام الانكاري يصح أيضا على تجارب التحول بأوربا الشرقية وخاصة تجربة الاتحاد السوفياتي التي اعتبر غرامشي ثورتها بأنها "ثورة ضد رأس المال" أي كتاب رأس المال الذي ألفه ماركس (3).

وهكذا يظهر أن القاعدة في التحول هي التفاوت في تطور البنى المميزة لاي نمط مجتمعي ولنا أن نختار أي التجارب أقرب الى واقع البلدان التي تريد أن "تتحول"

I)Alain Touraine. les sociétés degendantes. Duculot. I976- page 38

2) Elbaki Hermassi. Etat et Société au Maghreb. Anthropos I975. page 82/83

3) Maria- Antonietta. Macciocchi. pour Gramsci. Editions du Seuil, I974. page 82.

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

- حتى لا نقول " المتخلفة " - وعلى وجه الخصوص تجربة البلاد التونسيـــة .

2 - مـلامـح " التحـول التنمـوي " في التجربة التونسية أثناء العشرية الاولى

لو اعتبرنا لحظة تكون الدولة الجديدة في تونس وانتقال السلطة السياسية لتلـــك الدولة بين أيد تونسية هي لحظة انطلاق مرحلة التحول واللحظة التي سبقتها المرحلة التقليدية المطروح تخطيها ، ثم تأملنا في وضـــعية البنى الفوقية والبنى التحتيـــة ، لاحظنا بعض العناصر التي تذكر بنموذج التحول الفرنسي منها :

- حضور على الساحة السياسية لصغار الفلاحين سواء من خلال مشاركتهم في النضـال المسلح في الريف أو من خلال انخراطهم ضمن الحزب الذي تصدر قيادة الحركة الوطنية أولا وقيادة التنمية ثانيـــا .

- تفاوت بين بنى سياسة تطمح الى مركزة السلطة السياسية واقامة " الوحـــدة القوميـــة " وعقلنة المجتمع من ناحية وبنى اقتصادية " متخلفـــة " من ناحية أخرى .

اننا ، ارتباطا بهذين العنصرين نستطيع أن نقدم الفرضية التاليـة: كلمـــا توطد التحالف بين البرجوازية الصغيرة الماسكة بجهاز الدولة من جهة وصغـــار الفلاحين من جهة أخرى انهار تبعا لذلك الوزن السياسي لكل منهما في مرحلـــة أولى وحلم تحقيق التحول في مرحلة ثانية . واذا استحال علينا ارجاع ذلك الى وجـود برجوازية - غير موجودة في حالة تونس - تريد ضرب " الملكية الصغيـرة " مثلمـا وقع في التجربة البنابرتية أفلا يجوز لنا الشك في مصداقية قاعدة " التفـاوت " فـي التحول ؟ فلنوجل الجـــواب .

حين صعدت البنابرتية الى سدة الحكم بفرنسا ودخلت في صراع سياسي ضـد من يمثل بقايا المجتمع الارستقراطي ، فقد عبأت والفضل في ذلك يعود الى " التقليـد

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

التاريخي الذي ولد في أذهان الفلاحين الفرنسيين الاعتقاد الاعجازي برجل ... سيعيد لهم مجدهم" (1) عبأت " الفلاحين المجزئين" الذين أدوا دور طبقة " سنيدة" (2) (classe appui) . ووقع التنازل على ضرورات عقلنة الاقتصاد الريفي وأجلت رسملته بشكل أضر بتطور الاقتصاد الرأسمالي وتبعا لذلك بصالح الطبقة البرجوازية .

و التجربة التونسية لم تعدم هي الاخرى نمطا من البنابرتية التي اعترفت بجميل " الفلاقة" في طرد الاستعمار وتركيز أسس الدولة الجديدة . وقد لايدهشنا باديء ذي بدء أن تتحول هذه العلاقة القائمة على أس بهشاشة أس" الاعتراف بالجميل " الى علاقة عضوية عرفت أوجها من خلال تجربة التعاضد الرامية الى تغيير عالم الريف .

لكن حين نذكر أولا بأن الدور المسلح الذي لعبه فلاحو البلاد التونسية لا يقارن بمثيله الذي تميز به فلاحو الجزائر مثلا وبأن الصراع ضد فرنسا لم يكن عسكريا بقدر ما كان سياسيا (يقول بورقيبة : وما أن اعتصموا ("الفلاقة") بالجبال ووقعت بينهم وبين الجيش الفرنسي مصادمات وسالت الدماء ... حتى تغيرت الظروف و رأى الحزب الذي شجعهم على التمرد أن الوقت حان لايقاف الحركة التمردية . . . . و اتجهت (فرنسا) نحو الاعتراف بسيادتنا ...) (3) وأخيرا بأن الدولة هنا لم تكن تتناقض مع برجوازية أو نبالة مثل التي نافست الدولة البنابرتية الفرنسية . حينئذ لا يمكن الا أن يتمالكنا الاستغراب لانه لا شيء يبرر انتقال " الفلاقة" من " ورقه سنيدة" (قياسا على طبقة سنيدة) على طاولة مفاوضات ولت وانتهى أمرها الى قوة اجتماعية حليفة داخل الكتلة السياسية تحت هيمنة البرجوازية الصغيرة

I) K. Marx. le I8 Brumaire de Louis Bonaparte. Edition Sociales I969. page I27.

2) Nicos. Poulantzas. O P . cit, page 65.

3) الحبيب بورقيبة ـ خطاب 18 جانفي 1963. نشر كتابة الدولة للاعلام. 1974. ص 37 .

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

المتعلمة ، الا اذا كان المشروع المجتمعي لهذه الاخيرة له من الخصوصية ما يقتضي ذلك .

لنبدأ بتحديد القوى الاجتماعية التي وحدها الخطاب السياسي اللاطبقي ، فالفلاحون ليسوا وحدهم في كتلة السلطة ، فهناك أيضا نواة طبقة عمالية ولدها قطاع الصناعات الاستخراجية والتحويلية وقطاع النقل التي كان لها ولقيادتها ما تقول في الصراع ضد الاستعمار الى جانب حزب الدستور وقادته أيضا ولو أن الامر لم يخل من تناقض وعنف . ثم كبار الملاكين الذين رسملوا فلاحتهم أو الذين أبقوا على طابعها الاقطاعي . هلا نسينا قوة اجتماعية أخرى؟

بعد ذلك نتساءل : اذا اتفق الجميع على رهان الحداثة كمشروع مجتمعي - وليس لأي كان ما يخسر في ذلك - تحت القيادة الهيمنية للبرجوازية الصغيرة ، فضد من سيكون الصراع من أجل فرض هذا الرهان ؟ أم أن المسار سوف يكون انسيابا لعقلنة صافية من أعلى رأس الكل الاجتماعي - الدولة - الى أسفل مؤسسة به ؟ لقد رأينا سابقا كيف تحطمت أسس هذه الاشكالية الوظيفية العضوانية و تصوراتها وتغافلها عن الطابع الصراعي في علاقة القوى الاجتماعية بعضها ببعض من خلال تنافسها على جهاز الدولة . فلنفترض مؤقتا أن الجميع مع الحداثة و ضد "التخلف" .

أخيرا نصل الى التعليل . تعليل انضمام علاقة الدولة بصغار الفلاحين . ان الدولة البنابرتية حين منعت الرسملة من الاقتراب من الملكية الصغيرة قد خطت خطوة الى الوراء من وجهة نظر العقلنة الاقتصادية لكنها بالمقابل وجهت ضربة سياسية الى الاسترقراطية التي تدافع عن مشروعها المجتمعي " فالجذور التي تزرعها الملكية الصغيرة في الارض الفرنسية تنزع كل عنصر باق للاقطاعية " (1) . أما

I) Nicos Poulantzas. O P. cit. page I30.

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

الدولة في تونس فحين " جمّعت " الملكيات الصغيرة " للفلاقة " فقد تكون " حدثت " - أو على الاقل نوت أن " تحدث " - الاقتصاد ولكن لا ندري أي القوى الاجتماعية الاخرى قد تلقت - سياسيا - هذه الضربة . " فالتخلف " على أية حال ليس مجرد تقنية تعبر عنها الفأس أو المنجل أو خرافة معلقة في الهواء . فلا بد له من قوة اجتماعية تتماهى فيه وتدافع عنه لا طبعا على أنه " تخلف " - فاللفظة مقززة - ولكن ربما على أنه " أصالة " .

و لو لم ينتفض صغار الفلاحين الى جانب كبار الملاكين ولوصاحوا وهللوا الى جانب الدولة : " التعاضد هو الحداثة " لقلنا على الفور ان كبار الملاكين هم عنوان " التخلف " والمدافعين عنه . لكن ما لم تتبن أية قوة اجتماعية الحداثة (حتى الحزب والدولة قد تراجعت عن التعاضد .) فاننا بالمقابل لا نرى - تبعا لذلك - من نلصق به وصمة " التخلف " .

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

III التحـــــــــول ؟

1 - الحراك الاجتماعي والتعبئة الاجتماعيـــة

منذ البداية ، لابد من رفع التباس طالما تسبب في خلط نظري وعملي كبيريـــن بين مصطلحين مختلفين الاول الحراك الاجتماعي (la mobilité sociale)والثانـــي التعبئة الاجتماعية(la mobilisation sociale). الاول له عدد من المرادفـــــات كالرقي الاجتماعي والصعود الاجتماعي التي تتفق جميعا على جملة من الخصائـــــص نلخصها في طابعه العمودي أولا وارتباطه بالتحضر ثانيا وبتفاوت تطور مجموعات المجتمـــع و مستوياته الاقتصادية والسياسية والايديولوجية ثالثـــا .

يعرف الحراك الاجتماعي اذن على أنه ارتقاء اجتماعي يرفع فردا أو مجموعـــة من الافراد درجة أو درجات في سلم التراتب الاجتماعي . فماهي محركات هـــــذا الارتقاء ؟ يرى سوركين أن " كل مجتمع يفرز أواليات موسساتية معقدة يقاد الافـــراد بواسطتها من الموقع الاجتماعي الاصلي الى الموقع الاجتماعي المتحقق ... وهكـــذا في المجتمعات " العسكريـــة " ... يمكن للجيش (وربما الكنيســـة) أن يلعـــب الى جانب العائلة ، دورا أساسيا في العمليات الحركية ... وفي المجتمعـــــــات الصناعية الحديثة تتمثل هيئات التوجيه الرئيسية في العائلة والمدرسة ". وتعمـــل أواليات التوجيه هذه " بشكل لا يكون فيه التوزيع الاحصائي لتوقعات الافـــــراد و مشاريعهم بعيدا جدا عن الامكانيات الموضوعيـــة ". (1) .

باستثناء الربط بين "توقعات الافراد ومشا ريعهم "من جهة و" الامكانيـــات المو ضوعيـــة " من جهة أخرى الذي يتقاطع مع الخاصة الثالثة التي اعتبرناهـــــا أحد أسس الحراك الاجتماعي ، فاننا نلاحظ غيابا للخاصتين الاولى والثانيـــة . ومـــرد

---

1) ر . بودون و ف . بوريكو - المعجم النقدي لعلم الاجتماع . ترجمة الدكتور سليم حداد الموسسة الجامعية لدراسات والنشر والتوزيع . 1986. (الكلام لسوروكين) ص 277 - 278.

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

هذا الاختلاف أن سوركين يعتبر أن ارتقاء أي شخص في السلمية الاجتماعية التقليدية (المجتمعات " العسكرية " هو المثال الذي ذكره) ممكن بواسطة أواليات موسسية كموسسة الجيش أو الموسسة الدينية (الكنيسة). لكن ألا يجدر التذكير هنا بأن معايير عمل هذه الموسسات هي معايير " قوية " تقوم على " السلالة " و " عصبية الدم " و " الولاء الشخصي " بالنسبة للجيش وعلى " المذهبية " و " التشجيع " بالنسبة للموسسة الدينية ؟ وعليه فان الشخص الذي " يتحول " من " الموقع الاجتماعي الاصلي " الى " الموقع الاجتماعي المتحقق " في حقيقة الامر لا يتحول البتة لان الطابع " الوراثي " يجعل المعني بالتحول كما غير المعنيين به يعتبرونه أمرا "طبيعيا". فأجدر بنا اذن أن نعوض لفظة " المتحقق " التي قدمها سوركين بلفظة " الموصوف " أي المحدد مسبقا بالتقاليد. أفلم يكن شرف " امامة جامع الزيتونة " أو لقب " القضاء " حكرا - أو بالاحرى حبسا - على بعض العائلات العريقة في تونس (1) ؟

اننا نعتقد أن الحراك الاجتماعي لم يكن ممكنا الا بعد أن تحررت معاييره من " الشخصي " الى " اللاشخصي " واختزلت في معيار واحد : الجانب المادي. وبلغة علم الاقتصاد ارتفاع الدخل الذي تصبح معه رموز الارتقاء الاجتماعي (لباس - مسكن ...) بضاعة معروضة للاستهلاك أمام كل أصحاب المداخيل المرتفعة أو الطامحين الى رفعها .

وهذا يوصلنا الى العنصر الثاني للحراك الاجتماعي أي التحضر. فلو لم تكن المدينة لما كان لمفهوم الحراك الاجتماعي من معنى . ذلك أن حيز هذه الاخيرة

I)Nicolas. Hopkins. Systéme urbain et developpement au Maghreb , Cères Productions , I980. page: I76.

يمكن اضافة أن " البرجوازية المختزية، فقدت الكثير من امتيازاتها المتمثلة في بعض الوظائف التي كانت حكرا وراثيا في أفرادها والتي سعت الدولة الاستعمارية - التي يقودها مبدأي العقلنة والمردود - الى تعويضها بوظائف جديدة (الخليفة ونائب الجمعية وقع تعويضهما بوظيفتي الكاهية والوكيل) أو ازالتهما تماما مثلما وقع لوظيفة القاضي التي حذفت سنة 1903. بمجرد وفاة القاضي الشهير بن موسى بتستور . (نفس المصدر)ص 176.

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

أوسع من أن يحدده " العائلي " أو " الديني " المتوارث انه حيز السوق ، مجال التنافس بين أفراد ومجموعات يتوسلون وسائل متنوعة ومتجددة ولكنها أولا وأخيرا حضرية أي قوميـــة وعالميـــة قابلة للتسويق والترويج . فالنجومية(le vedettariat)كاحدى التجليات الحديثة للفن والرياضة وبدرجة أقل الاختراع العلمي والوظيفة هي وسائل حراك اجتماعي من حيث أنها لا تستثني أحدا حتى وان كانت آفاق التعليـــــم آخذة في الانسداد فعليا .

وحتى " زواج المصلحة " الذي طبع على السواء المجتمعات التقليديـــــة و المجتمعات الحديثة ليست له نفس المرجعية " المصلحية ". فالظاهرة لهـــــا وجهين مختلفين أحدهما مادي والاخر معنوي (الرفعـة Prestige) ففي المجتمـع الاول يطغى الوجه المعنوي ويستتبع الوجه المادي ولكنه لا يتبعه . انه مجتمـــع " يعطي الاولوية للحراك الافقي " (1) أما في المجتمع الثاني فان ثمة اعتبـــار للرفعة فهي تابعة ونابعة من الوجه المادي . فالمال يصنع كل شيء ويمحي حتـــى الالقاب " الوضيعـة " ان لزم الامر .

وهذا لا يعني أن سكان الريف سيظلون مقصيين من الحراك الاجتماعـــي و انما – وهنا نتقاطع مع العنصر الثالث المميز للحراك الاجتماعي – صعودهـم يقع بعد افتقالهم تدريجيا الى المدينة طبقا لطاقات استيعابها لهم . هكـــــذا كان الامر اجمالا في بلدان نموذجنا المرجعي وعلى منواله قد يكون الامر في تونـــس ابتداء من عشرية السبعينات ، اذ يؤكد ذلك تركز أهم وسائل الحداثـــــة

I) Frej. Stambouli. Système Urbain et developpement au Maghreb. Cères Productions , page: 57.

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

ـ و الحراك الاجتماعي ـ على شريط المدن الساحلية والعاصمة وتكثف برامج التنمية الريفية لتثبيت السكان في ريف لم يحن بعد أوان زواله وحماية لمدينة من أعباء ليست بعد أهلا لتحملها .

غير أن مزيدا من الدفع للمقارنة سيظهر أن التشابه ليس الا خدعة والدليل نتائج تجربة السبعينات التي لاتزال متواصلة الى اليوم : فعوض أن يظل الريف ريفا و المدينة مدينة الى أن تطغي هذه ذاك ويتماهى الكل في النموذج المرجعي ، لاحظنا وجود علامات " حراك اجتماعي " في مكان ـ الريف ـ غير مكانها أو في شكل ـ الاحياء القصديرية ـ غير شكلها ، فهل هي حقا علامات حراك اجتماعي ؟

ان التصريح " بانعدام حراك اجتماعي منظم في اتجاه الفضاء المدني (المدينة) و السياسي (الدولة) " (1) لن يفيد كثيرا لان " التحول " الذي تعرفه البلاد ـ مثل غيرها من الدول " المتخلفة " ـ ليس عمودي الاتجاه فقط بل و أفقيه أيضا .

ان الملاحظات التي قدمها جرماني تبدو ذات أهمية خاصة لا من حيث أنها تميز بين كل من المفهومين فقط وانما أيضا من حيث أنها توضح كيف أن الحراك يكون حينا حالة من حالات التعبئة وحينا آخر حالة لها شيء من الخصوصية والاختلاف .

أولا : يرى أنه في حين " تتضمن التعبئة أي شكل من أشكال التحول (العمودي والافقي) فان الحراك لا يهم الا التحولات ـ الصاعدة أو النازلة ـ على مدى نسق التراتب "(2) ولئن يبدو مفهوم التعبئة الاجتماعية أكثر التصاقا بتجارب التحول

---

1) عبد الوهاب حفيظ ـ صورة للحراك الاجتماعي والسياسي . حالة تونس خلال العهد الحسيني ـ الوحدة . عدد 57 . جوان 1989.

2) Gino- Germani - Politique, Société et Modernisation. Duculot I972. page: I52.

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

في " العالم الثالث" فهذا لا يعني أن أوربا الغربية - وحتى الشرقية - لم تعرف التعبئة . فلم يخل انتقال الريفيين الى المدينة في فترة التراكم الاولى خاصة من تعاسة مادية ومن " تخلف قروي " جسدتهما خير تجسيد " الاحياء الحمراء" مثلما لم تخل تجارب " العالم الثالث " الحالية من حراك اجتماعي مماثل للذي تعرفه " الطبقة العمالية الجديدة " (1) هناك .

ثانيا : سواء تعلق الامر بحراك ببلد " مركزي " أم " محيطي " فانه يعني عموما حركة "باتجاه الصعود أو النزول " و التي " تؤدي الى التخلي عن بعض الوضعيات (statuts) وما يوافقها من أدوار والى اكتساب وضعيات أخرى توافق مواقع أعلى أو أدنى من التي كان يحتلها قبل التحول ". لكن في حالة التعبئة على العكس من ذلك " يمكن للفرد أن " يكتسب وضعيات جديدة دون أن يفقد السابقة أو أن يفقد بعض الوضعيات السابقة دون اكتساب أخرى جديدة ."(2) . إن التحول في شكله الاخير - أي التعبئة - هو الذي سيأخذ الجزء الاكبر من اهتمامنا في فهم سيرورته العامة وخاصة تلك المتعلقة بتجربة اجتماعية - التنمية الريفية - ظاهرها حراك (من الفلاح التقليدي الى الفلاح العصري) وداخلها تعبئة .

ثالثا : وأخيرا نلاحظ أن مفهوم الحراك الاجتماعي يكاد - لدى جرماني - يفقد كل اجرائية و أهمية . فهو يميز بين الحراك التعويضي - حيث يصعد بعض الافراد تعويضا لافراد آخرين نازلين - والحراك الجماعي ، حراك كتل يشمل طبقات كاملة سواء كان ذلك باتجاه الصعود أو النزول " (3) . ان النمط الثاني

---

1) Serge. Mallet. La nouvelle classe Ouvrière. Seuil 1963.
2) Gino . Germani . Ibid. page 152.
3) Gino. Germani. Ibid. page 152.

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

من الحراك هو الذي يمكن اعتباره حالة من حالات التعبئة. أما الاول فليس الا تجسيدا لعمل منتظم للبنية الاجتماعية .

2 - مـــأزق التنميـــــــة

من وجهة نظر نظرية التعبئة الاجتماعية ، يعود سبب فشل التجارب التنمويـــة الشمولية (قدمنا مثال تجربة الستينات في تونس) الى اهمالها طابع التفاوت فـــي التنمية . هذا التفاوت الذي ميزناه عن تفاوت تجارب النموذج المرجعي الغربـــي بلفظة لا تزامنية . ومن وجهة نظر أخرى يقع ادانة التنمية كذلك لانها "كمصطلـــح سياسي أكثر منه اقتصادي أو اجتماعي يحول مفهوم النمو الى عملية لا يتم تحريكهـــا من داخلها أو بذاتها ، وانما تخضع لمن يستخدمها أو يمارسها ..." لذلك فهـــي - أي التنميـــة - " غير مرادفة لذاتها بل هي قناع لما يجب أن يظل خافيا ... عبارة التنمية ليست مضادة للتخلف ، ولاهي تهدد كيانيته ... انها تغطي التخلـف، و تشتغل في غير حيزه ." (1)

يبدو حكم الصفدي على التنمية أكثر صلابة وتجذرا من حكم نظريـة التعبئـة الاجتماعية عليها . فاذا كانت هذه الاخيرة ترى أن عملية التحول ممكنة بشـــرط أن يكون نمو مستوياته (سنراها بأكثر تفصيل في تحديد المفاهيم) الثلاث لاتزامنيـــا ، بحيث يقع ادماج المجموعات والجهات وحتى المؤسسات تدريجيا وتبعا لنمو المستويـات المذكورة أعلاه ، فان الصفدي يقرر أن " المجتمع الذي ينمو هو غير المجتمع الـــذي يتحقق فيه نشاط التنمية ." ولهذا حين " دخل مفهوم التنمية في سياق جهـــد التخطيط والتركيز واستخدام وسائل التغيير " و " ميز القاموس السياسي بين المجتمـــع النامي والمجتمع المتقـدم " فلقد أقيم " حاجزا نوعيا بين التنمية والتقدم " و " قصـــر

---

1) مطاع صفدي - المشروع التنموي المتخلف - الفكر العربي المعاصر - عدد 56/ 57 - 1988 مركز الانماء القومي .

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

المصطلح الاول (التنمية) على نوع المجتمعات التي لا تنمو بفعل واقعها الذاتي ، ولكنها تتطلب جهد الارادة والتخطيط ،جهد تفعيل النمو بفضل قوة أخرى متميزة بشكل ما عن بقية القوى المتوفرة في هذا الواقع ..." (1) .

لكننا سنرى أن هذه الاحالات ، تحيل في جملتها الى اشكاليات هي بدورها لا تطرح الا من خلال نظرية التعبئة الاجتماعية .

أولا : هل هناك تجربة تنموية درست في أي مكان من الكرة الارضية ، تمت بدون "قوة أخرى متميزة عن القوى المتوفرة" تقوم بالتنمية باسمها الخاص وباسم "الامة جمعاء"؟ ليس مهما أن تكون طبقة اجتماعية أو حزبا ثوريا ولكن المهم أن تكون متمايزة - متفاوتة النمو - عن غيرها ،بحيث تبرر لنفسها "مهمة التخطيط واستخدام وسائل التغيير" . ان الصفدي لا يعترض على هذه القوة المتميزة لانها - مثلا - أجنبية استعمارية - فهذا لم يرد في مقاله - و انما فقط لانها "ضرورية" للتنمية التي هي في نظره منتجة "للتخلف" عوضا عن "النمو".

ثانيا : اذا كانت التنمية "غير مرادفة لذاتها" أي "قناعا" للتخلف باعتبار أن هذه الاخيرة "تشتغل في غير حيزه (التخلف)" أفلا نكون قد سقطنا في اشكالية جديدة قديمة : جمود أو ركود مجتمعات "العالم الثالث"؟ اذا كنا لا نستطيع قبول اشكالية "تخلف ثابت" تجاهلته "تنمية تشتغل في غير حيزه" فاننا كذلك لا نستطيع تبني اشكالية "تخلف التخلف" لطابعهما الميتافيزيقي

---

1) مطاع الصفدي - نفس المقال .

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

في شكليه العنصري الانثربولوجي أو الاقتصادوي الليبرالي والماركسي (1).

لكن بالمقابل من الجائز - وهنا نخصص الحديث عن الوطن العربي - الحديث عن " انهيار كامل لنموذج تنموي عام وشامل ، ويتمثل هذا الانهيار في بعض الاحداث التي لا يمكن تصورها في السنوات الستين وحتى بداية السبعينات. فهاهي مصر تستقبل شخصيات اسرائيلية ... وهاهي اليمن الجنوبي تسوي مشاكلها داخل سفارة الاتحاد السوفياتي ... وهاهي بعض البلاد تستعرض اعانة المؤسسات المالية العالمية لها وتشجيعها ..." (2).

ثالثا: ثم أليس التصريح بحدوث " ما لم يكن جائزا " من قبل تصريحا ضمنيا بتحقق "مكاسب" وقع التراجع عنها؟ واذا ما سلمنا بأن ذلك بالفعل كان تراجعا ، فهل كان تراجعا الى حدود نقطة انطلاق " المكاسب المتحققة" ؟ قد يكون الخطاب الديني المتصاعد - في تونس أو في بقية الاقطار العربية - أشد المطالبين بالتراجع لا عما تحقق أثناء عشرية أو اثنين الى الوراء بل تراجعا يطوي عددا من قرون "الانحطاط والجاهلية". وليس بعيدا أن يكون هذا المطلب مدعما بما استشهد به الصفدي نفسه عن ماكس قيبر من " أن التطور العلمي و الفني ، السياسي والاقتصادي لم يسر الا في أوربا على طريق العقلنة التي هي خاصة الغرب." (3) (التسطير من عندي) .

اننا ، في حوصلة لما سبق ، نستطيع أن نزعم بأن كل هذه الاشكاليات مضمنة في مفهوم التعبئة الاجتماعية لانه مفهوم لا ينظر الى التحول في اتجاهه التصاعدي

---

1) حول العنصرية الانثربولوجية راجع خاصة كتاب عبدالباقي الهرماسي (مصدر مذكور سابقا).
أما الميتافيزيقية الاقتصادوية والمميزة خاصة للجناح الهيكلي "لمدرسة التبعية" راجع خاصة :
F.H. Cardoso et E. Faletto- Dépendance et développement en Amérique Latine - P U F . I978.

2) رضا الزواري . مصدر مذكور سابقا . ص 5 .

3) مطاع الصفدي - المقال المذكور سابقا .

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

فحسب بل وخاصة في اتجاهاته الجانبية والخلفية . وان صح هذا فقد لا تكـــون المطالبة بالعودة الى حالة " المجتمع يتفتح من الداخل " كما قال الصفدي أو حالة المجتمع الذي يقطع مع " جاهليته" ويعود الى "فطرته " مثلما تقول بعـــض التوجهات السلفية ، لا تكون هذه المطالبة أكثر من مجرد تسجيل أمر واقع ، تـــم تدشينه حديثا - وان تكن جذوره سابقة - منذ أن تخلت التنمية عن كونهـــا تنميـة - شاملـة - تاركة المجال للتعبئة - حتى وان بقي الخطاب السياسي محافظـا على لفظة التنمية الى يومنا هذا - التي لا تنظر الى " التقليدي "- الفطـــري أو الداخلي - على أنه موضوع تغيير لاحق - مثلما وقع في التجارب الغربية - وانما على أنه غاية من غايات التغيير نفسه ، على أنه الحداثة نفسهـا .

3 - تحـديـد لبعـض مفـاهيـم نظريـة التعبئـة الاجتماعيـــة

أ = البنيـــة الاجتماعيـــة :

هنا يقع التخلي عن المصطلحات الوظيفية العضوية التي ارتبطت بتجارب التنمية مثل " الامة التونسية " و " الوحدة القوميـة " أو حتى التي تعرف استعمـــا لا شائعا ومشتركا كلفظة " مجتمع " ليقع تبني مفهوم البنية الاجتماعية الذي يفـــترض " درجة معينة من الترابط بين مختلف أجزاء المجتمـع " الذي لا يعني "بالضرورة الاندماج أو التوازن أو التناغم " (1) .

ب = مستـــويـات التحليـــل :

ان أردنا ترجمة هذا التحديد النظري ترجمة اجرائية ، فاننا نقول ان دراسة

---

1) Gino. Germani . Op. cit page I9.

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

أي مجتمع أو دولة ـ أمة على أساس أنها بنية سوف يحول دون اهمال الترابط أو بالاحرى التجانس الذي قد يوجد بين مختلف " المجموعات المحلية " أو " الاقليات الدينية أو العرقية " أو " الجهات الداخلية " (1) الاقل تطورا من المجموعة القومية . أو اغفال ما يميز كل واحدة من تلك الجهات أو المجموعات أو الاقليات عن بعضها البعض أولا وعن المجموعة القومية ثانيا . غير أن أخذ هذا التجانس أو ذاك التمايز بعين الاعتبار لا يتم الا من خلال فصل بين ثلاث مستويات من التحليل وهي :

أ و لا : " المستوى " غير المادي " للمحيط الاجتماعي الثقافي ، أي المعايير و أنماط السلوك والقيم والمعارف " غير المجسمة " المتعينة كلها بغض الطرف عن ركائزها البشرية . " (2) وتجدر الاشارة الى أننا كثيرا ما نستعمل عبارة " نظام معايير " أو " النظام المرجعي " متبوعة بنعت " تقليدي " أو " حديث " كمرادف لهذا المستوى .

ثانيا : " مستوى المرفولوجيا الاجتماعية ... وهو " المساحة المادية للمحيط الاجتماعي الثقافي من حيث الحجم والتركيب والانتشار الايكولوجي للمجموعات و الفئات الاجتماعية التي تكون جميعها المجتمع . " (3) و لما كانت القاعدة التي يقوم عليها توزع الجماعات الاجتماعية و الجغرافية هي قاعدة " مادية " أي ذات محتوى كمي يقاس بمقاييس مثل الدخل والثروة وما الى ذلك من نعم

---

1) Gino- Germani. Op . cit . pages: 26-27-28.

2) Gino- Germani . Ibid. page 20.

3) Gino- Germani. Ibid. page 21 .

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

ظاهرة ، فاننا نشير هنا أيضا الى أننا عادة ما نعبر عن هذا المستوى المرفولوجي بما يلمح الى طابعه المادي (مقابل ماهو معياري أو لا مادي) من ناحية والى طابعه الدولوي (نسبة الى الدولة) بعبارة تستجيب في الان نفسه الى هذين الاعتبارين وهي : " المستوى الانجازي ". هذا فضلا عن أن معنى " الانجاز" حاضر في جل الخطب السياسية اليومية سواء كان "انجازا " مباشرا كالذي نلمحه في برامج التنمية الريفية أو غير مباشر كالذي يتم بواسطة رؤوس الاموال المحلية و الاجنبية وتباركه الدولة .

ثالثا : " مستوى التحليل الثالث يعني بالضبط المحتويات النفسية "في معنى " اجتيافها " لنظام المعايير والادوار و الوضعيات والعلاقات الاجتماعية ."(1) ان اهتمامنا اللاحق بهذا المستوى سيبدو ضعيفا الى حد قد يحيله الى مجرد انعكاس تابع للمستوى الاول : المستوى المعياري . لكن هذا ليس رغبة منا في طمس الجانب الديناميكي لتكيف الفرد مع النظام المعياري السائد والمستوى الانجازي الذي يحيط به ، وانما اضطرارا منا لحاجة التبسيط والتركيز على ملامح " التحول "في مظهره الجماعي .

ج = التعبئة النفسية والتعبئة الموضوعية

ان التمييز الذي يقيمه جينو جرماني بين التعبئة النفسية والتعبئة الموضوعية ، غايته ليست صياغة معادة لحضور مستويات عدة في تحويل البنية الاجتماعية . اننا هنا لسنا أمام النموذج المثالي لمفهوم التعبئة الاجتماعية ، وانما أمام مفهومين فرعيين ومختلفين نحتا لتحليل حالتين عينيتين من حالات التعبئة

I) Gino- Germani . Op . cit. page 2I.

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

ذات الهيمنة (à dominante) التي دون أن تقصي مستويين اثنين ، تبجل المستوى الاخر بالمكانة الهيمنية . وفي هذا المعنى يمكن أن نفهم كيف أن " التعبئة النفسية ... (التي هي) تهيوء ... واستعداد للاستجابة ايجابيا الى ارتفاع أو تغيير في المشاركة ... (أو) نزوع ايجابي (actif)" (1) هي في آخر الامر تعبير عن انحلال داخل البنية الاجتماعية يظل يسعى الى اعادة توازنها من خلال تأثير يمارسه على المستويين الاخرين . وقد يصل الى احداث " تحوير " فيهما وبالتالي في البنية الاجتماعية ككل ، لكن ألا يوء دي عجزه عن تجاوز حدود التغيير " التحويري " الى حيث التغيير " الجذري " الى فقدانه لصفته الهيمنية أولا ؟ واستحالة تعبئة موضوعية بتأثير منه ثانيا ؟

ان تعريف جرماني للتعبئة الموضوعية بأنها " اجابة ايجابية في شكل سلوك فعلي (هجرة نحو المدينة ، مساهمة في حركة سياسية أو اجتماعية جديدة) " هو تأكيد لهذا الافتراض على الاقل في الحالات التي لا تعرف هجرة كبيرة - أو لا تكاد تعرفها - نحو المدن وهو ما نعارضه انطلاقا من بعض الملاحظات الميدانية و نكتفي بالموواليتين :

- لكي تتحول التعبئة النفسية الى تعبئة موضوعية فهي ليست دائما في حاجة الى هجرة باتجاه المدينة والاستقرار بها . فقد رأينا في مثالي ميدون وبنقردان كيف استطاع الريفيون احداث تغيير كبير على "المستوى الانجازي " بتأثير من التعبئة النفسية . وقد تجلت هذه " الانجازات " في ما عرضناه سابقا من مساكن و مشاريع تجارية وسيارات ... لكن هذا لم يحدث بتغيير لنظام المعايير التقليدي و انما بفضله .

- من ناحية أخرى فان مشاركة الريفيين في "الحركات السياسية أو الاجتماعية"

---

2) Gino- Germani. Op. cit. page I50.

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

ليست خاصة من خاصيات الذين انتقلوا منهم الى " الحزام الاحمر " الـــذي يطوف العاصمة وبعض المدن الكبرى الاخرى وانما أيضا خاصة من خاصيات مـــن بقوا منهم في ريفهم . وكل الاحداث التي جدت منذ السبعينات الى آخـــر الثمانينات ما فتئت تثبت انخراط الريف - مهما تكن الاشكال - في الممارســـة السياسية والاجتماعية للبـلاد .

4- مـن التنميـــة الشاملـة الـى التعبئـة ذات الابعـاد المتعددة

أ / : ازالة " الاوهام التنمويـــة "

" بقدر ما تكون الاجور أو المداخيل عادلة بقدر ما تتحقق التنمية الريفيـة ثم تتحقق تنمية المجتمع ككل ، وتتقلص الفوارق بين سكان الارياف والمدن ويزداد الانتاج، و تشعر جميع الفئات بالعدالة الاجتماعية وبقدرة السلطة المركزية على توزيع الامـــوال و تنظيم المجتمع بصفة محكمة ، وبقدر ما تكون الاجور متفاوتة بقدر ما يكون اقتصـاد البلاد غير متوازن ، ولا يحصل التوازن والتكامل الجهوي المنشود ولا تتحقق السلـــم الاجتماعية في اطار التناقضات والانقسامات . " (1)

اننا نستطيع تلخيص عيوب هذه الفرضية في النقاط التالية :

- النقطـــة الاولـــى

رغم أنها فرضية تندرج في اطار دراسة حديثة حول تجربة تفصلها عنهـــا مدة لا تقل عن أثني عشرة سنة ، فانها لم تأخذ بعين الاعتبار التطورات التي طرأت

---

1)سالم الدغري - تجربة التنمية الريفية بتونس- أطروحة لنيل شهـادة التعمق في البحث . كلية الاداب والعلوم الانسانية بتونس . 1984. ص28 .

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

على كيفية اسناد الاعانات والتي حولها التوجه الجديد للبرنامج من مجرد عطية الى قرض وما يتبع ذلك من شروط في اسنادها الى المنتفعين ، شروط أطنبنا في تعدادها في معرض حديثنا عن اعادة توجيه البرنامج من " التنمية الريفية" الى "التنمية الريفية المندمجة ".

- النقطة الثانية

وغفلة الدراسة عن هذا التحول ، جعل عبارات هذه الفرضية مجرد ألفاظ متناغمة تشي من ناحية بأسر الخطاب السياسي التنموي التبشيري الذي ساد أثناء العشرية الاولى ولو أن جذوره قد نبتت قبل ذلك بكثير ، فلقد بشر كل الفئات - حتى لا نقول طبقات - والشرائح " بمرابيح الاستقلال " (1) "جزاء " لما بذل في مقاومة الاستعمار ، وهي ألفاظ - من ناحية أخرى - تكذبها الوقائع. فلو افترضنا تحقق الامكانية الاولى من الفرضية ، أي " تحقق " التنمية الريفية فهل كان ذلك نتيجة للتوزيع العادل "للاجور والمداخيل" وسببا في " تقلص الفوارق بين سكان الارياف والمدن " ؟

اننا اذ نفند هذه الامكانية ونرفض هذا الربط بين مختلف عناصرها فاننا لا نخشى في ذلك مغبة السقوط في خلط بين وضعيات مختلفة أو في تعميم لخصائص جهوية على جهات أخرى متباينة معها لاننا لاحظنا هذا الاتفاق في ولاية مدنين و سيدي بوزيد والقيروان و لاننا أيضا سجلنا أن النصوص المنظمة لكل برامج

---

1) الحبيب بورقيبة - خطب - نشر كتابة الدولة للاعلام - تونس 1974. وفي خطاب بعنوان " حتى يطمئن أهل الريف " يقول : ((ولا يخفى عليكم أن للحكومة شواغل كبيرة ، ولها مشاكل تتجدد في كل يوم خاصة مع فرنسا . . . ثم ان الحكومة بعد أن تفجر هذه المياه ستقسم الاراضي التي تسقيها وتوزعها عليكم (التسطير من عندي)) جبنيانة 25 فيفري 1957.

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

التنمية الريفية واحدة ، وعدم قابلية فرضية ما للتعميم - كالتي يقدمها الدغري - تزيل عنها كل مشروعية علمية .

أما اذا افترضنا - جدلا - "تحقق" الامكانية الثانية من نفس الفرضية فهل يمكننا اقامة علاقة سببية بين " اقتصاد البلاد غير المتوازن " و " تفاوت الاجور " اذا كان توازن الاقتصاد نفسه - مثلما سنرى في العنصر الموالي - لا يتحقق فقط " بتفاوت الاجور " بل وأيضا باجتثاث لفظة " أجر " من الريف و تعويضها بلفظة أخرى " مورد الرزق " . وبين الاثنين مسافة هي المسافة بين المدينة و الريف ، واذا - أخيرا - كانت أسهل الامور رد غياب " السلم الاجتماعية " (أي تفسير مظاهرة أو انتفاضة شعبية في الريف التونسي) في أحد أسبابه الى " الاجور المتفاوتة " أو الى حرمان من اعانة التنمية الريفية فليس أقل سهولة من دحض ذلك أيضا باظهار الطابع " الشخصي " " العشائري " للسلوكات السياسية الظاهرة والتي لا تستثني من لم ينتفع ممن انتفع بنصيب من التنمية الريفية . (1)

- النقطة الثالثة

ان مثل هذه الفرضية تبدو في آخر الامر لا خاطئة مثلما بينا فيما كنا نقول وانما "مغلوطة" لانها تريد أن تتثبت من مدى امكان أحلام و تناسق افتراضات تنتمي الى خطاب سياسي لم يعد هو نفسه يبشر بانجازها اللهم ما استبقاه من باب الوظيفة الايديولوجية البحتة . ولهذا فان استخراج المرامي الاساسية

---

1) ان سلوك التعويل على العلاقات العائلية والعشائرية والجهوية للاستيلاء على منظمة حزبية أو نقابية أو غيرها لغاية التأثير في مواقفها وقراراتها أمر عادي في الريف ولكنه غير مستبعد في المدينة أيضا .

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

الفعلية لبرنامج التنمية الريفية لم يكن يحتاج "لقراءة أعراضية" (كالتي قام بها ألتوسير لرأسمال ماركس) فهي واضحة في الخطب الرسمية - برغم الغشاء الايديولوجي - و يمكن حصرها فيما يلي :

أ و لا : سياسة الحد الادنى

ان ارضاء الرغبة "الطفولية" لصغار الفلاحين بارجاع أراضيهم التي جمعها التعاضد لم تعد كافية - فهذا لم يكن سوى حقا مكتسبا قد استرجع - لذا فلا مناص من تحجيم مطامعهم الى الحد الادنى وهذا لا يتم بغير "تقزيم" لهؤلاء الفلاحين أنفسهم وذلك بالحط من قيمتهم أو بالاحرى وضعهم في حجمهم الحقيقي : الذين "سميناهم فيما بعد المقاومين" بعد أن "استنكفوا من كلمة فلاقة" تتحمل الدولة مسؤوليتهم لانهم فقط "اخوان لنا في الدين واللغة والوطن" يجب "رفعهم الى منزلة البشر".
لذا فان الحياة التي تواني درجة البشر أي "الحياة المحترمة في الريف ... يكفي أن تكون محققة قبل كل شيء (التسطير من عندي) موردا للرزق ... في انتظار أن يجد شغلا" وبهذه الطريقة لم يعد من حق سكان الريف المطالبة بالمزيد .

ثانيا : سياسة الرقابة

واذا بدا "الاعتناء بالسكن بالارياف" الذي تتوفر فيه "أسباب العيش الكريم من ماء و كهرباء وجهاز راديو" امتدادا لما بدأ فيه من رفع لصغار الفلاحين من "درجة اجتماعية منحطة ... حالة خمول و يأس من الحياة" فان دوافعها الوقائية ليست خافية في الخطاب نفسه لان غياب التجمعات السكنية في الارياف معناه "تشتت السكان في أكواخ منعزلة" و يحول الريفي الى "مصدر اساءة للمجتمع فيتكاثر نسله" . وفي الحالتين يفلت من الرقابة الاجتماعية المادية (بسبب الترحال)

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

و الايديولوجية (غياب التلفزة والراديو) فيكثر نسله وتتضاعف هجرته تجاه المدينة و هنا الخطر.

وبعد هذا ، هل من دليل آخر على الطابع اللامتساوي للسياسة التنموية التي انطلقت منذ السبعينات؟ الان بعد أن توضحت لنا المزالق النظرية والعملية لمصطلح التنمية - كتنمية شاملة - نستبدله بمصطلح التعبئة. أما نعت اللامتساوي (أو المتفاوت) فنعوضه بنعت اللامتزامن . واذا كنا قد وضحنا معنى التعبئة فيجب الان توضيح معنى اللا تزامنية .

ب/ : فرضية عدد 1

بقدرما تتقدم الحداثة بالمدينة في مستواها "الانجازي " بفضل ما يغدق عليها من موارد بقدرما " تركد "في الريف بسبب شح ما يعتمد له منها . وبالتوازي مع ذينك التوجهين المتعاكسين يتماهى ساكن المدينة في نظام معايير الحداثة و قيم المواطنة في حين يتشبث ساكن الريف بنظام معايير التقليدية وقيم القرابة .

اننا لن نزعم بأن هناك من قرأ تجربة التعبئة الاجتماعية المتواصلة منذ السبعينات قراءة بمثل ما تقرؤها هذه الفرضية التي تحيل معنى اللا تزامنية الى تبسيطية مبالغ فيها ومع ذلك فان عددا غزيرا من الدراسات نحى منحى مشابها . فحسب البعض منها يمكن التأكيد " اليوم بأنه وقع اقتلاع قطاع الفلاحة الما قبل رأسمالية ، أو في أفضل الحالات اخضاعه لفائدة رأس المال ، اخضاع واقتلاع أشد من اللذين حدثا سنة 1962." (1)

I) Khaled El Mannoubi - Abdeljalil Bedoui . Economie Tunisienne , Etat et Capital Mondial . Cahiers du CERES . N° 5/ I987. page97

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

أليس في تدرج اتجاه الاقتصاد الريفي التقليدي تأكيد لمنطق المرور من السي ء (الاخضاع) الى ماهو أسوأ منه (الاقتلاع) خدمة في المقابل للاتجاه الاخـــــر ـ المعاكس ـ اتجاه الاقتصاد المديني الذي يستفيد رأسماله أكثر فأكثـــــــر. و الواقع ان هذه القراءة ينطبق عليها تمام الانطباق أطروحة رايت ميلز حـــــول " السلطة حاصل صفر " (le pouvoir somme - zéro) و " المقصـــود، هو بشكل ما ، اعتبار السلطة كمية معطاة داخل المجتمع . وكل طبقة أو مجموعـــة اجتماعية لها ـ تبعا لذلك ـ سلطة تساوي ما لا تملكه الاخرى. وكل تنقيـــــص، على سبيل المثال ، من سلطة مجموعة اجتماعية ما يترجم مباشرة برفع في سلطة مجموعة أخرى. وهكذا بحيث حين يتبدل توزع السلطة فان هذه الاخيرة تبقى دائما كميـــة ثابتة " (1).

ان ما سنقوم به من عرض لمتغيرات مختلفة لن يوضح فحسب هذا النمـــــر المادي " الحاصل ـ صفر " الموزع بين المدينة والريف بل وخاصة الى أي مـــدى تصح الصورة أيضا على المستوى المعياري بين التقليدي والحديث.

ـ الملكيـــــــة

أغلب سكان الريف من ذوي الملكيات الصغيرة التي تنحصر غالبا في حـــدود خمسة هكتارات وأقل من ذلك . ومنتفعو التنمية الريفية هم في أغلبيتهم الساحقـــة من هؤلاء . ورغم أن عددا كبيرا ممن تحدثنا معهم في بحثنا الميداني قد صرحـوا بتملكهم العائلي أو العشائري (مشاعي) لاراضي أخرى بيضاء ، فهي لا تصلـــــح

I) Nicos Poulantzas. Op. cit. pages: I22- I23.

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

اذا صلحت الا للرعي . ولهذا فلا غرابة أن لا تمثل أراضي " صغار الفلاحين - رغم تغطيتها لـ 44 ٪ . من الملكيات - الا 8 ٪ . من الاراضي الصالحة للزراعة". (1) و حتى لو سلمنا بوجود هذا التوزيع غير العادل للاراضي منذ حقب بعيدة فعلى الدولة - في اطار عقلنة جديدة شعارها : الانتاج التصديري - مطالبة باقامته بنفسها .

ولقد كانت النتائج التي ختم بها بحث سوسيولوجيا سد تأكيدا واضحا لما نقول : " لمجابهة نقص المياه الناجم عن الاستغلال المفرط للطبقة الجوفية الذي ترتب بدوره عن توسع الزراعات التصديرية والتحضر والسياحة ، سعت الدولة التونسية الى تطبيق سياسة سدود كبيرة... وقد أدى هذا الاختيار - الذي أنجز طوال العشرية الاخيرة - الى ما نراه اليوم سنة 1984 : ضخ كثيف للمياه المتأتية من داخل البلاد المختص بزراعة الحبوب - الزراعة المعاشية - نحو الشريط الساحلي المختص في الحوامض والبقول وذي الكثافة الحضرية .

وهكذا - على وادي مجردة التابع من الجزائر - بين سنتي 1977 و 1981 و في الجهة الداخلية من الشمال الغربي ، وقع تشييد سدا عظيما : سد "سيدي سالم"... و حين يقام سد يتعارض منطقان : منطق الدولة - الامة ومنطق المجموعات الريفية التي تتجه قاعدتها نحو التلاشي ." (2)

فهل كان ممكنا ، والحال تلك ، التوفيق بين منطقي (أو متناقضي) " الامن

I) Khalil Zamiti. Le Sens du phénoméne migratoine à l'échelle Villageoise. R.T.S.S.page 33.

2) Khalil Zamiti .Sociologie d'un barrage. OP. cité. page I42.

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

الغذائي " و " الاكتفاء الغذائي " (1)؟ بصورة أوضح هل يمكن عدم المساس بالاراضي التي تسمح بتحقيق الاول لفائدة أغلبية الفلاحين الصغار دون المس من حاجة المدينة لانتاج فلاحي يرفع مداخيلها من العملة الصعبة ويسند ظهر صناعتها ؟ لو كان التوفيق ممكنا لقلنا أن الدولة عادت الى منطق " التنمية " - الشاملة - التي تحاول عبثا - أو تدعي - مقرطة توزيع الخيرات . والحقيقة أن التناقض " بين الديمقراطية والتراكم البدائي " (2) لا راد له .

و في تناسق مع هذا المستوى " الانجازي " للتعبئة الاجتماعية يظهر المستوى الاخر من هذه العملية مستوى النظام المعياري من خلال هذه الجملة لامرأة لا تملك أرضا عبرت عن رأي بعد أن علمت برحيل وزير الاقتصاد الوطني أحمد بن صالح وانتهاء تجربة التعاضد : " أنا مسلمة وأشارك اخواني المسلمين الذين يملكون أراضي فرحتهم " (3). واذا كانت المرجعية المعيارية التقليدية - الاسلامية هنا - تحرم تمليك من لا يملك بافتكاك أرض من يملك ، فماهو حكمها في وضعية فلاحي " سيدي سالم " ؟ أليس في الامر افتكاك لاراضي " فلاحين صغار " لفائدة " فلاحين كبار " ؟

يقدم لنا المستوى النفسي - وحسب نفس الدراسة طبعا - ردود فعل مختلفة بين من " قدمت لهم تعويضات بقطع أرض أخرى " ومن لم يحصل على أكثر من " تعويض نقدي أدى الى حالة سوء التغذية " أو من عبر عن غضبه " برفض دفع القسط الشهري للمسكن الذي وقع نقله اليه " (4) وبامكاننا أن نتخيل نحن

---

1) محمود بن رمضان - سبل تحقيق الاستقلال الغذائي - الطريق الجديد 12 جانفي 1985 .

2) Khalil Zamiti . Ibid. page I90.

3) Ridha Boukrâa . Notes sur " Culture et pauvreté" le cas d'une cité populaire à Jendouba . R.T.S.S. Déc I97I. nº 27. page: I96.

4) Khalil Zamiti. Op. cit. page

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

أيضا وضعيات من مثل التي يعتبر فيها الفلاح التعويض المالي أقل من القيمة التي تستحقها أرضه أو من كان غضبه لا بسبب ضعف التعويض المالي وانما حبا شديدا لارضه ... لكنها تبقى ردود فعل داخل الاطار المعياري التقليدي وان جاء بعضها عن هذا الاطار فليس له على أية حال اطار خاص به . وحتى سلوك الدولة نفسه لم يخرج عن النظام المعياري التقليدي - الاسلامي -، " فالصلحة العامة " و " البيع والشراء " و "التعويض " هي ممارسات مشروعة و لا يمكن البتة مقارنتها بما كان سائدا أثناء الستينات من " تجميع بالقوة " وبدون مقابل " لاراضي المسلمين ".

- "موطن الشغل"

قلنا في الفقرة السابقة أن ردود فعل الغضب التي يبديها صغار الفلاحين رغم - وفي - تنوعها لا تقع خارج النظام المعياري التقليدي . وهذا لا يعني بطبيعة الحال أنهم كانوا سيرفضون " بديلا مدينيا " أي مواطن شغل في احدى أقرب المدن الساحلية ، فالدولة لم تفعل ولم يخطر على بالها أن تفعل ذلك . وهم أيضا - وهذا أساسي - لم يكن لهم في نظامهم المعياري التقليدي الا صورة ضبابية عن نمط العيش الذي يرتبط بمفهوم موطن الشغل بكل ما في هذه العبارة من معاني نفسية ثقافية اقتصادية . ان ذلك لا ينفصل عن عزلة كل منهم و " تجزء هم الذي يحرمهم من متع الشارع ، والشعور بالانتماء الى تجمع حضاري والاحتكاك بالجماهير .." (1).

و مهما تكن ايجابيات موطن الشغل الذي يرتبط بالنظام المعياري الحديث

---

1)- جوزيف بسكيدو - (مؤلف كتاب العقل).

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

فان التجربة التي انخرط فيها بعض صغار الفلاحين سواء في تونس أو الجزائر من خلال " الاصلاح الزراعي " بينت أن ما اعتبر " تسييرا ذاتيا " أو رقيبا بالفلاحين كان خيبة كبرى وهذا لا فقط لان الجرايات الشهرية للعمال تصل متأخرة بعد أشهر أو لان البيروقراطية تقتل كل طاقة ابداعية أو رغبة في المشاركة لدى هؤلاء ولكن - ولعله أساسي - لان النظام المعياري في الريف ظل تقليديا اسلاميا ولقد كان حكمه على " التنظيم العقلاني " للعمل بعد سبع سنوات من تجربة التعاضد بليغا على لسان تلك المرأة التي لم تكن تملك شيئا .

كما أكدت الدراسة التي أنجزناها في بنقردان سنة 1985 والتي ألمحنا اليها في أحد الاجزاء السابقة من هذا العمل ، ودون عودة الى كل التفاصيل أن 25 ٪ . من العينة التي سئلت هي النسبة الوحيدة التي حين طالبت من الدولة بمواطن الشغل ، كانت بالفعل تعني ما تقول . أما البقية فقد كانت أجوبتهم تدل على أن ما يطالبون به غير ذلك تماما ... واذا افترضنا - وهذا غير صعب - أن النظام المعياري لسكان جهة "سد سيدي سالم" ممثلا للذي في بنقردان ، فان ردود فعلهم لن تخرج - وهي لم تخرج - عن حدود المعايير معايير اعتبار الدولة فوق الجميع أو "موطن الضعفاء" مثلما ورد في احدى رسائل هؤلاء الفلاحين الى الوزير الاول و المطالبة لا بموطن شغل وانما " بمورد رزق " (في رسالة أخرى) (1) .

- الاستهلاك

" في آخر تحقيق حول الاستهلاك في عام 1980 .. (كانت) الفروق في مستوى المعيشة بين المدن والارياف تتفاقم فبينما كان معدل مصاريف الفرد سنويا

I) Khalil Zamiti. Sociologie d'un barrage. OP. cité. page

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

في سنة 1966 يساوي في المدينة 1ر98 مرة ما هو عليه في الريف ، أصبح معدل مصروف أهل المدن يساوي 2ر11 مرة مصروف أهل الريف ..." (1). ان هذه الاحصائية ان هذه الاحصائية مقدمة على هذا الشكل لا يمكن أن تكون الا تأكيدا لما جاء في فرضيتنا عدد 1. فما قد نلاحظه في مناطق ريفية من سلوكات استهلاك فردية غير متناسقة مع مستوى الكفاف الذي من المفروض أن يكون عليه الريف ليس دليلا على تمايز اجتماعي وانما - ومرجعنا دائما البحث الميداني - مجرد قيم استعمالية لان الفيلا أو السيارة ليست الا فضاءات موظفة فيما هو أشمل من الفرد العادي أو الاسرة - العائلة الزوجية -. وليس عجيبا أن نرى شيوع استعمال سيارة ال 404 القادرة على حمل الاغنام والخضروات والزياتين وأمتعة " الكنترة" أيضا (2).

- الاعـــــــلام

اذا أمكن للدولة أن تعزل سكان الريف موقفة تعبئتهم (démobilisation) على المستوى المادي وذلك باقصاءهم مثلما رأينا في متغيرات الملكية والشغل والاستهلاك ، فلاشيء يدل على أنها قادرة على ذلك على المستوى المعياري . فهذا لا علاقة له بتوزيع للثروات المادية لانه يتصل "بتوزيع" آخر أو اذا شئنا بنشر رسائل ذات محتوى ايديولوجي ميزتيه الاساسيتين التوحيد والادماج الظاهريتي في " محتوى خفي .. (يعبر عن) ارادة لتفكيك الثقافة الريفية التقليدية ... وارادة لادماج الريفيين في ثقافة مدينية تكنولوجية قومية ." (3).

---

1) محمود بن رمضان - مقال مذكور سابقا

2) فتحي الرقيق - الهجرة والسكن في بنقردان - شهادة الكفاءة في البحث - كلية الاداب والعلوم الانسانية أكتوبر 1985 .

3) Mohamed Hamdane. Communication et milieu rural en Tunisie (Résumé de la thése de doctorat d'Etat . Bordeau III. I984.in l'action du I9 juillet I984. n° 3465.

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

لكن صاحب هذه الاطروحة يرى أن "مهمة وسائل الاعلام قد منيت بالفشل وزاد تشبث الريفيين بالتقاليد" والسبب الرئيسي في ذلك يعود حسب رأيه دائما الى أن "الرسائل الموجهة للفلاحين من قبل الدولة ... تعكس اهتمامات هذه الاخيرة أكثر بكثير مما تعكس مشاكل وحاجات هؤلاء" (1) ومن وجهة النظر هذه، فان علامة نجاح الاعلام تكمن في أن يتقبل الريفي الرسائل الموجهة اليه مثلما يتقبلها المديني، لكن أنى له ذلك والحال أن التعبئة "الانجازية" التي عرفها تختلف عن التي حظي بها الاخر. فهل نلوم الاذاعتين المرئية والمسموعة لان بدويا قاطع مسكنا شعبيا مغلقا بأربع حيطان ولا مكان فيه لقطيع الغنم أو ريفيا أدار ظهره للتنظيم العائلي اذا كانت طبيعة مورد رزقه تتطلب "وفرة العيال"؟

اننا لا نرى اذن تناقضا بين "تشبث الريفي بالتقاليد" و "اهتمامات الدولة". وعليه فما قامت به وسائل الاعلام ليس فشلا بل نجاحا للدولة في تحقيق تعبئة لا متزامنة بين الريف والمدينة. لكن ومع ذلك يبقى سؤال مهم لم نجب عنه: ألا يمثل المنحنى التوحيدي الادماجي للخطاب الايديولوجي الاعلامي خطرا يهدد لا تزامنية نمو مستويات التعبئة الاجتماعية خاصة اذا ذكرنا بما للتعبئة النفسية والمعيارية من أثر في النفوس التي قد يطول احباطها "الانجازي"؟

مما لا شك فيه أن كل النماذج التوحيدية التي عرفها التاريخ الحديث وخاصة التي وقعت بواسطة البرجوازيات الغربية في القرنين الثامن والتاسع عشر أو التي حدثت في القرن العشرين بواسطة أحزاب ثورية شيوعية، كانت كلها نماذج تنموية جهوية في بداياتها (أي وقع البدء في تنمية المدينة أولا) لكنها تمتعت بظرفين مواتيين أولهما أن تحول الافراد والجماعات الاولية (القروية الريفية ...) كان يتم بالتناسب مع قدرة المجموعات

I) Ibid.

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

الجديدة (الطبقة - الامة) على ادماجهم فلم يكن الريفي ليصبح مواطنا من مواطني الامة الا اذا أصبح منتميا الى احدى الطبقتين (دون الدخول في الجزئيات المرتبطة بكل حالة تاريخية) البرجوازية والعمالية في الحالة الاولى والبيروقراطية والبروليتاريا في الحالة الثانية .

أما الظرف الثاني ، فهو أن وسائل الاعلام لم تكن معممة بالشكل الذي تخلق فيه تعبئة معيارية أو نفسية تفوق بكثير ما هو ممكن على المستوى الانجازي . وهذا لا يعني طبعا أن المدن الغربية - خاصة - لم تعرف البطالة ولا حتى " أحياء تعاسة " داخلها ؛ بل ان تلك البطالة وهذه التعاسة قد كونتا طاقات عولت عليها الصناعة لتركيم الراسمال ولادماج النازحين في مرحلة أولى ثم التهيوء لاستقبال غيرهم في مرحلة ثانية . أما في " البلدان المتخلفة " فان التعبئة المعيارية والنفسية كانت قد بدأت مثلما أشار الى ذلك كارل دويتش منذ دخول الاستعمار في حين لم تبدأ التعبئة " الانجازية " الا مع تكون الدول الجديدة المُنمية .

ولنا أن نضيف الى هذين التفسيرين واحدا ثالثا وهو حاجة نخب البرجوازية الصغيرة في هذه الدول الاخيرة بحكم ضعف قاعدتها الاقتصادية والاجتماعية (أي المادية) و التهيوء النفسي والمعياري لجميع الفئات "لنيل نصيبها من الاستقلال " الى خطاب توحيدي في المستوى الفوقي لتغطية تناقضات المستوى التحتي .

لكن ، لو كانت النتيجة المنطقية لمثل هذه الملاحظات مجرد تسجيل تطور أسرع لاحد مستويات التعبئة بالنسبة للاخرى ، فقد يجوز تأكيد صحة ما جاء في الفرضية عدد 1. أما وأن الدراسات الميدانية قد أثبتت أن الريفيين - دون أن يكونوا تجمعات حضرية كالتي في المدينة - بصدد انشاء حواضر في اتساع متواصل ، وهذا ان يكن ظاهريا في اتساق مع قيم الحداثة الكامنة في نظام المعايير المديني فانه لم يكن ليتحقق الا بواسطة

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

النظام المعياري التقليدي المتصارع معه . وهذه النتيجة اذ تدحض الفرضية الاولى فانها تفسح المجال لفرضية ثانية .

ج / : فرضية عدد 2

ان التطور " الانجازي " للمدينة لا يتمفصل ضرورة مع " تخلف " " انجازي " للريف . ويتبع هذا على المستوى المعياري أن تفاعل النظام المعياري التقليدي بنظام المعايير العصري سوف لن يؤدي الى امتصاص الثاني للاول وانما على العكس الا ابتلاع الاول من قبل الثاني .

ان تحليل مضمون هذه الفرضية يمر بالمرحلتين المواليتين :

أولا : اذا كان سهلا علينا ابراز فشل برامج التنمية الريفية في ايقاف تعبئة الريفيين من خلال استعراض لحالات ممكنة (بالمفهوم التعبيري للكلمة) من دراستنا الميدانية لثلاث جهات : ميدون وبنقردان وسيدي مخلوف فان سؤالا يطرح نفسه : لماذا - رغم هذا الفشل - تتواصل وتتدعم تلك البرامج ؟

ثانيا : حين يتعايش مع التطور المادي للريف (التحولات السكنية و الاقبال على الوظيفة والتعليم ...) نظام معياري تقليدي ألا يسقط مفهوم اللاتزامنية نفسه ؟ لغويا اللاتزامنية تفترض سرعة لا متزامنة لأبعاد عملية التعبئة الاجتماعية غير أن اختلاف السرعة لا ينفي نقطة وصول واحدة. ولا يستبعد بالتالي زمنا تلتحق فيه كل المستويات بعضها ببعض .

لو واصلنا مع هذا المنحى التحليلي لبقينا داخل الاطار الاقتصادوي للفرضية الاولى . لذا فنحن مطالبون نظريا وعينيا باثبات لا تدعم البنى التقليدية بفضل الحداثة

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

و لفائدتهـــا وانما عكس ذلك تدعم الحداثة بفضل ولفائدة البنى التقليدية. ليس في الامر تلاعبا بالالفاظ وانما قد يكون منطلقا لاعادة تعريف الحداثة أي التنمية (اذا حافظنـــا على خطاب الستينات) أو المشروع المجتمعي الجديـد (اذا أردنا لغة اليوم) والمقصود هنا تونـــس .

ـــ نتائج التنمية الريفيـــة

وبعد ، هل من جواب مغلق عن " السؤال المغلق ": هل نجحت التنميـــة الريفية في ايقاف أو الحد من النزوح ؟ لنطرح مسألة الايقاف جانبا فهي مستحيلـــة و لنتحدث عن الحد من النزوح . ولنغض الطرف أيضا عن الجواب المغلـــق لا لان الملاحظات التي سنقدمها بعد قليل يستحيل معها الحصول على جواب بنعم أو لا وانما لاننا نستطيع الحصول على اجابتين على نفس السؤال واحدة بنعم وأخرى بلا .

لقد قسمنا البلاد تقسيما فاصلا بين الشريط الساحلي وداخل البلاد وهـــذا يطرح عدة صاعب . فهل أن الهجـرة من منطقة ساحلية الى أخرى ساحلية نزوحا أم لا ؟ فقد يكون كذلك من وجهة نظر احصائية بحتة ذلك أن الخروج من قرية باتجاه مدينة ساحليتين هو نزوح ولكنه في الاشكالية التي كيفت وقادت عملنا وتقسيمنا للبـــلاد غير ذلك . ومن منظور آخر، فهل أن نزوحا من عمادة من داخل البلاد باتجاه معتمدية قريبة منها هو أيضا نزوح ؟ الجواب هو تقريبا نفس الجواب السابق . ومع ذلك فـــان المدلول يختلف تمام الاختلاف نفسيا ومعياريا وماديا . ان ما يميز الحضر عن الريـف حسب التعريف الاحصائي الرسمي هو الانتماء الى المنطقة البلدية وهذا مطبق علـــى الجهة الساحلية كما على الجهة الداخلية لكن هذه الشمولية ليست الا ضرورة مـــن ضرورات التسيير الاداري البحت أو الايديولوجي التوحيدي الصرف . أما الواقع فيقـــول أن مركزي شرطة وبريد بمنطقة بلدية لا يكفيان لتمايز اجتماعي يفرق بين من اعتبر لجـواره لهذين المركزين حضريا ومن لبعده عنه بعيل واحد ريفيا .

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

ثم لنبتعد عن بعض الصعوبات ولنتحدث عن بعض الاجابات المرقمة فنقول "محدودية الاحداث من مواطن الشغل حيث لم تتجاوز نصف الطلبات الجديدة البالغة سبعين ألفا وهو ما يرفع عدد العاطلين عن العمل الى نحو ثلاث مائة الف نسمة ." (1). ألا نكون هنا قدمنا ما يشير الى أنه اذا كانت الدولة عاجزة عن ايقاف النزوح الريفي فهناك من البطالة في المدينة ما يريحها من هذا العناء ؟ اننا نستطيع أن نواصل أكثر في هذا المسار التفاؤلي فهناك بعض المؤشرات التي تدل على أن نمو العاصمة التونسية هو نموا "معتدلا" ! "العاصمة التونسية هي احدى العواصم التي تنمو ببطء نسبي اذا قارناها بعديد المدن الكبيرة في بلدان العالم الثالث (نسبة النمو السكاني السنوي هي بين 3 و 3,5 ٪ ." فقط " بينما نسبة النمو السكاني في " أبدجان " بساحل العاج هي 11 ٪ ." (2).

أخيرا هل كل نزوح من داخل البلاد باتجاه الجهة الساحلية هو بالضرورة نزوح نهائي ؟ ان انخراط العديد من السكان القاطنين بالجهة الداخلية للبلاد في اقتصاد الهجرة الشمالية والغربية والجنوبية (أوربا - الجزائر - ليبيا) يحتاج الى نزوح ولكنه من نوع جديد : لبيع أو تسليم بضاعة لا ترتبط بالدورة الاقتصادية الرسمية وانما باقتصاد نسميه " اقتصادا تحتيا " أو " اقتصادا لا شكليا " دعم بدوره ما نسميه موقتا " مجتمعا لا شكليا " هو بدوره على علاقة وطيدة بالاجابة التي سنقدمها الان حول نجاح أو فشل برنامج التنمية الريفية . هذا السؤال المغلق له جواب مغلق ولكنه أيضا قابل للانفتاح : لنا ثلاث حالات واجابة واحدة ولكن لا شيء يدل على أن المعنى المقصود

---

1) عبد اللطيف الهرماسي - مأزق تحرير الاقتصاد - جريدة الموقف من 22 الى 28 ديسمبر 1988 .

2) محمود بن رمضان - مقال مذكور سابقا .

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

بين حالة و أخرى هو نفسه .

الحـــالـــة الاولـــــى

قد تنجح عملية ايقاف النزوح - حتى قبل أن تبـدأ - بتمكين صغار الفلاحيـــن بالحد الادنى من المساعدة المادية و التقنية لاستقرارهم وشدهم الى ارضهم اذا كانت تعبئتهم المعيارية و النفسية لاتزال ضعيفة وليست بعد في مستوى لدفعهم الى تجـاوز الحدود " الانجازيـــة " التي قدمتها لهم الدولة . ان معتمدية سيدي مخلوف التـــي بقيت مثلا محرومة من النور الكهربائي - في أغلبها - وبالتالي التلفزة - وما أدراك ما التلفـــزة - ستحافظ الى حد كبير على نظامها المعياري التقليدي وستمثل أفضـــل من يتقبل اجراء التنمية الريفية لا لان لها موارد هجرة مرتفعة أو لان صندوق التنميـــة الريفية رصد لها أكثر من غيرها أو أخيرا لانها سترفع من الانتاج الفلاحي وانما غيـــاب هذه العناصر سيخلق كابحا من مكابح أية تعبئة نفسية أو معيارية تؤدي الى النزوح .

الحـــالـــة الثانيـــــة

من المفارقات التي أطنبنا في الحديث عنها أن الهجرة رغم ما تفرزه من حالـــة تهيوء لدى كل العائلات التي عرفت هذا التقليد ، تهيوء ينعكس في اللهفة علـــى استهلاك أحدث ما ظهر من رموز الحداثة ونمط الحياة الجديد ، فانها في الان ذاتـــه تحافظ وتدعم نظام المعايير التقليدي . ان هذا يؤدي الى صراعات عادة ما يطلـــق عليها صراعات أجيال بفعل تصادم انتماء عائلي أو قرابي للاب بآخر مهني للابـــن لكنها أكبر من ذلك لان الابن نفسه يعيش الانتمائين وبشدة . وغالبا ما ينتهـــي - في الحالات التي درسناها - بانتصار الانتماء التقليدي ، فقد رأينا كيـــف أن

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

الوظيفة و السيارة والفيلا رموز الحداثة كانت تكون مُحالة لولا التكافل العائلـــي . و مثالي ميدون وبنقردان تأكيد لذلك لكنهذا الاختلاف عن سيدي مخلوف سوف يقابلـــه اتفاق من حيث أن الهجرة فيهما لن توءدي الى تهيوء نفسي لمبارحة الريـف والتمتع بحداثة المدينة . وهنا رغم الاختلاف نحصل على نتيجة أخرى تثبت غياب امكانية النزوح .

الحـالـــة الثـالثـــــة

الهجرة الى الخارج وخاصة باتجاه فرنسا هو تقليد ساحلي بالاساس ويرتبـــــط بحركة السياحة والاختلاط بالاجانب من ناحية أو بمعايشتهم خاصة أثناء الاستعمار الفرنسي . ومهما تكن درجة العداوة بين المستعمر و المستعمر فلا بد من ظهور ذلك الموقـــــف النفسي الذي عبر عنه ابن خلدون برغبة الضعيف في التماهي في القوي . لكن سكـــــان داخل البلاد هم أيضا لهم علاقة به ولعلها أشد حدة. أليسوا هم " الفـلاقـــة " الذين قاتلوه والذين استغلهم في الصناعات المنجمية؟ لعل هذه الحدة احـــــدى الاسباب التي لم تهيئهم للهجرة مثلما هيأت سكان الساحل . لكن هذا لا يمنع مـــــن أن يتهيوءوا نفسانيا ومعياريا لممارسة نمط الحياة الجديد . وهنا لا شك في أن التلفـــزة قد قامتبجزء من هذه التعبئة النفسية خاصة أثناء السبعينات لما تعممت هذه الاداة داخل البيوت. وهنا أيضا يمكن أن نحصر قوافل الذين لازالوا ينزحون نحو المدن الكبـرى . لكـن هذا النزوح لم يقض على النظام المعياري التقليدي.تشهد بهذا تجمعاتهم العشائريـــة في العاصمة وتقسيم العمل الذي انخرط فيه برنامج التنمية الريفية المندمجة فـــــــي سيدي بوزيـــد .

أكيد أن حالات أخرى ممكنة ولكن تعميم هذه الحالات علىجهات أخرى من البـــلاد ممكنة أيضا ، لذا فلا فائدة من الاسهاب فيها ولنمر الان الى الجـــواب: كان مرمـــــى

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

برنامج التنمية الريفية الحد من النزوح بتدعيم البنى التقليدية. ولقد نجح في ذلك نجاحا لمسناه في الحالات الثلاث. من خلال استمرار نظام المعايير التقليدي لكنه مع ذلك فشل في الحد من النزوح ، ولا نقول هذا لان لدينا حالة أو أرقاما تثبت تزايد النزوح ، وانما لاننا نعتقد أن الريفي لينزح الان لم يعد في حاجة للتنقل الى المدينة فيمكنه أن " ينزح " وهو في الريف. وهذا هو جديد نظرية التعبئة الاجتماعية . أليس المغزى من التنمية الريفية حماية " حداثة " المدينة من " فوضى " الريف اذا زارها ؟ اليوم اذا شاء الحداثة فهي ممكنة في الريف واذا رغب في " الفوضى " فكل الاحداث التي جدت بالبلاد التونسية منذ السبعينات الى جانفي 1984 لم تستثن الريف.

بقي الان سؤال: لماذا تتواصل برامج التنمية الريفية وتتدعم رغم فشلها في حل مشكل النزوح ؟ سنجيب عن هذا السؤال في الجزء الرابع ضمنيا ولنقل الان : ربما لانه لم تعد هناك امكانية للتراجع فيها أو لانه عنصر من عناصر الشرعية أو أخيرا بكل بساطة لانه لا يوجد نمو " حاصل صفر " !

ـ فعالية البنى التقليدية

نصل الان الى المرحلة الثانية من مرحلتي تحليل مضمون الفرضية عدد 2 فبعد أن أبرزنا حدود مصطلح اللاتزامنية من حيث أنه يوحي بضرورة المرور من حالة " تقليدية " الى حالة أخرى " حديثة " معروفة مسبقا . لكن جرماني يتجاوز هذا الخلل في مفهوم اللاتزامنية موضحا أنه لم يقبل مصطلحي مجتمع تقليدي و مجتمع حديث الا بشرطين 1) أنهما نموذجين مثاليين 2) كل نموذج له أشكال مختلفة (1) وهذا يفسر قيمة الظروف

I) Gino - Germani . Op. cit . page 59.

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

السائدة في كل من الحالات الثلاث التي رأيناها وكيف أن وجود أو عدم وجود حركة نزوح بهذه أو تلك نحو المدن الكبرى مرتبط بتلك الظروف . وهذا معناه أن الدولة ليست هي الفاعل الاجتماعي الوحيد في عملية " التحول " اذ يلعب الواقع دوره . وهذا الدور لا يتمثل في ما درجنا على تسميته " مقاومة التغيير " كلما تباينت النتائج مع ما رغبت الدولة - أو خططت له - في تحقيقه ، و كأنما فعل الدولة هو فعل ايجابي و فعل الواقع فعل سلبي !

واذا جردنا فعل الواقع وفعل الدولة واعتبرناهما " قيما موجهة للفعل "(كما يقول ڤيبر) فاننا نتحصل على ما يسميه جرماني " أثر الالتحام " الذي يتحقق " حين تلتقي أديولوجيات ومواقف من مراحل حديثة متقدمة بمجموعات وجهات لا تزال تحمل أشكالا تقليدية ، فان الظرف العام لا يتحلل ، بل على العكس ، فان العناصر التقليدية تتدعم . بل تبدو و كأنها ذات صلوحية جديدة لا علاقة لها ببنية ميتة (تحتضر) وانما كعناصر " متطورة جدا " (1).

خاتمة

ان القيم أو البنى التي اعتبرت- مثلما رأينا أثناء الجزء الثاني من دراستنا - " قيما وبنى لا عقلانية " "معيقة "للتحول ليست اذن كذلك أولا لان " العقلنة التي هي نتيجة التخصص العلمي والتمايز التقني الخاص بالحضارة الغربية " (2) كانت

I) Ibid. page I23.

2) جوليان فروند - سوسيولوجيا ماكس ڤيبر - مركز الانماء القومي (بدون تاريخ) ص 12

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

تقودها " قيم توجيه فعل " تنتمي الى " مطلع القرن السابع عشر ، في هذه المرحلة التي يسميها الدارسون ... بالمرحلة الباروكية (أين) نجد أن الفكر قد كف عن التحرك داخل عنصر المماثلة " (ميشال فوكو - الكلمات والاشياء) (1) ولهذا فمن غير" المعقول " أن تقود هي نفسها عملية التحول في البلدان غير الغربية . وثانيا لان هذه " القيم و البنى اللاعقلانية " ذات الاصل القبلي والاسلامي قد حققت " الحداثة " للريف . حداثة لم تكن " عقلنة " الدولة تقدر على تحقيقها الا في مرحلة لاحقة بعد " تنمية المدينة " !.

لكن سؤال يطرح الان : أية " حداثة " مقصودة هنا ؟ فهل من المعقول أن يؤدي نظامين مختلفين من " قيم توجيه الفعل " الى نمط واحد من "الحداثة" ؟ اذا تم اعادة تعريف " الحداثة " (أو التنمية أو التعبئة الاجتماعية أو المجتمع الجديد ولنختر لانفسنا ماشئنا منها) فقد أمكن الحديث عن " تحول " أما اذا ثبت العكس فهذا معناه أننا لم ندخل بعد مرحلة " التحول " .

---

1) سعيد بنسعيد - من قداسة السلطة الى تعاقد المواطنين الفكر العربي المعاصر . عدد 56 - 57 - 1988 . مركز الانماء القومي .

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

الجزء الرابع

التنمية العقلانية

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

I العقلانية التعددية

مقدمة

من نحن ؟ كم مرة طرح السؤال طرحا مباشرا أو مضمنا ؟ ولكن ما كل مرة يُطرح فيها يلقى جوابا قولا وفعلا . لعل آخر جواب قدم كان من قبل اليابان في شكل مثير للاعجاب- اعجاب الجميع بمن فيهم خاصة " القوى العظمى"- لا فحسب لان هذا البلد - صحبة الكتلة الاسيوية التي معه - أصبح يمثل " المنطقة الاكثر حيوية في صلب الاقتصاد العالمي ، وهي في طريقها لتحتل على عتبة القرن الواحد و العشرين مكانا بارزا الى جانب الولايات المتحدة و أوروبا "(1) بدون الموارد الطبيعية التي تمتع بها هؤلاء أو حتى أمريكا اللاتينية وافريقيا و انما خاصة لانه أبدع في " استثمار " موارد أخرى من طبيعة ثقافية هي " فلسفة تساعد على عملية الاقلاع" (2). هي موارد احتسبت في التجارب الاخرى - الناجحة أو الفاشلة - في باب " المعوقات " و " الرواسب السيئة " التي يجب تخطيها واستبدالها بخاصيات أخرى " عصرية ".

و بالمقابل لا تزال مجتمعات وشعوب أخرى تنتمي الى ما أعتبر عموما عالما ثالثا أو بقليل من التخصيص عالما عربيا أو بأكثر تخصيص منا تونس - مجال دراستنا - تطرح السؤال نفسه ولكنها لا تقدم اجابة . وهذا لا لان القول و/ أو الفعل منعدمان ولكن - و النتيجة واحدة - لانه قول غير قولها فكان الفعل غير فعلها . والا فمن أين

---

1) شارل ستوز - أهمية الكنفوشية - لوموند ديبلوماتيك فيفري / مارس 1989 - السنة الاولى عدد 5

2) نفس المصدر

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

جاءت تحديدات من مثل مجتمع "تقليدي" أو "متخلف" أو "لا عقلاني" أو "فلاحي" ان لم تكن تستند الى مرجعيات المجتمع "العصري" أو "المتقدم" أو "العقلاني" أو "الصناعي" ؟

ان تحديد الانا اذن يفترض مسبقا توسطا ضروريا هو الاخر الذي بدونه لا معنى للانا ولذلك "فكنه" هذا الانا لا يتضح الا بقدرما تتقلص المسافة بين الانا (الدوني) و الاخر (المتفوق) أي حين يتماهى في الاخر ويصبح من طينته . فتتجلى "منطقية العقل المُوَحِّد (التي) لا تهيمن في الحيز العلمي فقط ، بل نجدها واضحة على الصعيد الاقتصادي و السياسي : اذ أنها تتخذ شكل معقولية التطور التصاعدي التي تحمل في طياتها عقلية التقدم و التحديث... وستقودنا الى "الانسان ذي البعد الواحد" (1).

فهل يكفينا لاستعادة التحن أن نتحرر من عبودية "العقل الموحد" و نخرج من "التاريخ الخطي" مسلمين مع ليفي ستراوس بأن ((في وسع المجتمع (أي مجتمع) أن يعيش ويعمل و يتحول دون أن يستسلم للشلل باليقين بأن المجتمعات التي سبقته بعشرات آلاف السنين لم تفعل شيئا سوى تهيئة الميدان له)) (2)؟ أو أن نؤكد مع كلاستر مقولة "المجتمع ضد الدولة" غير الاوربية كطريقة أخرى لنفي تعالي الدولة و لتحقيق الديمقراطية الخصوصية "بتطويق الانقسام داخل المجتمع وطرده الى الخارج" (3) أو أخيرا أن نقر على خطى اليادـ

---

1) فتحي التريكي ـ قراءات في فلسفة التنوع ـ الدار العربية للكتاب 1988 .

2) محمد بن احمو نقد الانثروبولوجيا البنيوية ـ أو حق الاختلاف من خلال أبحاث كـ ل ـ ستراوس ـ دار محمد علي الحامي للنشر 1987 .

3) رضا الزواري ـ ملاحظات حول نظرية "المجتمع ضد الدولة" الفكر العربي المعاصر ـ عدد 56ـ57ـ 1988ـ مركز الانماء القومي .

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

" بقدسية " كل ثقافية انسانية سواء كانت أسطورية أم دينية أم فلسفية أم حتى علميـة ؟ ان الاجابة عن هذه الاسئلة تتطلب تخطي عقبتين واحدة من طبيعـة نظرية و الاخرى من طبيعة عينيـة .

1 - " المركزية الثقافيـة " للانثروبولوجيـا المناهضة ((للمركزية الثقافيـة))

في هذا العنوان - السؤال مفارقة و لا شك فكيف يجوز توجيه تهمـة " المركزية الثقافية " الى الفكر الذي قطع مع الانثروبولوجيا الوظيفية التطوريـة الاستعمارية و نوه بانجازات المجتمعات البشرية المختلفة التي تتالت أو تزامنـت (العصر الحجري القديم - العصر الحجري الجديد - العصر القديم - العصر الوسيط) ثم قرر أن الحضارة الغربية ليست الا نتاجا لمجموعة " المساهمات " التي قدمتها بعض " الحضارات التراكميـة ". واذا كان للحضارة الغربية من فضل فهو بالدرجـة الاولى فضل تركيب تلك " المساهمات ". وهو فضل الى الصدفة أقرب مما هو الـى " أفضلية داخلية " للمجتمع الغربي . ويذهب ستراوس الى أبعد من هذا في مناهضته لاية " مركزية ثقافيـة " ، فتسليمه بوجود حضارات تراكمية " كالحضارة الامريكية " ما قبل كولومبية " ليس حكما معياريا سلبيا على بقية الحضارات غير التراكمية ، فهي " ان بدت لنا راكدة (راكدة مقابل تراكميـة) ، لا لانها بالضرورة كذلك ، و انما لان خط تطورها لا يعني شيئا بالنسبة لنا ، أي غير قابل للقياس بمصطلحات النظام المرجعي الـذي نستعمله " (1).

ان الاشكال ليس هنا ، و انما في أن البلورة النظرية لهذا التوجه الانثروبولوجي هي مرة أخرى ابداع من ابداعات " الحضارة الكونيـة " (أي الحضارة التي ركبت " مساهمات " كل الحضارات التراكمية الاخرى بما فيها الحضارة العربية الاسلامية)

I) C. Levi. Strauss, Race et Histoire. Gontier I96I. page 42.

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

و المقصود طبعا الحضارة الغربية . وهذا طبيعي طالما أن هذه الاخيرة تملك حرية التفكير بنفسها ولنفسها . ولكن غير الطبيعي أن تتبناه المجتمعات الاخرى حتى ولو كان يحثها على التشبث بخصوصياتها وتقديس مقدساتها . فمن يدرينا أن ليس في هذا " الحث " من سيطرة وفي الاستجابة له من تبعية؟ فهل كنا سنعيد الحياة الى "مخاراتنا المنهارة " و"صحرائنا القاحلة " و " حرفنا البائدة " لو لم يقبل عليها السواح الغربيون الباحثون عن " المثير" و " البسيط" بعد أن ملوا "العادي" و "المركب " في عالمهم " المتطور " ؟

أو لم يعترف ستراوس نفسه بأن البشرية محكومة بمسارين متناقضين أولهما - وهو الخطير - مسار التماثل الموءدي الى موتها وثانيهما - وهو الذي على المؤسسات العالمية أن تدعمه - هو مسار التنوع الضامن لتجددها . ولقد عرف المجتمع الاوروبي المسار الاول أي حالة من التماثل الداخلي لو لم يعمد الى - المسار الثاني - ما يسميه ستراوس " مسافات اختلاف(Des écarts différentiels) داخلية تمثلت في مرحلة أولى في التمايزات الاجتماعية لجملة من الجماعات الاجتماعية " الدينية و المهنية و الاقتصادية ... فكانت اللامساواة الاجتماعية أبلغ مثال لهذا الحل"(1) و خارجية في مرحلة ثانية - بعد أن استنفدت الاولى - تمثلت في الامبريالية أو التوسع الاستعماري الذي مكن " أوروبا الصناعية من اثراء مدها ،مد كان مهددا بنسق استنفاذ كان يكون أسرع لو لم يقع ادماج الشعوب المستعمرة في اللعبة "(2).

و الذي يهمنا أن الحلين مكنا أوروبا من التنوع والتجدد . وهاهي اليوم أوروبا نفسها وكل من يمثل هذه الحضارة الغربية تعيد لعبة " مسافات الاختلاف" داخليا فنرى مثلا الحزب السياسي يجمع معا حاملي الفكر الماركسي والفكر المسيحي

I) C. Levi Strauss. Ibid. page 80.

2) Ibid, page 81.

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

معتبرا أن التحول الاشتراكي الديمقراطي لم يعد متعلقا ((بـ"ـديكتاتورية بروليتاريا ما" أو بسلطة طبقية ...و انما أصبح الامر متعلقا بارساء اجماع موءسسي ذي أغلبية (فيها)... الشيوعية و الاشتراكية و الاشتراكية الديمقراطية و القوى المسيحية)) (1). ونرى أيضا ممارسات يومية - حسبت على ما وقع تخطيه تاريخيا - تنتمي الى ديانات أو ثقافات "لا عقلانية" كاعتناق الديانة الاسلامية أو قبر الموتى حسب الطرق البوذية (حرق أو تقطيع الجثة وتقديمها لبعض الطيور الكواسر)... ألا يدل هذا على حاجة "الغرب" لخصوصياتنا ، فيحثنا على اعادة الاعتبار لها ؟

و مع ذلك فهل لنا خيار آخر غير خيار الايمان باستقلالية الفكر أي فكر عن ثقافته الام ، ومن باب أولى وأحرى فكر يعترف بالتعدد و التنوع؟ قد يكون هذا ايمانا براغماتيا ؛ أي ايمان الامر الواقع بضرورة اعادة الاعتبار للخصوصية ولا يهم ان كان باعث هذا الايمان " دعوة غيرية". هذا افتراض - أو بالاحرى اعتراض - يعتبر مطلب الخصوصية مستقلا تمام الاستقلال عن أي فكر غيري وسنختبر مدى متانته في الفصلين الموالين . أما الان فلنطرح افتراضا معاكسا له : هل كان " العقل الغربي" غائبا في تجربة اليابان المشهود لها بالخصوصية و الابداع ؟

2 - خصوصية التجربة اليابانية

لماذا التجربة اليابانية ؟ في اطار حدود بحثنا - برنامج التنمية الريفية - يبدو لنا سببان أساسيان : أولا : انها تبدو تجربة مختلفة عن التجربتين الرأسمالية و الاشتراكية الغربيتين وتحطي مصداقية لما يقال من أن "الرأسمالية والاشتراكية ليستا

---

1) معجم الماركسية عمل جماعي تحت اشراف جورج لابيكا - ترجمة الموءسسة العربية محمد علي الحامي (تحت الطبع) ص 428 - 433.

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

نمطي انتاج و انما نمطي تنميـة " (1) من حيث أنهما قاما على نفي بني المجتمـع التقليدي الاقطاعي في حين قامت تجربتها التنموية على تبجيل و احترام البنـى التقليدية الكونفوشية . وهذا ليس مجرد دحض للتطورية ذات "المركزية الاوروبيـة " لتأكيد نمط "تنموي ثالث " بل تأكيد لاي نمط تنموي آخر. ثانيا : اننا لن نتحدث هنا عن البنى التقليدية في التجربة التونسية من حيث أنها مكنت سكان الريف من استعادة توازنهم النفسي و المعياري بما حققته لهم على المستوى "الانجازي" من حداثة لم تحققها لهم الدولة . ان ذلك كلام خضنا فيه سابقا و لكن ما نريـده - و نحن نتأمل التجربة اليابانية - هو معرفة الى أي مدى تتحدد فعالية البنـى التقليدية التونسية بوظيفة تحقيق التعبئة الانجازية ؟ ذلك أن خروج الخطاب التقليـدي من حدود الريف وسريانه في المدن التونسية في مختلف المؤسسات و التنظيمـات المدينية يعطيه بعدا مجتمعيا أشمل ويدعم مشروعية المقارنة مع التجربة اليابانية خاصة بعد ما ألغت هذه الاخيرة معايير المقارنة القائمة على الارقام المرتبطة بالمرجعيـة الغربية .

أ = النـزعـة القـوميـة

منذ أن قرر ماكيافيلي أن " السلطة جهد بشري خالص وممارسة دنيوية محض " فقد كان جليا أن نظرية " الحق الالاهي للملوك " في المجتمع الاوروبي بدأت تتخلخل لتترك المجال " للمجتمع المدني " الذي أعلن عنه روسو و " الذي سيعيشه التاجـر الطموح وبشر به فقهاؤه ومنظروه ". (2) و الواقع ان نزع القدسية (الدينيـة - السلالية - الشخصية) عن السلطة هو الذي فتح ما كان منغلقا من الجماعات الاوليـة (طائفة - عائلة - قرية) على نفسها وسهل اندماج الافراد - بعد أن كان ذررهـم -

---

I) Alain Touraine. les sociétés dépendantes. duculot I976. page 38

2) سعيد بنسعيد - من قداسة السلطة الى تعاقد المواطنين - الفكر العربي المعاصر عدد 56 - 57 - 1988 - مركز الانماء القومي .

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

في جملة من المؤسسات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية وجعلها تتكلم لغة واحدة : لغة الامة .

ان اليابان نفسه قد عرف نزعة قومية، تجاوزت ضيق الانقسامات التقليدية والاقطاعات المحلية . لكنها مع ذلك تبدو نزعة تختلف اختلافا شديدا عن التجربة الاوربية من حيث أنها لم تحسم في المحتوى القدسي للسلطة باعتبار أن " فكرة الوطنية ((ايكولو)) التي ظهرت في ذلك الحين مرادفة للولاء للامبراطور "(1) ومن حيث أنها أيضا عملا سلاليا أنجزته سلالة ميجي . ولهذا السبب فانها لم تكن تجليا للسيادة الشعبية تماما مثلما هو الشأن في تاريخنا العربي الاسلامي الذي طبع بنمط من السلطة عبر عنه أبو جعفر المنصور بقوله : " انما أنا سلطان الله على أرضه أسوسكم بتوفيقه وتسديده وتأييده ، وحارسه على ماله أعمل فيه بمشيئته و ارادته وأعطيه باذنه فارغبوا الى الله وسلوه أن يوفقني للرشاد والصواب و أن يلهمني الرأفة بكم والاحسان اليكم. " (2)

اذن، اذا كانت النزعة القومية الاوربية - أو بالاحرى نموذجها المثالي - صرحا تبنيه كل يوم طبقات الشعب الصاعدة : البرجوازية بكل أقسامها و الطبقة العمالية و الى حد ما وبشكل غالبا ما يكون غير مباشر صغار الفلاحين ، صرحا يتجسم فيه تعبير رينان " القومية الاستفتاء اليومي " فهي في اليابان قد اقتضت " اجتذاب الجماهير الى الفكرة القومية عن طريق المدرسة و التجنيد "(3) و لعلنا هنا في حاجة الى تذكر العناصر الاربعة اللازمة لعقلنة أي مجتمع والتي كنا تحدثنا عنها

---

1) فيليب بونز - اليابان يبحث عن قيم جديدة لمواجهة نهاية القرن - لوموند ديبلوماتيك مارس/ أفريل 1989

2) حمزة الاسود - كيف استبد العسكر بالحكم عند المسلمين. الرأي عدد 184 - 9 افريل 1982.

3) فيليب بونز - نفس المصدر.

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

في مكان سابق بالجزء الاول تحت عناوين فرعية : الجيش والبيروقراطية والتعليم والاقتصاد . و دون تنقيص من قيمة العنصرين الثاني و الرابع يمكن القول إن عنصري الجيش والتعليم قد تقاسما أغلب الاقطار العربية من حيث تكوين دول قطرية جديدة وتأمين " الـــــولاء الشعبي "الضروري لها . ومثال تونس أفضل مثال يبين كيف أن التعليم (واذا شئنا مزيدا من الدقة وزارة التربية والتعليم) كان دائما - واليوم أكثر من أي وقت مضى - الرهان الذي تتصارع حوله قوى سياسية مختلفة .

ب= المجموعات الاوليـــــة (Groupes primaires)

ان أكثر الامم الاوربية "صفاء" هي أشدها حسما في الانتماءات الاولية أي خلوها من المجموعات الاجتماعية التي تنتمي لنمط أو أنماط انتاج ما قبل رأسمالية لذلـــك غالبا ما اعتبر بقاء البرجوازية الصغيرة (القديمة خاصة) علامة من علامات "التخلف" و رفض التغيير والحنين الى الماضي . ولقد كان على الصناعة الوطنية بفضل مالها مـــن حركية وقدرة على الانتشار أن تقتلع جذور هذه الانتماءات وخاصة منها العائلة مستبدلـــة اياها بالاسرة وبمفهوم الزوج(le couple)مثلما رأينا في الجزء الاول من هذه الاطروحة .

لكننا نستطيع أن نجد في تجربة اليابان ما يبين خطأ " الافتراض القائـــل بأن التقليدية تعبر عن حالة استاتيكية لا تقبل التغيير، أو أنها تمثـــل جسدا ثابتـــا متماثلا ."(1). ونماذج القيم و المؤسسات التقليدية ليست "عقبات تعوق حركـــــة المجتمع وتقدمه ". فهي أبعد من ذلك وقد لعبت دورا محددا في المعجزة اليابانية . أو لم يمهد " احترام وتبجيل اليابانيين للا مبراطور لعملية التصنيع السريع ، بينمـــا كفل هذا الاحترام و التبجيل تأمين الهدوء والاستقرار والطاعة و الولاء لدى الياباني ". (2).

---

1) عبدالغفار رشاد - التقليدية و الحداثة في التجربة اليابانية - مؤسسة الابحاث العربيـــة بيـــروت 1984 - ص 26 .

2) نفس المصدر - ص 26 .

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

ولقد كان على مهندسي تجربة الستينات التنموية بتونس الذين سعوا الى احلال الاسرة محل العائلة التي كانت على رأيهم تمنع الفرد من التفتح على قيم الحداثة و التعليم و المشاركة في النمط المجتمعي الجديد، كان عليهم أن يتأملوا في التجربة اليابانية التي برهنت على أنه اذا كان " ثمة مكان واحد يستطيع الفرد أن يفرز فيه ويحقق ذاته أولا هو الجماعة ... أين تحتل الاسرة حجر الزاوية لانها الجماعة (وليس رغم أنها) # الاكثر استمرارا وثباتا ."(1). و الواقع فان مصطلح الاسرة كما استعمل في اليابان لا ينطبق في شيء على المحتوى الذي يعطى له في أوروبا . انه على العكس رديف مناسب لما اعتبرناه عائلة في الريف التونسي ولما وقع تدعيمه انطلاقا من برامج التنمية الريفية مثلما رأينا . " فالاسرة لا تقتصر في اليابان على النواة المكونة من والدين و أطفالهما غير البالغين ، فقد تضم آباء الوالدين أو اخوتهم غير المتزوجين أو حتى المتزوجين و أولادهم الى جانب بعض الافراد من غير الاقارب ومن الخدم ممن يعتبرون أعضاء في العائلة ."(2).

ج = الفـــــــرد

ان انسلاخ عضو العائلة أو العشيرة أو القرية وتفردنه و تحوله الى مواطن يوسس - مع غيره من الافراد - " العقد الاجتماعي " هو الذي مهد لميزتي النموذج الشومبيتري للمبادر (Entrepreneur)وهما المغامرة و الابتكار ولكن ما يدعو للحيرة أن المبادر الياباني لا يقل مع ذلك - ربما هو اليوم الافضل - مغامرة و لا ابتكارا برغم أنه لم ينفصل عن العائلة أقدم التجمعات البشرية و أكثر أشكالها طبيعية مثلما يقول الفكر الاوروبي التقليدي أو الخلية الاولى للمجتمع

/# محتوى القوسين من عندي .

1)نفس المصدر - ص 67 .

2) نفس المصدر - ص 69 .

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

مثلما يعتبرها المجتمع الاسلامي التقليدي الذي لا يزال يؤثر - عكس ما يُعتقد - في سلوكاتنا اليومية كالانتخاب الذي يصوت فيه الواحد منا لا للحزب أو للمترشح الممثل لقيم مجتمعية بقدرما يصوت لمن هو أقرب اليه صلة : صلة الرحم وصلة الدم وصلة الجهة ...

و لهذا السبب فاذا كانت الدولة في الفكر الليبرالي الاوربي تعني " تقييد السلطة ومراقبتها وتداولها "(1) باعتبار أنها تستمد شرعية وجودها من أخلاق متفق عليها اجتماعيا ومتعالية عليها فانه "لا يمكن أبدا اعتبار الدولة الامبراطورية أداة في خدمة مثل عليا (أخلاق) تفوق سلطتها. فالعكس هو الصحيح اذ أن القيم الروحية التي يمثلها الامبراطور هي التي تتجه نحو اكتساب الطابع الفعلي و التحول الى سلطة ... فلا وجود لافراد لهم وجود مستقل عن الدولة : ومن ثم فانه لا يمكن للشعب ... أن يشكك في سيادة الدولة . ويؤدي هذا الى اصابة الفرد بالشلل السياسي ، بل و المعنوي أيضا "(2). ولنا أن نتساءل أي شلل هذا يحقق "معجزة اليابان" ؟ فهل يصبح أبو جعفر المنصور رمزا من الاموات أو "المجاهد الاكبر" رمزا من الاحياء التي "يجب" أن نفتخر بها أو على الاقل التي يجب أن " نصنع "أو بالاحرى نتركها تصنع نفسها بنفسها لنصغي اليها !

3 - ميتافيزيقا التعبئة الاجتماعية

مقدمة اذا كان لنظرية التعبئة الاجتماعية ... جديد، فهو أولا جديد التمييز بين مستويات تحول لها استقلاليتها وفعاليتها الخاصتين . لكن هذا عام وقد لا تبدو فيه أية جدة اذا نظرنا اليه كصيغة من صيغ قديمة وعديدة من مثل " الاستقلالية النسبية للدولة " أو " تفاوت تطور البنى " أو " دولة الكفالة" طبقت على مختلف تجارب العالم . لكن الجديد - ثانيا - قد يكون مرتبطا بتقديم

---

1) سعيد بنسعيد - مصدر مذكور سابقا .

2) فيليب بونز - مصدر مذكور سابقا .

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

تصور للعلاقة بين هذه المستويات لا تنهي فقط مسألة " تحديد "مستوى بآخر بما أن مستوى ينتمي الى نمط مجتمعي "تقليدي" يمكن له أن ينسجم مع مستوى آخر من نمط مجتمعي "عصري" و انما أيضا قد ينهي حاجة المجتمع الذي يريد أن يتحول الى نموذج نظري يهتدي به ويعمد الى تحديد خاص مثل الذي عرفه " المجتمع الصيني الذي حدد كليا و بشكل ارادي من قبل فكر ماوتسي تونغ ". "(1).

أي مجتمع لا يستطيع أن يحقق له مكانا بجانب المجتمعات الاخرى بما يماثله بها وانما بما يختلف به عنها . وكل مجتمع يريد الاختلاف لا بد له من تنوع داخلي " مسافات اختلاف " يستنبطها من ذاته وهذا ما يشرع دعوى "الموقف الميتافيزيقي الجديد " الذي سيمكننا بدوره من طرح "أسئلة جديدة "تتطلب هي الاخرى " أجوبة جديدة " و هكذا يقع " الابداع ".

أ = فرضية حول "التراث والابداع و نمط التنمية " (2)

على قدر جهد التنظير التراثي التنموي وحرقة أسئلته و أصالة افتراضاته كانت (فعل يفيد الماضي الذي مازال متواصلا) اجاباته قولا و فعلا - الدولة التونسية وأكثر . وكلما ظننا أن الانسجام سيشتد بينهما لا تتناقص شرعية هذه الاخيرة فحسب بل ويكون الطرف الاخر - وهنا مفارقة - السبب في ذلك .

فيما يتعلق بظننا ، سنفرد له العنصر الموالي أما فيما يتعلق بالمفارقة فتلك مسألة نتركها للفصلين المواليين .

ب = "ميتافيزيقا جديدة "أم " ميتافيزيقا الرفض " ؟

" حينما نقول اذن بأن التراث هو المصدر الوحيد للابداع فانما نقصد بذلك

I) Alain Touraine. op. cit, page 30.

2)عبدالقادر ياسين - التراث والابداع و نمط التنمية - مجلة 15 21 - عدد 15 - 1988.

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

أنك لا تستطيع تقديم اجابة جديدة حقا الا اذا التزمت بموقف ميتافيزيقي مختلف ، أو غيرت الافتراضات التي تصدر عنها ، وطرحت أسئلة لم تطرح ." (1) ويواصل صاحب المقال " قد تسأل اذن : ماهي تلك المسلمات التي نستمدها من التراث ...؟ " غير أنه لا يقدم اجابة ويرد غياب الجواب الى " معرفته القاصرة بالتراث " و مع ذلك فانه يقترح ما يعتقد أنه ينوب مناب الجواب : " أستطيع الزعم بأن ادراكنا للطبيعة التحكمية لكثير من المسلمات الكامنة وراء فكر الغرب في التنمية كفيل بأن يجعل البحث في تراثنا عن مسلمات مغايرة أو مناقضة بحثا واعدا بامكانيات لا حد لها للابداع. "(2)

ألا يذكر هذا الكلام بما يذكره علماء النفس حول المراهق من كونه يعرف جيدا ما لا يريد و لكنه لا يعرف بالضبط ما يريد ؟ فهل يكفي الوعي بالاستلاب أو بالاستغلال للتحرر والانعتاق . " فلا شيء في الواقع يدفع العبد للا نتفاضة أو البروليتاري للقيام بثورة " الا اذا "أدخلنا عنصر الارادة في الفعل البشري" فعل لا يتحدد " فقط بأنه نفي النفي و انما أساسا تأكيد للذات " (3) . فقد نقبل اذن أن هذا الوعي مرحلة ضرورية باتجاه ذاك الانعتاق أو ذاك التحرر لكن ذلك ليس الا مرحلة . ومع ذلك فلنواصل مع سوءالين ينكر فيهما المؤلف (موقف المقال) الافتراضات الكامنة فيما أسميناه المستوى "الانجازي" و المستوى "المعياري" :

" أليست هذه البدايات الميتافيزيقية نفسها هي المسؤولة عن تقديس الفكر الليبرالي للملكية الفردية واعتبارها بديهية ؟ ... بل ألا يجوز أن تكون نفس البدايات الميتافيزيقية هي المسؤولة عن الاهمية المبالغ فيها التي يعلقها الفكر الماركسي على

---

1) نفس المصدر.

2) نفس المصدر .

3) Alain Touraine. Sociologie de l'action. Seuil 1965. page 48.

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

القضاء على الملكية الفردية و كأنها هي الصورة الوحيدة للقهر، و على نظام توزيع الدخل وكأن المساواة بين الناس في استهلاك السلع والخدمات هي الشرط الوحيد لتحقيق العدل ؟ . " (1).

هل أن تراثنا مع الملكية الفردية أم مع الملكية الجماعية أم معهما معا أم مع حل آخر ؟ رغم المعارضة الشعبية التي لقيتها سياسة تجميع الاراضي فاننا نستطيع أن نجد لها ما يبررها لا في الاسلام فحسب (الارض لمن يفلحها) بل و حتى في الممارسات اليومية بالريف التونسي . فالفلاحة التقليدية المتصلة بالزيتون وخاصة بالزرع والمرعى لا تزال تتجاهل مسألة الملكية الفردية . بل ان هذه الاخيرة ليست الا (المقصود شهادة الملكية) شكلية من الشكليات الا دارية التي يطالب بها الفلاح لمصلحة التنمية الريفية للحصول على اعانة في حين أن استغلالها لا يقع الا عائليا بالمفهوم الواسع للكلمة .

لكن التراث لا يتعارض أيضا مع الملكية الفردية و لا مع منطق الربح . ففي دراسة لشارل توراي عن "مصطلحات اللاهوت التجارية في القرآن " يبين كيف أن " العلاقات المتبادلة بين الله و الانسان هي علاقات تجارية بحتة . فالله هو خير الماكرين ... و كل شيء لديه بحساب و ميزان ... وجعل نفسه قدوة للتجارة الحسنة . و الحياة صفقة يربح فيها المرء أو يخسر ... "(2).

و لعل الاسلام مع الملكية الفردية أكثر مما هو مع الملكية الجماعية ، ولهذا طويت صفحة التعاضد وعلى رأي مؤلف مقالنا " الملكية الفردية ليست هي الصورة الوحيدة للقهر " مثلما أن " المساواة في استهلاك السلع والخدمات ليست الشرط

---

1) عبدالقادر ياسين - نفس المصدر .

2) مكسيم رودنسون - الاسلام و الرأسمالية - ترجمة نزيه الحكيم - دار الطليعة بيروت الطبعة الرابعة 1982 - ص 88 .

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

الوحيد لتحقيق العدل " . فهل يتنافر هذا مع السياسة التنموية المتفاوتة والتي يكون فيها الشريط الساحلي للبلاد ذا تنمية مختلفة - حتى لا نقول أفضل - عن تلك الموجودة داخل البلاد طالما أننا نستطيع أن نفهم هذا الاختلاف من " بدايات ميتافيزيقية " مختلفة عن البدايات الليبرالية أو الماركسية ؟ .

أما على المستوى المعياري ، فاننا لا نرى الا انسجاما بين استنكار صاحب المقال مسلمة "استقلال الابن أو البنت عن أسرتهما من أجل السعي الى تحقيق أكبر دخل ممكن " مسلمة أصلها غربي و ماهي سائرة عليه تجربة التنمية الريفية المندمجة من عقلنة تقوم على استثمار ما اعتبر أثناء الستينات " لا عقلانيا " " متخلفا " أي تحقيق اندماج المشروع الفلاحي ببنية أبوية تكون فيها سلطة الاب مقدسة وموارد مختلف أجناس و أعمار العيال تصب في "كدس واحد " كدس الاب .

و الواقع ، فان مشاريع الدولة التنموية لم تكن تستطيع ألا تفعل ذلك لا من خلال مثال تونس فقط بل وكل الاقطار العربية و لعل أقربها الينا الجزائر التي صدر فيها الميثاق الوطني سنة 1976 (قريب من تاريخ صدور برنامج التنمية الريفية 1973) " المتميز عن ميثاق الجزائر (1964) في سحبه التأكيد على الصراع الطبقي في الجزائر " و الذي يعاد فيه "تأكيد الاسلام كفلسفة توكد على تضامن بين البشر يتجاوز الجنس أو الطبقة أو القومية . "(1).

وبعد ألا يحق التنويه بهذا " الابداع التراثي " الباحث دوما عن خصوصياته الذاتية على خطى التجربة اليابانية ؟ كان أولى أن يأتي التنويه ممن يطرح ميتافيزيقا جديدة ! .

---

1) مغنية الازرق - نشوء الطبقات في الجزائر - ترجمة : سمير كرم - موسسة الابحاث العربية - 1980 . ص 149 - 151 .

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

II التقليدية و الحداثة

مقدمة

لقد كان هاجس الفصل السابق هو نمط مجتمعي "خصوصي" له مسلماته و افتراضاته الميتافيزيقية المغايرة التي كانت للنمط المجتمعي الغربي. ولقد كنا طرحنا هذه المسألة في مكان و زمان آخرين (1) من خلال اشكالية شرعية/ لا شرعية الدولة و / أو النظام في تونس انطلاقا من أطروحة لعبدالله العروي ترد لا شرعية الانظمة العربية الحالية الى لا شرعية الدولة في التاريخ العربي الاسلامي المتشبث "بطوبى الخلافة".

و اذ نخصص فيما يلي عنصرا لاستعراض هذه المسألة النظرية وللبرهنة على أن مسألة الشرعية أو اللا شرعية متعلقة في آخر الامر بمدى قدرة النظام على الاستجابة لتوقعات و حاجيات السكان فذلك تمهيدا لطرح السؤال الموالي في قالب فرضيتين : اذا كان رفض "الشرعية المهيمنة" - شرعية الحزب الحاكم - قد تم استنادا الى مرجعية قبلية (2)، فهل يعبر هذا عن :

أ و لا : رفض للحداثة أم رغبة فيها ؟

ثانيا : اذا كان الجواب "رفضا لها" فاننا سنقر "بلا شرعية الدولة" (ونظامها) و سنضطر الى قبول أطروحة العروي. أما اذا كان الجواب "رغبة فيها"

---

1) فتحي الرقيق - الهجرة والسكن في بنقردان. (الجزء الثالث). مصدر مذكور سابقا.

2) بينا في نفس الدراسة المذكورة أعلاه ، أن الهجرة السرية (الكنترة) والسكن في بنقردان توجههما مرجعية قبلية مغايرة (معاكسة) لمرجعية الادلوجة التحديثية و التوحيدية للنظام السائد.

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

فيجب حينئذ أن نتساءل لماذا لم يكن هذا الرفض قبليا جهويا في خطابه مثلما وقع خاصة أثناء الستينات (المحاولات الانقلابية لبعض رموز الفلاقة) وفي رموزه (كيفية تنظيم الهجرة والمسكن) مثلما رأينا في حالة بنقردان بمفردها (1985) وحالة كافة ولاية مدنين (1989) انطلاقا من بداية السبعينات؟ لماذا اذن اكتسى هذا الرفض طابعا " شموليا " ربما تجاوز في شموليته العائلة والعشيرة و القبيلة بل الوطن (و الوطن المقصود ليس " الامة التونسية " بل الوطن العربي) نحو رحاب أشمل؟

1- الدولة بين "الشرعية" و "اللاشرعية"

أ/- المشكل

يقرر عبدالله العروى(1) أن الدولة العربية الاسلامية لم تكن يوما شرعية (légitime) باعتبار أن جميع الدول التي عرفها التاريخ العربي الاسلامي كانت - باستثناء دولة الرسول و الخلفاء الراشدين - دولة سلطانية ، غايتها الحفاظ على ملك السلطان واستمرار نفوذه . ولهذا السبب كفر الفقهاء بها وأشاحوا بوجوههم عنها ووجهوا فكرهم نحو دولة اخرى ، دولة طوباوية لا صلة لها بالواقع .

ب/- المنهجية

سنحاول استغلال هذا الاستثناء - الخلافة - لا لنبرهن على أن دولة اسلامية مثالية - الخلافة - شيء ممكن . فهذه ليست غايتنا . وانما نريد أن نبين أن هذه الدولة الاسلامية المثالية - الخلافة - لم تكن أقل "سلطانية" من الدول التي جاءت بعدها .

ج/- الغاية

بالغ العروى في اعلاء (transcender) الخلافة الى حد أنه كاد

---

1) عبدالله العروى :- مفهوم الدولة - المركز الثقافي العربي - الطبعة الرابعة 1988.

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

ينسينا أنها حقيقة واقعية تحققت في فترة تاريخية معينة ، حتى يتسنى له نزع كل شرعية عن بقية الدول التي جاءت بعدها . ونحن نرغب في انزال هذه الخلافة الى واقعها الاجتماعي التاريخي حتى نعيد للدول التي لحقتها شرعيتها .

نبدأ أولا باستبدال مفهوم "الدولة السلطانية" بمصطلح آخر (1) "الدولة الدنيوية" لان الاول يفيد بأن السلطان هو المسيطر على النفوذ والممسك بكل السلطة السياسية و المستفيد الوحيد بما توفره له من خيرات . أما المصطلح الذي نقترحه فنعني به أن الدولة جهاز - مهما تعقدت وظائفه - بيد حلف من القوى الاجتماعية المتحالفة و المتمايزة عن بقية المجتمع سواء كان هذا التمايز أفقيا (عرقي من نوع فرس ، عرب ، أتراك ...) أو عمودي (طبقة اقطاعية ، طبقة تجار حربيين ...) هذا من جهة .

من جهة ثانية - وهذا أساس اختيار المصطلح الجديد - يفيدنا مصطلح "الدولة الدنيوية" في معرفة مدى "دنيوية" الخلافة وبالتالي مدى اقترابها من مثال الدول الاخرى . هذا لا يعني أننا نرغب في طمس الفروق بين الخلافة و بقية الدول الاخرى. وانما فقط أن نبرز أن هذه الفروق لا تبرر "شرعية" الاولى و "لا شرعية الثانية" .

تطغى على دولة الخلافة غاية "مكارم الاخلاق" و هذا هام جدا اذا وضعناه في اطار لا زالت الديانة الاسلامية تبحث فيه عن مكان لها بين جملة الديانات الاخرى - و حتى الى احتوائها لاحقا - لتغيير ما بالناس من حيوانية و "تأنيسهم".

---

1) هذا المصطلح ليس أفضل من مفهوم "الدولة السلطانية" الذي قدمه العروي. بل العكس هو الصحيح . لكننا نعتبره مناسب جدا في هذه الاشكالية الخصوصية التي تريد مقابلة بين العالم الفوقي - الخلافة احدى مميزاته - والعالم الدنيوي - مجال "الدولة الدنيوية" - واذا اتفقنا على "دنيوية" جميع الدول العربية الاسلامية منذ ظهور الاسلام ، فاننا نسترجع مفهوم الدولة السلطانية.

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

يبدو هذا الهدف واضحا في الخلافة أكثر مما هو عليه في أي دولة أخرى غير أن الخلافة لها أهداف دنيوية موجهة الى بشر يتزايد عددهم يوما بعد يوم وتتعقد مشاكلهم من مجرد القيام بالطقوس الدينية الى مختلف الحاجات الاجتماعية .

هذا تؤكده دراسة مكسيم رودنسون حول شخصية محمد نقدم منها فقرة حول محمد الذي لم يكن مجرد شخص يوحى اليه بل كان رجلا سياسيا بأتم ما في الكلمة من معنى : " بالمدينة ، اتضح أن هذا المبشر بحقائق عالم الغيب هو أيضا رجل سياسي لبيب و ماهر ومتأن وقادر على التحكم في عواطفه والجولة دون ظهورها الا في اللحظة المناسبة ، قادر على الانتظار طويلا ثم الضرب بسرعة عندما تحين الساعة المناسبة ". (1).

من هذه السمات التي ميزت محمدا، نستشف قدرته على اقامة أحلاف متعددة مع القبائل اليهودية الموجودة بالمدينة .

فقد كانت دولة المدينة التي بناها ما تزال جنينية فاختار عقد احلاف مع قبائل مثل بني قريضة وغيرها من اليهود مبينا أنهم من "أهل الكتاب" الموحدين بالله . " فتحالفوا معه واعطوه بالمقابل فرصة اتمام دعوته وبناء دولته ولكنه حين قوي سلطانه تراجع وقال ان اليهود دينهم محرف و بالتالي تجب محاربتهم". (2).

---

1) MAXIME RODINSON, MAHOMET . Le Seuil, page: 250

2) MXIME RODINSON, op, cit, page: 273.

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

ان الامثلة على براعته السياسية كثيرة ولكننا لا نريد الاسهاب فيها : فلم يفته مثلا استعمال الاساليب الدعائية فكان له شاعره الخاص حسان بن ثابت، وهو لا يتورع حتى عن اللجوء الى أساليب السياسة الشنيعة .

نحن لا نرمي - في سوقنا لهذه الامثلة - الى النيل من محمد أو اصدار حكم معيارى حول شخصيته ، نريد التساؤل فقط : هل تدخل مثل هذه المواقف و السلوكات في باب "تأنيس الانسان" و "نشر مكارم الاخلاق" مثلما يقول العروى أم في باب السياسة و التحالفات السياسية ؟ ان المكانة التي نالها أبوسفيان - ألد أعداء الدعوة الاسلامية - بعد عودة المسلمين نهائيا الى مكة، وتمتيعه بخيراتها لا يفهم انطلاقا من باب " مكارم الاخلاق" و انما من باب كسب عصبية ابن سفيان و من تبعه من قريش حتى وان كان ذلك على حساب بقية المسلمين الذين ناصروا الاسلام في حالة ضعفه .

كما ان سياسة محمد التوسعية في الجزيرة العربية لم تشذ عن هذه القاعدة . فكان يسارع بعقد الاحلاف مع أكثر ما يمكن من القبائل الموجودة بها . نقول تحالف ولا نقول اسلام " لان المؤرخين بالغوا كثيرا حين قالوا ان الجزيرة قد توحدت في عهده تحت مبدإ لا اله الا الله ومحمد رسول الله " (1).

فالواقع ان محمداكان يتحالف معهم على أساس التعاون في حالة الحرب دون أن يفرض على أغلبهم الدخول في الاسلام .

سعينا فيما تقدم الى ابراز الطابع " الدنيوى "لدولة الخلافة وحصرنا ذلك في فترة حكم محمد ولم نتحدث عن زمن حكم أبي بكر وعمر وعثمان وعلي بما في ذلك ما تميزت به خلافة هذين الاخيرين من صراع وعراك .

---

1) Même ouvrage, pages: 282-284.

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

بقي الان أن نبين الطابع "الاسلامي" الذي ميز الدول اللاحقة . لا شك أن هذه الدول لم تبلغ في سموها وبحثها عن " مكارم الاخلاق " درجة دولة الخلافة لكن هذا قابل للتفسير ويمكن حصر ذلك في عدة أسباب :

أ و لا : لكل عصر مشاكله ، فلئن تميز عصر الخلافة بالرغبة في نشر الاسلام (مكارم الاخلاق) فان العصر اللاحق تميز باستقرار حدود الدولة الاسلامية و تحول الاهتمام الى المشاكل - الدنيوية - الاجتماعية الداخلية ، فبدا للفقهاء وكأن هذه المشاكل غير حرية بالاهتمام لانها تذكر بطبيعة الانسان الحيوانية و بالتالي فهي مؤشر على فساد طبع الانسان و على انخرام الحكم. فاعتزلوا - الفقهاء - واقعهم وتطلعوا الى سماء الطوبى باحثين عن الخلافة - المعجزة - التي تؤنس البشر من جديد .

ثانيا : ان الاسلام جاء بأهداف أخروية (مكارم الاخلاق) وأهداف دنيوية لكنه قدم الاولى على الثانية في فترة الخلافة. وهذا التقديم هو الذي جعل فقهاء المرحلة اللاحقة يظنون أن الخلافة كلها "مثل" و "مكارم اخلاق" . فاثر هذا الظن في حكمهم على دولهم . فكان هروبهم منها ويأسهم من اصلاحها .

ثالثا : ان موقف الفقهاء من الدولة واعتبارها "لا شرعية" لا يرجع فحسب - مثلما يقول العروى - الى أن هذه الدول تحيد عن المثال الاسمى الذي يعشش في رؤوسهم و انما أيضا الى الانتماء الطبقي لهؤلاء الفقهاء. هذا من ناحية (أ) و من ناحية أخرى فان موقفهم من الدولة القائمة سواء أكان ولاء أو مناهضة. لا يعني البتة اقرارا "بلا شرعية" هذه الدولة و سنرى كيف ذلك (ب).

أ - ان الفقيه يمكن أن يكون مناهضا للدولة القائمة فينزع عنها كل شرعية غير أن هذه المعارضة لا تقف دائما عند حدود المعارضة - مثلما يريد أن يقنعنا العروى - بل تصل الى حد اقتراح البديل . وهذا البديل لم يبق سجين الطوبى بل عرف التجسيد الدنيوى. فالدولة - الخلافة - الفاطمية التي نمت بافريقية وسط

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

احدى العصبيات البربرية والتي جندت لها الاحلاف القبلية استطاعت أن تبني لها " شرعيتها " الخاصة . وها هو ابن هاني " شاعر الفرقة الاسماعيلية التي ينتمي اليها الفاطميون " (1) والمعاصر لامير المومنين المعز لدين الله الفاطمي يمجد شخصيته ويحتبره خليفة المسلمين وربما أكثر واسما بذلك شعره بميسم سياسي عقائدي :

ماشئت لا ما شاءت الاقدار فاحكم فانت الواحد القهار

وكأنما انت النبيء محمد و كأنما أنصارك الانصار

فالمعز لدين الله الفاطمي ليس سلطانا بل هو امام وهنا نلمس التطابق و الانصهار بين الطوبي و الواقع عند فقهاء الشيعة بين امارة المومنين والامساك بالسلطة السياسية . فالشيعة يعتقدون أن الامامة مثل النبوة منصب الاهي . " الا انهم وضعوا الامامة في المرتبة الثانية بعد النبوة التي ختم دورها بمحمد " (2) .

وهكذا فمعارضة الدولة القائمة لم تكن دائما كما يراها العروى مساندة - من حيث أنها لا تقدم البديل - بل هي معارضة وبديل في نفس الوقت . فالدولة الموحدية مثلا ، التي انطلقت من دعوة قام بها محمد بن تومرت في أقصى جنوب المغرب ضد دولة المرابطين القائمة هي دولة يمتزج فيها الواقع بالطوبي ، وهذا الامتزاج و الانصهار لم ينكره لا فقهاء ولا مريدى هذه الدولة الجنينية .

ب- والفقيه يمكن أن يكون مساندا للدولة القائمة ، لكنه حسب العروى لا يشرعها . نعود الى كتاب "مفهوم الدولة " ومنه نعرض قول الغزالي في " احياء علوم الدين" . . ((اننا نراعي الصفات و الشروط في السلاطين تشوفا الى مزايا المصالح ، ولو

---

1) أحمد خالد - ابن هانيء - الشركة التونسية للتوزيع - تونس 1976 - ص 13.

2) نفس المصدر ص 14 .

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

قضينا ببطلان الولايات الان لبطلت المصالح رأسا . فكيف يفوت رأس المال في طلب الربح)) . يعلق العروى " هذا تعليل واضح لضرورة التكيف مع الواقع ، فما هو ذلك الواقع ؟ الواقع ان الطبيعة الانسانية لا تتحمل النظام الاسمى ، أي الخلافة ، و الوعي بهذه النقطة هو الذي دفع الفقهاء و منهم الغزالي الى اهمال مسألة احياء الخلافة " (1).

و قبل أن نعلق على تعليق العروى نعلق أولا على موقف الغزالي :

أ و لا : بصيغة تبسيطية نقول ان الغزالي ، حين ينزع عن الدولة القائمة سمة الخلافة فانما يفعل ذلك اما من منطلق " المثقف العضوى " الواعي بمصالحه الطبقية المرتبطة بالوضع القائم أو من منطلق المثقف الذي يخلق أكذوبة يكون هو أول من يعتقد في صحتها . وفي كلتا الحالتين فان الغزالي — أو غيره — يبرر اخطاءها يكون حكامها بشراء وهكذا يحول دون الناس ونقدها .

لكن من السهل تعرية مواقف الغزالي . فكون الحكام يخطئون ويتعرضون للنقد لا يمنع أن تكون هذه الدولة شرعية . فخلافة كل من أبي بكر وعمر وحتى دولة الرسول لم تخل جميعها من أخطاء ومع ذلك فقد كانت شرعية .

ثانيا : نعلق الان على تعليق العروى الذي يرى أن " الخلافة ليست من قبيل البشر "لان هدفها هو " مكارم الاخلاق " في حين ان السلطنة هدفها الحفاظ على نفوذ السلطان وملكه . فنجيب : مثلما ان الخلافة ترمي الى نشر " مكارم الاخلاق " فان العديد من السلطنات لم تهمل هذا المبدا (خلافة عمر بن عبدالعزيز مثلا الذي لقب بعمر الثاني). كذلك فان الخلافة لم تخل هي الاخرى

---

1) عبدالله العروى — نفس المصدر ، ص 101 .

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

من عناصر دنيوية . فليست كل الحروب التي شنها الرسول والخلفاء ولا كل التحالفات السياسية التي عقدوها و لا كل الذين دخلوا الى الاسلام (أبوسفيان مثلا) ... من باب الايمان بالله وتحقيق " مكارم الاخلاق " بل لعبت الدوافع الانسانية " الدنيوية " دورها الاساسي ولا أحد ينكرها والا نزعنا عن كل من أبي بكر و عمر وبقية الخلفاء كل نزعة بشرية والحقناهم بزمرة الانبياء !!.

أكيد جدا أن النزوع الى الشهرة وحب النفوذ ، كانت واضحة في الدول التي جاءت بعد دولة الخلافة مقابل هيمنة الجهاد في سبيل الله والبحث الثواب الاخروى في هذه الاخيرة . الا أن هذا لا يتطلب جهدا كبيرا لكي يفهم . فيكفي أن أبا بكر وعمر من الذين ساندوا محمد وحموا ظهره قبل غيرهم حتى ندرك مدى القدسية التي تسبغ عليهم وبالتالي على دولهم .

2 - " القبلية " و الحداثة

مقدمة :

أليس في تساؤلنا ، أثناء المقدمة العامة لهذا الفصل الثاني عن رغبة سكان الريف في الحداثة أم رفضهم لها استفهاما انكاريا ؟ انكارية الاستفهام مأتاها أننا وضحنا باسهاب أثناء فصل الوظائف الاستهلاكية للعائلة الى أي مدى يسعى الريفي الى تحقيق ما هيأته له التعبئة الاجتماعية ولم تنجزه . والا فما معنى الجري وراء الفيلا و السيارة و التلفزة و الفيديو وكل - ولربما أفضل بكثير - ما يحقق ما يحوصله بورقيبة في عبارة " فرحة الحياة " .

و مع ذلك فان انكارية السؤال ليست بمثل ما تبدو عليه من بداهة بدليل أننا وضحنا أيضا أثناء فصل الوظائف الانتاجية من نفس الجزء الثاني أن

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

ما تحقق من رموز الحداثة مدين في مجمله الى موارد الهجرة التي تمت في اطار تقسيم عائلي للعمل و أشكال من التزاوج الداخلي (endogamie) و ممارسات سياسية "عشائرية".

هل نقول إن بنى الحداثة قد أثرت في البنى التقليدية ولقحتها ببعض رموز الحراك الاجتماعي - وبالتالي التراتب الاجتماعي - التي ستجعل سكان الريف "مرغمين اما على التشكل في (الـ) دولة ، واما اللجوء الى ظل (الـ) دولة (الـ) قائمة فعلا." (1) مُنْهِينَ هامشيتهم للالتحاق - شيئا فشيئا - بالمجتمع المديني و ربما المدني ؟ أم ترانا نقول بأن التقليدية القبلية قد "هضمت" "غائم الحداثة" (بلغة قبلية) وأدت الى أن يشعر كل عضو من هذه " الهيئات ذات الطابع العائلي ...و المحلي..بأنه يحتل مركزا قيما جدا ، لانه يسمح له بالتميز عن الاخرين ..."(2) لكن هذا التميز يجب أن لا يفهم على أنه حراك اجتماعي مفض لا محالة الى تمايز اجتماعي يدمج الريف بالمدينة ، فعلى رأي ليفي ستراوس " ربما يعتبر كل واحد مركزه أعلى من مركز جيرانه لا لانه يساوي بالنسبة اليه سلطة ضغط أو استغلال ، و انما فقط لانه ينطوي على فوارق طفيفة ترتبط بها قيمة شبه جمالية." (3).

ان الحسم بين هذين الافتراضين يتطلب تذكيرا سريعا بظاهرة اجتماعية عرفها تاريخ البلاد منذ القديم و اكتسبت مشروعية بفضل تسميتها - الفلاقة - لا مثيل لها خاصة أثناء الخمسينات وفقدتها بسبب نفس التسمية أثناء الستينات.

---

1) جوزيف شترايز - الاصول الوسيطة للدولة الحديثة - ترجمة محمد عيتاني - دار التنوير الطبعة الاولى 1982 . ص 8

2) محمد بن احمودة - مصدر مذكور . ص 121.

3) نفس المصدر . ص 121.

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

و لا شك أن السوءالين هل و/ لماذا ماتت ظاهرة الفلاقة "سوءالان مهمـــان ، لكن أهم منها الان السوءال : هل بأن اماتة و احياء هذه الظاهرة اختصاص مـــن اختصاصات الحزب الدستوري التونسي أم هي ظاهرة عامة في العالم الثالث ؟

أ=/ الحـزب والفـلاقـة و " غيمـة الاستقـــلال "

من السهل جدا المرور من ثلا ثية ابن خلدون حول الحضر والبـــدو و الملك ـ والكيفية التي بها ينتقل البدوي الى المدينة بعد استيلائه على الملك ـ الى أطروحة "الاستيـلاء على المدينة بمثابة الاستيلاء على السلطة "(1). و اذا كان ساكن الريف ابان الفترة الاستعمارية الفرنسية يكره فيها استفزازها له برمـوزهـا المعمارية الاجنبية وساكنها المستغل فانه " اليوم يفعل أي شيء ليصبح أحـــد سكانها . " (2).

و لو نهب الفلاقة ما ترك المستعمرون من متاع في المدينة أو استولـوا علـى ما خلفه من أراض في الريف ثم عادوا الى ريفهم لما أصبح هناك من مبـــرر لبقاء هذه الظاهرة لكن سكان الريف أصبحوا يحلمون أيضا "بالاستيـــــلاء على المدينة التي توفر الحداثة و الرفعة والعلاقات والترفيه و الثقافة "(3). وهي غـيمـة لا تقل قيمة عن الغنائم الاولى بل هي أفضل لانها أبقى .

لكن قادة البرجوازية الصغيرة التي كانت على رأس الحزب و التي لـــم تستطع من قبل تجنب هذا الربط ـ و لعلنا لا نجانب الصواب ان قلنا شجعت عليه ـ في ذهنية الفلاحين بين " تحقيق الاستقلال "كجهاد من ناحية و " الاستيـــلاء على ما تركه من غنائم " كمقابل لذلك الجهاد من ناحية أخرى. وللحفاظ علـــى شرعية قيادة جهاز الدولة سيضطر هؤلاء القادة عندئذ الى اعادة تعريف هذيـــن

I) Henri Sanson. Prise de la ville, Prise du pouvoir- A.A.N- I972.

2) Ibid- page 25.

3) Ibid- page 24

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

المهمتين بجعلهما من طبيعة واحدة أو على الاصح بجعل الثانية من طبيعة الاولى. و عليه فاذا فهمت المهمة الاولى على أنها جهاد فيجب أن تصبح "جهادا أصغر" لتفهم - أو يحاد فهم - المهمة الثانية - "ما بعد الاستقلال" - على أنه أيضا جهاد "جهاد أكبر" أي تعمية بلغة غامضة و تضحية وليس غائم بلغة يفهمها الفلاحين.

وأنى لهؤلاء أن يفهموا تعريفا جديدا اذا كانت الدولة نفسها قد بدأت بعد في التصرف على أساس التعريف والفهم القديمين وبدأت في "توزيع بعض ثروات وخيرات البلاد" (1) توزيعا يفتقر لاي مبدإ موضوعي ينسحب على الجميع (حتى التوزيع على مبدإ إصلاح زراعي كان سيغضب كبار الملاكين) و أدى الى مواقف وقرارات مرتجلة تتراوح بين اعطاء "هذه الاراضي عن حسن نية لبعض الناس (أي ناس !.) كي يتصرفوا فيها أو (وضعها) في نطاق الاشهار والمزايدة العلنية (فتكون) من نصيب أصحاب الاموال الوفيرة ... أو أخيرا ونظرا لتعقد المشكل (بيعها) الى أناس (رُوعِيَ) أن يكونوا دستوريين بطريقة التقسيط . لكن لم يجد هذا شيئا ، فكل واحد يرغب في أن يشتري أرضا يسدد ثمنها خلال عشرين سنة ..." (2).

و هكذا لم يكن هناك من حل سوى تقزيم الدور العسكري في مهمة "الجهاد الاصغر" لهؤلاء الذين ((يحسبون أنهم هم الذين أسسوا الدولة ومن ثم يجب أن تكون تحت تصرفهم ... وأن تستند اليهم رخص النقل و تمنح لهم الضيعات

---

1) الحبيب بورقيبة - خطاب 18 جانفي 1963. نشريات وزارة الاعلام تونس 1979 (والمقصود هنا توزيع بعض الاراضي التي كانت على ملك بعض البايات الذين أدينوا أو أراضي الاوقاف).

2) نفس المصدر.

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

و امتيازات التصدير و التوريد . . . ويقترضون من البنوك ويمتنعون عن تسديد ما يقترضونه . . .)) وبتعظيم الدور السياسي للحزب في مهمة " الجهاد الاكبر حتى يسهل ((سحب رخص النقل (من أيدي زعماء الفلاقة)) ليمكن ((تنظيم قطاع النقل بكيفية مطابقة للاصول الاقتصادية .)) (1)

أليس هذا حكم من بيده السلطة على من ينازعه اياها ؟ موقف من يبدو أنه يتكلم باسم " الامة جمعاء " و " الوحدة القومية " ممن يتحدث عن " نصيبه من الاستقلال ؟ . والواقع فحتى امكانية اقامة علاقة بين انتفاضات بعض زعماء عروش الريف من ناحية و " الحركة اليوسفية " من ناحية أخرى لاخراجها من وصمة " العشائرية " أو " الدفعية الضيقة " و ضمها الى حركة سياسية شاملة مغربية أو عروبية أو اسلامية لا تجد لها ما يسندها ذلك أنه " من الخطا القول إن صالح بن يوسف كان على مستوى الاختيارات السياسية و الايديولوجية والاستراتيجية مجسدا للتوجه الوطني الراديكالي والتقارب مع الوطنيين المغاربة و النزعة الاسلامية . . . "(2).

فعلى مستوى علاقته بالحركة الزيتونية ، و بوصفه وزيرا للعدل ، " نادى في ماي 1951 بتوخي الصرامة الاشد ضد مظاهرات الطلبة الزيتونيين" و أما على مستوى المفاوضات الجارية بين الحزب الدستوري و السلط الاستعمارية الفرنسية فلم يكن صالح بن يوسف " حتى سنة 1954 ، من المنادين بشعار الكل أو لا شيء " اذ على العكس " كشف في مارس 1952 من اتصالاته شبه الرسمية ببعض الشخصيات الفرنسية مثل فانسون أويول . . . وربير شومان . . . "، وهكذا

---

1) نفس المصدر.

2) علي بن عامر - سيرة صالح بن يوسف : قراءة نقدية - تعريب محمد محالي - مجلة أطروحات . عدد 15 - 1989 . ص 9 .

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

اذا أمكن لنا أن نعتبر " اقصاء الحكومة الفرنسية له من المفاوضات حول الاستقلال الداخلي " آخر ما كان يشده الى خط الحزب الدستوري فيمكن أيضا اعتباره أول ما أصبح يشده الى " حركة الفلاقة " (التي تطورت) بين سنتي 1952 و 1954 مما جعله يأمل في أن يجد فيها حليفا. "(1).

و لم تكن علاقة هؤلاء به أقل براغماتية من علاقته بهم. فهم - على الاقل الكثير منهم - " يوسفيون " ليس بما هم كذلك و انما بما هم معارضون لبورقيبة الذي اعتبرهم " أوباش " و " غير دستوريين " وحرمهم من جراية المناضلين التي مثلت اعادتها لهم - مثلما لاحظنا في منطقة الورسنية ببنقردان أو غيرها - بعد 7 نوفمبر بالنسبة لنا دليلا آخر على أن "وصمة اليوسفية" أو " لقب اليوسفية " حسب موقع المتكلم ،كانت "سيسة " أكثر مما يتحمل أشخاصهم ولكنها ضرورية لاسكات " عشائريتهم المطلبية ".

اننا نعتقد اذن أنه بقدر ما يصح اعتبار "عودة الشعور بالانتماء التقليدي نتيجة من نتائج السياسة التنموية يجب كذلك اعتباره - وربما أكثر - " نتيجة من نتائج الاستقلال" (2). بل انه لم يكن في حاجة الى سياسة تنموية بدليل أن التأثير الذي مارسه الاتحاد العام التونسي للشغل في وضع خطة تنموية أدت الى تجربة التعاضد لم يكن له أي رد فعل ايجابي لان التنمية تعني مثلما كررنا أضحيات بشرية في حين أن الفلاحين قد هبوا بعد لقطف " الثمار ".

---

1) نفس المصدر. ص 9.

2) جان فافي - التقليدوية والتحديث المعاق (كتاب الانتروبولوجيا والتاريخ حالة المغرب العربي) ترجمة عبدالاحد السبتي وعبداللطيف الفلق - دار توبقال للنشر - الطبعة الاولى 1988. ص88.

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

ب =/ الفلاقة " كلصوصية اجتماعية "

ان ظاهرة "الفلاقة" التونسية يمكن ادماجها في ظاهرة عامة عرفتها عديد البلدان ففي " الكونغو كينشاسا ونيجيريا غالبا ما كان اندماج الاتنيات موقتا "... و في أندونيسيا " أدت كل مرحلة باتجاه الحداثة الى تعزيز النزاعات الاقليمية - رغم محاولات ايديولوجيا الشيوعيين هناك الخلط بين ماركسية مبسطة وطروحات تقليدية - التي أخضعت السلطة لضغط متزايد و ضاعفت الادلة على ضعفها ... ولهذا ابتداء من 1957 تكاثرت حركات التمرد المناطقية وانهارت السلطة الجديدة تدريجيا . " (1).

لكن الى أي مدى تصح تسمية " اللصوصية الاجتماعية " التي وضعها هوبسباوم على الانتفاضات التي ذكرناها أو التي سنذكرها؟ " ان برنامج اللصوص العادلين (روبان دي بوا على سبيل المثال) الصقليين ... يريد اقامة مسافة بين الدولة و مجتمع القرية كي يعيش هذا المجتمع بعيدا عن أي تدخل خارجي "وما أبعد أهدافه عن أهداف " اللصوصية الاجتماعية " لقبائل الاوراس الجزائرية التي سنسعى الان الى اظهار خصوصياتها و أوجه شبهها مع انتفاضات سكان الريف التونسي :

أ و لا :لوحظ لدى صغار الفلاحين الجزائريين - تماما مثلما لاحظنا لدى صغار الفلاحين بتونس - "توظيف لاموال الهجرة في الاستغلاليات الفلاحية وبناء المساكن " و بقاء أنساق المصاهرة الدالة على " استمرارية السلالة كاطار مرجعي " لا لانها تعبر عن مضمون سياسي و انما "لانها لا تزال تحافظ على وظائفها الاقتصادية."(2).

---

1)جورج بالانديه - الانثربولوجيا السياسية - مركز الانماء القومي - بيروت 1986 . ص 133.

2) جان قافري - نفس المصدر - ص 96.

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

و اذا كانت انتفاضة الاوراس الجزائرية بعيدة عن أن تكون سيسة رغم زعامة بعض " القادة التاريخيين للثورة " (1) لها (المقصود بالزعماء هنا نائب المنطقة المذكورة وصهره الامين العام للديوان السياسي الذي التحق به فيما بعد والمقصود بالثورة ليس انتفاضة الاوراس و انما الثورة الجزائرية ككل) فأحرى بالانتفاضات التي عرفها الريف التونسي أن تكون أبعد منها عن التسيس لما سبق أن ذكرناه عن حقيقة " الحركة اليوسفية " ولما نعرفه عن رموز مثل لزهر الشرايطي والساسي فارس والشيخ حسن فكلهم - أو على الاقل جلهم - ينتمون الى نفس الحزب الدستوري .

ثانيا : و هنا نصل الى الاجابة عن فرضية رغبة أم رفض صغار الفلاحين للحداثة : " لا ينتفض الفلاحون بدافع التخوف من اكتساح النسق الحضري بل لانهم يتخوفون من العجز عن الاندماج اللازم في ذلك النسق . "(2). وهذا معناه أنهم على استعداد لا ن يصبحوا الشرعية على أي نظام سياسي يقوم بدوره كمبادر يوفر مواطن الشغل وهذا ما يفسر أيضا غياب مثل هذه الانتفاضات في أقطار مثل أقطار الخليج الثرية والقادرة بفضل فائض البترول على الاستجابة لتطلعات وطموحات سكانها من الحداثة .

خاتمة :

بعد أن أجبنا عن السؤال الاهم جاء الوقت لنطرح السؤالين الهامين : هل و/ لماذا ماتت " ظاهرة الفلاقة ؟ " صحيح أن تحليلنا لهذه الظاهرة أتى على عدد من الخصائص - كطابعها الانفعالي والشخصي واللاسياسي - المنبئة بموتها ، لكن ألا يتناقض هذا تمام التناقض مع ما فتئنا نؤكد عليه طوال أطروحتنا من تدعم للبنى التقليدية بالريف التونسي تزامنا وتوازيا مع نشأة وتطور برنامج التنمية الريفية التحديثي ؟ اذا بين لنا هذا أن اطارها " العشائري " لازال قائما و أثبتت لنا دراستنا الميدانية أن مطلبها في الحداثة لازال ماثلا فقد بقي أن نتساءل فقط : هل مازال خطابها " غير مسيس " ؟ .

---

1) نفس المصدر . ص 88 .

2) نفس المصدر . ص 98 .

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

III- لا عقلانية التنمية

مقدمة

ختمنا الفصل السابق بما معناه أن ظاهرة "الفلاقة" (بكسر الفاء) أو "اللصوصية الاجتماعية" إن تكن قد ماتت فإن دواعي بقائها لم تمت فحسب و انما تدعمت وهذا يعني أنها ان تكن قد عرفت فعلا نهايتها قبل أن تنتهي عشرية الستينات فلا نشك في أن وراء تلك النهاية - برغم توفر أسباب البقاء - القليل من "التسييس". وان تكن، أكثر من ذلك، قد عرفت حقيقة انطلاقتها مع السبعينات - وخاصة الثمانينات- فلا نشك أن وراء ذلك أيضا الكثير من "التسييس".

ولو صح اليوم أن صغار الفلاحين، من كانوا بالامس البعيد رمز أرض البارود و بالامس القريب عنوان "اللصوصية الاجتماعية"، قد "تسيسوا" فقد صح أيضا أننا وضعنا أول قدم في المجتمع المدني مجتمع المؤسسات الذي لا تكف فيه "الحياة السياسية ... (عن أن تكون لا محالة حربا) ولكنها حرب مدنية مقننة."(1) و يصح أخيرا أننا - على هدى اليابان وليس على خطه أو خطاه - بدأنا نتلمس الطريق - طريقنا - نحو "أوتوقراطية تحديثية." (2) ولكنها خصوصية فيها من الاصالة بقدر ما فيها من الحداثة.

---

1) عبدالله العروي - التقليد والحداثة (حوار) مجلة أطروحات عدد 16 - جانفي 1990.

2) عبدالغفار رشاد - مصدر مذكور - ص 114.

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

1- "القبلية الحزبية"

مقدمة :

حين يقع الحديث عن دولة الستينات فكثيرا ما يقع التركيز على طابعها الكلياني الذي بلغ أوجه في مؤتمر الحزب الاشتراكي الدستوري الذي انعقد ببنزرت في شهر أكتوبر 1964، بعد هذا المؤتمر أصبح الحزب هو الدولة والدولة هي الحزب. ولئن كان سكان المدينة هم أول الخاسرين باعتبار أن ابتلاع الدولة لمؤسسات المجتمع ستحرمهم من استقلالية عنها و بالتالي من سلطة ما، فان سكان الريف هم أيضا لم ينجوا من هذه الكليانية التي مثلت تجربة التعاضد فيها بالنسبة لهم قمتها. فالى أي مدى يبقى هذا الحكم صحيحا أو يصبح خاطئا بعد دخول عشرية السبعينات ؟

اننا اذ نحصر مجال اهتمامنا بالريف، سيكون هدفنا البحث في مدى "تسيس" أو "عدم تسيس" انتماءات سكان الريف الى المؤسسات والتنظيمات المرتبطة مباشرة بالسياسة كالاحزاب وغير مباشرة كالنقابات و اتحاد الفلاحين ومنظمة التربية والاسرة وغيرها. أما وسيلتنا في ذلك فهي السياسة التنموية للدولة من خلال برامج التنمية الريفية و ما عرفته من تطورات لا بين عشرية السبعينات والثمانينات فقط بل و أيضا - وهذا الجديد - في آخر العشرية الاخيرة.

أ = نشأة البرنامج الجهوي للتنمية

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

الجمهورية التونسية
وزارة التخطيط والمالية

تونس في 3 فيفري 1987

المندوبية العامة للتنمية الجهوية والتهيئة العمرانية عدد 56

منشور
من وزير التخطيط والمالية
الى
السادة الولاة

الموضوع : البرنامج الجهوي للتنمية وطريقة اعداده وتنفيذه ومتابعته .

وبعد ،

فحرصا على ضمان نموّ متناسق ومتوازن لكل الجهات وسعيا لبلوغ اهداف المخطط السابع (1987 - 1991) للتنمية الاقتصادية والاجتماعية الذي سيسعر على ترشيد الاستثمارات فقد تقرر توحيد البرامج الجهوية للتشغيل والانتاج (برنامج التنمية الريفية وبرنامج العائلة المنتجة وبرنامج تشغيل الشباب وبرنامج التشغيل الظرفي وبرنامج العملة العائدين من ليبيا والبرنامج الحدودي وبرنامج التنمية الريفية المندمجة في نطاق برنامج واحد يطلق عليه اسم البرنامج الجهوي للتنمية بصفة تدريجية ابتداء من سنة 1987 .

ويأتي هذا القرار للزيادة في النجاعة ولاحكام التنسيق بين مختلف التدخلات على المستوى الجهوي ذلك أن تعدد البرامج وتعدد طرق اعدادها وتنفيذها وادارتها يجعل من الصعب التنسيق بينها

.../...

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

مثلما حوى برنامج التنمية الريفية المندمجة ايجابيات برنامج التنمية الريفية وسعى الى تجاوز سلبياته فأكسبه طابعا عقلانيا تمثل خاصة في مزيد من النجاعة بتخفيض عدد المنتفعين الى أدنى ما يمكن حتى ينالوا أقصى ما يمكن من اعانة ويحقق تبعا لذلك أفضل ما يمكن من انتاج ، فان البرنامج الجهوي للتنمية الذي أصبحت تندرج فيه كل البرامج ،جاء هو أيضا لتدعيم تلك العقلنة باضافة نوجزها في القضاء على سلبيتين :

الاولى هي سلبية " الظرفية " التي كانت وراء نشأة العديد من البرامج ، وتحكمت فيها أزمات اجتماعية وسياسية جسمت فيها برامج مثل البرنامج الخاص باعانة أو تشغيل المطرودين من ليبيا أو برنامج ازالة الاكواخ ، وهي كلها برامج تونسية ، جسمت ما لاحظه برهان غليون في كل الاقطار العربية من " الهبات الرئاسية السنوية للعمال أو المستهلكين بشكل عام "(1). ولقد نتج عن هذا ارتجالية وضبابية في أهدافها بحيث أصبح من الصعب تمييزها عن أهداف برامج أخرى. وفي هذا الاطار يندرج الكلام الموجود بالمنشور المذكور أعلاه عن برنامج تشغيل الشباب : "ان التدخل لفائدة تشغيل الشباب لم يعد موضوع برنامج منفرد (لان) تدخلاته وزعت على جميع فصول البرنامج الجهوي مما يمكن من اعطاء الحمل لفائدة تشغيل الشباب أكثر شمولية ومزيدا من الفعالية ويجعله أكثر تجاوبا مع حاجيات الكهات ."(2)

أما فيما يتعلق بالسلبية الثانية ، سلبية التصدق والاستهلاك التي كانت وراء تعدد مثل هذه البرامج والتي كنا تساءلنا عن جدواها في خاتمة الجزء الاول من

---

1) برهان غليون - الوعي الذاتي - دار عيون للنشر - الدار البيضاء - الطبعة الاولى 1987.

2) منشور 3 فيفري 1987 - ص 2 .

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

هذا العمل ، فقد جاء البرنامج الجديد ليضع حدا لهذا الخلط بين الانتاجي و الاستهلاكي فتقرر " في خصوص برنامج العائلة المنتجة نظرا لصبغته الاجتماعية ... و اعتبارا لخصوصية الفئات المستهدفة (من هم في حالة الاسعاف) أن يتولى أعوان العمل الاجتماعي تنفيذ البرنامج ." ولهذا السبب أصبح البرنامج من هنا فصاعدا تابعا لوزارة الشؤون الاجتماعية .

فهل يمكن لهذه الاستقلالية والعقلانية اللتين أصبحتا تطبعان التنمية الجهوية أن تحيدانها عن مشاكل الحزب الحاكم و أزمات شرعيته وتنعكسا ايجابيا على موقف صغار الفلاحين من جملة المؤسسات والمنظمات المجتمعية ؟

جدول عدد 18 : هل لك مسؤولية اجتماعية أو ثقافية أو سياسية

الجواب / البرنامج	ليس لها انخراط		لها مجرد انخراط		لها مسؤول فاعل أو كان فاعلا		الجملة	
	ع	ن	ع	ن	ع	ن	ع	ن
التنمية الريفية بن قردان	9	15	33	56	17	29	59	100
ميدون	3	4	53	65	25	31	81	100
سيدي مخلوف	6	15,5	11	29	21	55,5	38	100
الجملة	18	10	97	54,5	63	35,5	178	100
التنمية الريفية المندمجة المعمرات (بنقردان)	9	37,5	7	29	8	33,5	24	100

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

عن نتيجة هذا الجدول مضاعفة فهو يبين أولا أن نسبتي الذين لهم انخـــراط أو مسوءولية (هي في الاغلبية الساحقة انخراطات و مسوءوليات بالحزب الاشتراكي الدستوري و بدرجة أقل في منظمة التربية والاسرة أو النقابة ..) تصل جملة الى 90٪ . (أي 54ر5 35ر5) في برنامج التنمية الريفية الذي انطلق منذ بداية السبعينات . ان تلك النسبة تبين بكل وضوح اذن أن تخلي الدولة عن "الشأن الريفي" باعانة الفلاحيـــن من بعيد بتمتيعهم بقطع أرضهم أدى الى نتائج ايجابية في مستوى علاقة هوءلاء بهـا . فكانت تلك الانخراطات و المسوءوليات دليلا يبرز الانفراج الحاصل في علاقة الدولـــة بالمجتمع بين عشرية الستينات و العشريتين الموالتين . ثانيا واذا قارنا نتائج برنامـــج التنمية الريفية وبرنامج التنمية الريفية المندمجة نلاحظ تطورا واضحا في نسبة من تمتعـــوا باعانة دون أن يكون لهم انخراط أو مسوءولية فالمرور من 10 ٪ . الى 37ر5 ٪ . يعبر فعلا عن اتجاه التنمية اتجاها عقلانيا محددا من قبل مصالح دولوية أكثر مما توجهـــه مصالح حزبية ضيقة .

غير أن هذه الاستنتاجات المتفائلة سرعان ما تنهار أمام الاعتراضيـــن الموالتين . أولا : ان "التسيس" أو ان شئنا الدقة "المشاركة" الذي لاحظناه (ها) في الاستنتاج الاول لا يعكس البتة تصالحا بين الحزب الحاكم ـ الدولة ـ وصغار الفلاحين بما أنه لا يزال يتصرف كحزب ـ دولة يسخر مواردها لخدمته وأبلغ مثال على ذلـــك الوثيقة المصاحبة لهذا الكلام والتي تتضمن تخصيص مبالغ مالية من اعتمادات التنميـــة الريفية لحاجات حزبية وفي سنة 1982 عندما أصبحت لا عقلانية هذا البرنامج واضحـــة للعيان وبدا التفكير في البرنامج المندمج .

ثانيا وفيما يتعلق بالاستنتاج الثاني فان وجود نسبة ب 37ر5 ٪ . من منتفعـــي برنامج التنمية الريفية المندمجة ممن ليس لهم انخراط أو مسوءولية فانه قابل للدحض مـــن

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

ناحية لاننا في هذا البرنامج أمام عينة تتمتع بقرض يصل الى آلاف الدينارات و ممول من بنوك أجنبية لها شروطها ولذلك فليس في مقدور كل من ينتمي أو يثبت بوثيقة أنه ينتمي الى الحزب الاشتراكي الدستوري أن يحصل على هذا الامتياز. ومن ناحية أخرى فان منتفعي البرنامج ليسوا محدودي العدد فحسب بل وأيضا محصورين في مناطق معينة وقع عليها الاختيار اعتمادا على بعض خصائصها الانتاجية كخصوبة الارض مثلا.

قائمة في الشعب المنتفعة بالمشاتل ضمن برنامج التنمية الريفية لسنة 1982.

1) شعبة حي ابن خلدون الدستورية
- 4 مناضد
- 15 كرسي
- 1 شطرنج
- 2 دومينو
- 1 مذياع
- 1 تلفزة
- كيس ملابس قديمة

2) شعبة محمد صالح بلحاج الدستورية
- 13 كرسي
- 4 مناضد
- 1 جهاز تلفزة
- 2 شطرنج
- 2 دومينو
- كيس ملابس قديمة

3) شعبة حي الانطلاقة الدستورية
- 1 خزانة
- 10 كراسي
- 2 مناضد
- 2 دومينو
- 2 شطرنج
- كيس ملابس قديمة

4) شعبة احمد الثليثي الدستورية
- 13 كرسي
- 4 مناضد
- 1 شطرنج
- 2 دومينو
- 1 مذياع
- كيس ملابس قديمة

5) شعبة حي التحرير الدستورية
- 1 منضدة
- 20 كرسي
- 2 دومينو
- 1 شطرنج
- كيس ملابس قديمة

6) جمعية ابن خلدون الرياضي
- 30 شرط رياضي
- 30 مريول رياضي
- 30 حذاء رياضي
- 5 كرات قدم
- 1 طاولة
- 4 كرسي

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

ولهذا تضعف قيمة الانتماء الحزبي للحصول على اعانة في مثل هذا البرنامج .

واذا كانت المقارنة بين البرنامجين قد مكنتنا من التخفيف من حدة هذين الاعتراضين حين أثبتت "عقلنة" ملحوظة في ظرف زمني بثلاث سنوات (1) فاننا لا نستطيع أن ندحضهما دحضا نهائيا الا اذا أثبتنا من خلال نص البرنامج الجديد أي التنمية الجهوية ما يبين صراحة أن البرنامج القديم أي التنمية الريفية رمز الاسعاف والاستهلاك و" كسب الاصوات في الانتخابات" قد اضمحل. اننا نشك في ذلك خاصة و أن برنامج التنمية الريفية المندمجة و الذي تأسس في سنة 1984 قد تضمن في نصه التأسيسي ما معناه أنه سيعوض البرنامج القديم (التنمية الريفية) لكن الى الان لا تزال أعطياته توزع كالعادة .

ب= الجديد القديم في برنامج التنمية الجهوية

بعد منشور 3 فيفي 1987 بقليل صدر منشور آخر مثل في بعض نقاطه استمرارا لمنطق "العقلنة" (أن لا يتجاوز الحد الاقصى للاعانة 3000 دينارا والحد الادنى 1200 دينارا ، منها 300 دينارا منحة وما تبقى قرض يسترجع) . وفي بعض نقاطه الاخرى كان منطق "اللاعقلانية" حاضرا أيضا . فتحت عنوان الهبات بالصفحة الرابعة نلاحظ و كأن البرنامج القديم لم يمح اطلاقا. ذلك أن تدخلاته الكلاسيكية المتعلقة بالتكوين المهني وحظائر التشغيل والسكن لا تزال قائمة. وهي تقدم في شكل هبات تساوي 300 دينارا (2).

---

1) العينة المستجوبة في البرنامج القديم تمتعت باعاناتها سنة 1985 أما عينة البرنامج الجديد فقد تمتعت باعاناتها في الغالب سنة 1987.

2) منشور بدون تاريخ و ممضى من قبل وزير التخطيط والمالية ووزير الدولة المكلف بالداخلية .

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

ان برنامج التنمية الريفية وان لم يعد برنامجا منفردا بنفسه مثل ذي قبل فانه لا يزال قائما فعلا ولعلنا ندافع الان عن فكرة أن ضرورته أصبحت أكثر الحاحا من أي وقت مضى . فاذا كان واضحا أن الضرورة الاقتصادية قد حتمت خلق البرنامج الموازي له أي المندمج فان الضرورة السياسية هي التي تحتم الابقاء على القديم . والواقع فان البرنامج المندمج نفسه لا يخلو من فوائد سياسية أيضا . فالنجاح الذي حققه في هذا المجال وان يكن دعم الانتماء العشائري على حساب " مشروع دولة المؤسسات اللاعشائرية " فانه خدم الحزب نفسه لانه أعطى الانطباع بأن الدولة - أو الحزب - هي (أو هو) الذي كانت وراء ذلك النجاح . وأن يكون عدد المنتفعين به - بحكم العقلنة الانتقائية - محدودا فهذا لا يضر بالحزب بل على العكس يفيده لانه يذكي التناض بين العائلات والعشائر للاستحواذ - وبالتالي الانخراط و النشاط - على الجهاز الحزبي . بل ان الجدوى الاقتصادية البحتة التي قد تكون حددت اختيار هذه العمادة (العشيرة) أو تلك لا تفهم من قبل بقية العمادات الاخرى على أنها كذلك و انما كتأثير مارسه أحد أبناء العمادة المنتفعة داخل الحزب أو/ ومصلحة التنمية الريفية.

لكن برنامجا يضبط تدخله بمدة خمس سنوات ويتعامل مع عينة من المنتفعين قليلي العدد ومن عشيرة واحدة سرعان ما سيطفىء التناض الذي أحدثه بمجرد أن يعلن عن العمادة و المنتفعين المعنيين. فقد تقوم بقية العشائر مطالبة بحقها في شكل يشبه ما وقع في الستينات خاصة أيام لزهر الشرايطي أو الساسي لسود أو غيرهم ... لذا وحتى يكون التناض يوميا فلا بد حينئذ من برنامج - دون أن تكون اعتماداته أرفع من اعتمادات البرنامج المندمج - يكون فيه عدد المنتفعين مرتفعا وحظوظ التناض بين كل العشائر متساوية . فلو حددنا تقريبيا عدد كل سكان ولاية مدنين من هم في حاجة الى اعانة و من هم في غير حاجة لها - بـ 300.000 نسمة ومعدل عدد الاعانات المقدمة من برنامج التنمية الريفية بـ1.000 سنويا ولمدة 15 سنة فقط، لخرجنا باستنتاج هو أن عائلة واحدة

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

معدل عدد أعضائها 10 أنفار على عائلتين قد تحصلت على الاعانة أو بالاصح على منحة - صدقة - في شكل نقدي أو عيني .(1)

و لنختم الان بسؤال : لماذا اذن رغم هذه العلاقة اليومية بين الدولة - الحزب - وصغار الفلاحين ما فتأ " المناخ يتعكر " بدليل أننا كلما نبتعد عن السبعينات ونقترب من الثمانينات تكف الانتفاضات عن أن تكون مدينية - نقابية - فقط ليصبح للريف فيها نصيب ؟ فاذا كان صغار الفلاحين يأخذون الـ 300 دينار وان وجدوا فرصة للاحتجاج والانتفاض لا يتأخرون فمعنى ذلك أن نسب الانخراط ونسب تحمل المسؤوليات المرتفعة المعبرة عن ولاء للحزب الحاكم والتي كنا لاحظناها في الجدول الذي بدأنا به هذا العنصر ليست الا براغماتية دعمتها انتخابات 2 أفريل 1989 حين اتضح لقادة الحزب أن العديد ممن حسبوا في صفهم قد صوتوا للقائمة البنفسجية رغم أنهم يملكون فعلا انخراطات في الحزب .

2 - " القبلية التوحيدية "

أ/ الحلم كتجاوز للمجزء

القبيلة أو العشيرة أو العائلة تعريفا لا توحد . ومع ذلك فلنحاول : ألا تتفق كلها على قيم كالشهامة والرجولة والنخوة ومناهضة الذل والاستكانة ، قيم رددها بورقيبة طويلا ومرارا أثناء جولته بين كافة الارياف التونسية سنتي 1955 و 1956 لتوحيد ما قد تفرقه - فرقته - " الفتنة اليوسفية "؟ ألم توحد نفس تلك القيم قبل ذلك بقليل جميع

1- اعتمدنا في هذه التقديرات على نشرية جهوية من التعداد العام لسنة 1984 (ذكرناها سابقا) .

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

العشائر فأصبح " الدغباجي " أو " بن زديرة " أو غيرهم أبطالا تفتخر بهم كل العشائر - والمدن - بمثل ما تفتخر بهم عشائرهم ؟ لقد توحدت كل العشائر لانه كان مسموحا - بتوسط من البرجوازية الصغيرة المتعلمة والماسكة بقيادة الحزب الدستوري - لكل أحد ولكل عشيرة - بدون تناقض - أن تحلم " بغنائم الاستقلال " التي ستخلفها فرنسا وراءها عندما ترحل .

لكن الحلم قد تبخر بانتهاء الوحدة التي بدورها انحلت منذ أن بدأ كل واحد (أو كل عشيرة) على حدة يتسابق ليثبت لقيادة الحزب أنه " دستوري " أكثر من غيره - مثلما قال بورقيبة نفسه في أحد خطبه التي تعرضنا له في مكان سابق - واذا كان في بعض الاراضي المتأتية من الاحباس أو مما خلفه المعمرون أو عائلة البايات والتي " وزعت " بين أواخر الخمسينات وبداية الستينات ما يحول "الدستوري البراغماتي" "دستوريا حقيقيا" بقية حياته طالما أن حلمه قد تحقق ، فماذا نقول فيمن لم ينل أثناء السبعينات و الثمانينات الا 300 دينارا ؟ ان قبلها - وهذا ما يقع دائما - فلا أقل من أن يردفها بحلم - بتوسط مرة أخرى - جديد و لكن من طبيعة اسلامية هذه المرة سينصر "المستضعفين" - بدون تفاصيل - ويهزم "الجاهلية" - بدون تفصيل أيضا - لان الدخول في التفاصيل قد يفسد حلم البعض والاخطر من ذلك أنه يعرض الوحدة للانحلال . ألم يتجنب بورقيبة ابان الحلم الاول الدخول في التفاصيل " ثم ان الحكومة ، بعد أن تفجر هذه المياه ستقسم الاراضي ... أما كيفية الاستثمار ، فسيتم فيها النظر ... "؟ .

ب/ توحيد المجزأ في تجربة الاسلاميين

ما الذي يمكن أن يجمع بنية قبلية كالعائلة أو العشيرة بنية اسلامية كالدولة مثلا؟ ألم يكن الاسلام دعوة ضد القبلية و منطلقا لتجاوز ضيقها نحو دولة اسلامية

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

أشمل ؟ يفسر الهرماسي " انتشار الحركة (الاسلامية) بأحياء مثل الملاسين وجبل الاحمر و الكبارية " وهي امتداد للريف الذي ندرسه الان بالعقلية الريفية والقروية والتي لا تزال تحمل " قيم الشرف والرجولة ... و الحفاظ على الوضعية الدونية للمرأة ... والتضامن و التآزر واحترام الكبار "(1).وهي أيضا قيم اسلامية برغم أن المتحدثين باسم الاسلام يلحون دائما على ضرورة التفريق بين المرجعيتين القبلية والاسلامية هذا رغم أن التاريخ العربي الاسلامي وخاصة بالمغرب العربي كثيرا ما قدم لنا الامثلة على أن العنصر الديني متمم لعنصر العصبية القبلية أو على الاقل الامثلة التي تجعل التمييز بين المرجعيتين واضحا . وبقدر ما يؤرق هذا الخلط المميز لذهنية صغار الفلاحين بين ما هو قبلي وما هو اسلامي بقدر ما يفرح النخب الاسلامية لانه سيمكنهم أولا من لم شتات ما جزأته التنمية الريفية ومن التحدث باسم هؤلاء بلغة الاسلام طالما أن اللغة القبلية ليست لغة سياسة . وفي حقيقة الامر فان ما يعنينا الان هو ابراز الاصل القبلي لممارسات وعلاقات اجتماعية قبلية لا تتناقض بالضرورة مع أخرى من أصل اسلامي فتبدو - وهنا قيمة الخلط بالنسبة للنخب الاسلامية - وكأنها من طبيعتها أو بالاحرى من صلبها .

إن إثبات هذا الامر يمر عبر ما يسميه ستراوس بنية القرابة أو ما يسمى أيضا " التصرف في جنسيتها " (gestion de sa sexudité)(2) من قبل الرجل .

- اختيار الزوج : الاسلام في جوهره - في نصوصه - غير متعارض مع مصاهرة "البراني" (exogamie) على أساس أنه دين يسعى الى تجاوز حدود القبائل لكنه أيضا لا يتعارض مع "مصاهرة الاقارب" (endogamie) طالما أنها اسلامية تستجيب لسنة صلة الرحم أوصى بها الرسول لكننا نرى أنها تستجيب أكثر الى نسق العلاقات الاقتصادية والاجتماعية السائدة اليوم بما لا يقل عما كانت عليه بالامس البعيد .

---

2) Abdelkader Zghal - La circulation des Femmes dans le commerce politique. R. T. S. S. Année 1987. N° 88/91. page 17.

1) عبد اللطيف الهرماسي - الحركة الاسلامية في تونس - دار بيرم للنشر - الطبعة الاولى 1985 - ص

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

ولو عدنا الى عملنا الميداني وتفحصنا الجدول المتعلق بأفضل أنماط المصاهـــرة لاحظنا أن الجواب الثالث ، جواب من لا يفرقون في اختيار الصهر بين أن يكـــــون قريبا أو " برانيا " يوحي بأننا أمام سلوك " انتخابي " الذي يميز عادة المجتمعات " العصرية " خاصة و أن نسبته تساوي 36 ٪ . وهي من الاهمية بحيث تبـــدو قادرة على اقامة توازن مع النسبة الاخرى (41٪ .) نسبة من مباشرة الى التـــزواج الداخلي . غير أن الاستعداد المبدئي الذي يبديه أولئك لعدم التمييز بين القريب و " البراني " لا يمنع أن الاولوية تبقى دائما للاول وهذا تدعمه حتى نسبة من يرغبـون مباشرة في مصاهرة "البراني" والتي لم تتجاوز 10 ٪ . بل ان هذا الجواب نفســـه لا يخلو في العديد من البريرات التي قدمها أصحابها من مفارقة فحين " أتجنـــب مصاهرة القريب لتجنب المشاكل مع العائلة أو العشيرة " تكون مصلحة هذين الاخيرين في الاعتبار وتحقق المصاهرة مع " البراني " نفس الغاية التي تسعى اليها مصاهرة القريب .

جدول عـدد 19 : أفضل أنمـاط المصاهـرة

الجهة / الجواب	بنقـــردان		ميـدون		سيدى مخلوف		الجملـــة	
	ع	ن	ع	ن	ع	ن	ع	ن
قـريـــــــب	19	45	8	21ر5	18	58	45	41
" برانى "	4	9ر5	4	11	3	9ر5	11	10
الاثنين معا	14	14	19	51ر5	7	22ر5	40	36
أجنبى (أوربى)	0		0		0		0	
الثلاثة معا	2	4ر5	2	5ر5	0		4	4
لا جواب	3	7	4	11ر5	3	9ر5		9
الجملـــة	42	100	37	100	31	100		100

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

واذا كان التزاوج الداخلي بولاية مدنين يقلص مجال اختيار البنت لزوجها الى مجال الاقارب فلان الاستغلال المشترك للارض (خاصة أرض المرعى) بين أعضاء العائلة والعشيرة هو الذي يفرضه هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فلانه الثمن الذي تدفعه النساء لا " لتحديد مجالات العنف ومنع تعميم الحرب "(1)و انما في هذه الحالة طلبا للحرب أو بالاحرى تهيئا لحرب قبلية (دون أن نعطي للقبيلة مفهومها السياسي القديم) كالتي وقعت في عهد قريب في صائفتي 1986و 1987 بين التوازين (التسمية القبلية لسكان بنقردان) وعكارة (التسمية القبلية لسكان جرجيس) بسبب نزاع حول أرض الشوشة . لقد احتاجت كل " قبيلة " منهما الى " فزعة " أبنائها حتى من كانوا بمدنين أو بأية مدينة أخرى .

- وظيفتها الانتاجية : ان الاسلام الذي انتشر في مجتمعات اعتاد فيها الرجل التنقل والترحال للحرب والقتال قديما أو للهجرة (التجارية خاصة) حاليا ما كان الا ليبارك التزاوج الداخلي الذي تكون - مثلما يقول أحد أفراد عينتنا - الزوجة " معروفة الطباع" مهيأة للقيام بدور في الفلاحة العائلية . بل اننا نستطيع أن نؤكد اليوم انسجاما تاما - الى حد التماثل- بين التصور القبلي والتصور الاسلامي لعمل المرأة . فالاسلاميون الذين تراجعوا في " اعتراضهم على عملها في الادارة والمصنع " (2)لا دفاعا عن حقها في العمل بقدر ما هو توظيفا لوجودها - المؤقت - خارج البيت لبث ونشر الدعوة لم يخطر على بالهم البتة ذلك الاعتراض فيما يتعلق بعمل المرأة الريفية فهم "لا يعترضون على المرأة الريفية أن تعمل في الحقل وتعين زوجها رغم اختلاطها بالرجل في جو بعيد عن الاثارة ومفعم بالروح الفطرية ... (لانهم لا) يتصورون الاسلام الا مطبقا في مجتمع ريفي . " (3)

I) Ibid . page I8.

2)عبد اللطيف الهرماسي - الحركة الاسلامية في تونس . داربيرم للنشر- الطبعة الاولى 1985.ص139

3)نفس المصدر . ص 139.

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

والحقيقة فان تبعية العمل الفلاحي لعمل الهجرة الممارس في منطقتنا من قبل الرجل هو الذي يدعم بل و يؤسس قضية " قوامة الرجل على المرأة " التي تبدو أنها اسلامية الاصل. ولهذا فان الدور القيادي للعائلة الموكول للرجل يجب أن لايفصل عن المرجعية العشائرية و لا يجوز بحكم تماثله مع المرجعية الاسلامية ادراجه ضمنها .

- وظيفتها التناسلية : و لا تنفصل وظيفتها الانتاجية عن وظيفتها الاخرى التناسلية التي تبين القيمة التي يعطيها أي أب لعدد أبنائه والتجاهل المطلق لتحديد النسل برغم ما حظي به برنامج التنظيم العائلي من دعاية على امتداد كل العشريات. لذلك فاننا ان كنا نستطيع أن نقدم جدولا يبين حجم عدد أعضاء العائلة ، فاننا لا نرى فائدة في تقديم جدول حول موقف أفراد عينتنا من برنامج التنظيم العائلي لانه كان دائما موقف تجاهل للسوءال باستثناء بعض الحالات التي وان لم تخل من روح دينية ("قتل روح حرم الله قتلها الا بالحق") فانها روح تنسجم مع الحاجة الى الحول والعيال ("تناسلوا تكاثروا اني أفاخر بكم الامم") لتصل الى ذروتها القبلية حين يقدم لنا بعضهم موقفا طريفا (" ياريت خوتي ثلاثين وأولاد عمي بزايد ، لا نرضوا عيشة الذل و لا نلبسوا جرد (ثياب) بايت") .

جدول عدد 20 عدد أعضاء العائلية

الجهة / حجم العائلة	بنقردان		ميدون		سيدي مخلوف		الجملة	
	ع	ن	ع	ن	ع	ن	ع	ن
من 4 أعضاء فأقل	3	7,5	6	16,5	4	13	13	12
من 5 الى 9	22	52	14	37,5	15	48,5	51	46
من 10 فما فوق	17	40,5	17	46	12	38,5	46	42
الجملة	42	100	37	100	31	100	110	100

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

خاتمـــــــة

و اذا وجد الاسلام جوهره في القبلية ، أليس هنا أولى بالنخب الاسلامية أن تصمت - بل وتبارك - بدل أن تعارض ما دامت النخب الدستورية هي التي بواسطة برامـــــج التنمية الريفية ، أصبحت تدعم و "تعيد الاعتبار" للاصالة القبلية بعد ما بخس قدرها أثناء الستينات؟ لكن واذ يحمل هؤلاء لواء المعارضة فان المسألة اذن أبعـــــد ما تكون عن " اعادة الاعتبار " للاصالة وحاملي الاصالة (صغار الفلاحين) و أقـــرب الى من له شرعية التكلم باسم تلك الاصالة . وقد تم هذا بفعل انزلاق لا مرئي مـــن الاصالة القبلية الى الاصالة الاسلامية . وهذا الانزلاق هو الذي يرشح صغار الفلاحيـــن - بمن فيهم من انتقل الى المدن القصديرية - أو على الاقل جزء منهم لان يلعبوا مـــن جديد دور " الفلاقـة " ولكن في هذه المرة تحت امرة نخب الحلم التوحيدي الجديد .

و لا تنفرد تونس بهذه الخاصية ففي الجزائر " لم يحقق الفلاحون مطالبهـــم لانهم انتفضوا ، بل حققوها لان نخبا سياسية دفعتهم الى التمرد و أطرت الانتفاضـة ... (فحيث) لا تلتفت الحكومة الى تذمر البرجوازية الحضرية تنفجر ... انتفاضة فلاحية فـــي القبايل ، و يؤدي حجم الاضطراب الى الاخلال بالتوازن السياسي لان الانتفاضة تهم الاطـــر السياسية - العسكرية ، و المثقفين والتجار الخ " لكن وبمقابل ذلك فان "استيـــــــاء الفلاحين لا يشكل في حد ذاته خطرا على الاستقرار السياسي بالجزائر ."(1) في مثـــال الاوراس الذي تعرضنا له سابقا لانهـــا بدون قيادة سياسية مدينيـــة.

أما في مصر فان "الاتجاه الثوري "برغم ما قد يبديه من استقلالية عن الاتجاهين الاسلاميين الاخرين "التقليدي" و "الثوري" فانه يؤدي نفس الدور أولا من حيـــث

---

1)جان فافري - مصدر مذكور . ص 106 .

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

اعراضه هو أيضا عن "مناقشة التفصيلات (بالنسبة للمشروع الاسلامي) ... ما دام كل شيء (قائم) مرفوضا " وثانيا من حيث منشاه الاجتماعي . ففي مصر "مجتمعات ناشئة بصورة عشوائية على أطراف القاهرة ... في هذه المناطق يجد الاتجاه الاسلامي الثوري مرتعا خصبا ، ويتركز أنصاره بالمآت ، فهنا يختلط الفقر الشديد بالاتصال المستمر بالقاهرة اما للدراسة أو العمل أو قضاء الصالح ، وخلال هذا الاتصال اليومي يتجدد التناقض بين واقعين تفصل بينهما هوة سحيقة ، وفي هذه الهوة ... ينمو التطرف ."(1)

3 - "الوهم الياباني "أو "وهم الخصوصية"

أ) "المجتمع اللاشكلي"

ليس في النية تحديد ملامح هذا المجتمع ان كان ثمة فعلا مجتمع لا شكلي ، لان العبارة نفسها تخفي تناقضا ذلك أنه لا وجود لمجتمع بدون شكل ولكن الامل في شيوع هذه التسمية الخاطئة يعود الى استعارة جاءت من المجال الاقتصادي الذي عرف نموا لقطاعا اقتصاديا سمي لا شكليا مقابلة له بالاقتصاد الرسمي الذي له شكل معروف من حيث موارده أو انتاجه أو توزيعه ومن حيث القوى الاجتماعية الاقتصادية القائمة به . لكن أن يكون هذا القطاع خارجا عن الدورة الاقتصادية الشكلية (الرسمية) لا يعني أن ليس له شكل و انما فقط أن شكله غير معروف بحكم أنه عادة غير قانوني وبالتالي سري فلا يسمح للباحثين بوصف شكله . لهذا يحسن أن يقال " اقتصاد موازي " أو " اقتصاد سري " أو "اقتصاد غير قانوني".

واذا كانت المجتمعات الصنعة قد عرفت ولا تزال نمطا من هذا الاقتصاد لكنه بنسب ضعيفة ففي " أوربا وبشكل عام يقدم المختصين في المكتب الدولي للشغل نسبة للشغل الاسود فيها تقدر بـ 5/. من اليد العاملة الجملية أي ما يعادل تقريبا

---

1) فرج فودة - قبل السقوط - دار محمد علي الحامي للنشر 1989. ص 97-98.

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

8 ملايين عاملا ." (1). أما في المجتمعات السائرة في طريق النمو وحسب نفس المصدر فانه " يصعب التمييز بين الاقتصادين لانهما مرتبطين ارتباطا وثيقا: ذلك أن الاقتصاد الموازي يمثل جزءا لا يتجزأ من حياة سكان (هذه البلدان)... (و) يغطي الاقتصاد التحتي 70 ٪ من هؤلاء السكان ."(2) ويدعم هذا القول أن الفلاحة التقليدية المندرجة في هذا الاقتصاد تنتج في مصر على سبيل المثال 40 ٪ من غذائها ." (3). وفي تونس تبدو قيمته مماثلة أو أكثر أهمية اذ أن " القيمة الجملية للاموال ... خارج الميزانية الوطنية وصلت بعد الى ما يناهز 500 مليون دينارا أي مايعادل 22 ٪ من الدخل الوطني " وهو " رقم لا يمكن أن يكون بعيدا عن 40 ٪ من الناتج الداخلي الخام ." (4). و لا شك أن هذه التقديرات المتعلقة بتونس لم تغفل ما رصدناه من أنشطة تجارية عبر المسالك الجمركية أو غير الجمركية التي تعرفها خاصة حدود البلاد الجنوبية أو الغربية .

و حتى الشريط الساحلي لم يبق معزولا عن هذا النشاط الاقتصادي المواني . فعلاوة على الميل المتزايد للهجرة من صبغتها القديمة - هجرة شغل - الى صبغة التجارة التي تدعمت خاصة بعودة العلاقات مع ليبيا التي سجلت دخول 730. تونسي سنة 1989، أما المغرب و الجزائر فقد سجلنا في نفس السنة دخول 488. 11 و 170.017 (5) وهي بطبيعة الحال أقطار في غير حاجة الى قوة عمل لذلك فالهجرة

I) Rejeb Hajji . L'économie soutraaine: Mythe ou réalité- R. T. S. S. . N° 82/ 83. I985. page 299.

2) Ibid. page 3I0.

3) Ibid. page 302.

4) Ibid. page 32I.

5) وزارة الداخلية - مصلحة الاحصاء -

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

نحوها كانت هجرة تجارية تماما مثل التي تتجه نحو تركيا أو العربية السعودية بحجة العمرة . علاوة على كل هذا ، تعرف المدن الساحلية " الذين يعملون بالمنزل مثل النساء المشتغلات بأنشطة نسج الصوف أو الزرابي و جملة أخرى من الانشطة الحرفية ذات الاجر المرتفع ... (المقدرة) بما يعادل قيمة أجور تساوي 60 مليون دينارا ... أو بعض الخدمات التي تمثل جزءا من حياة السكان والتي تعبر عن مسحة تقليدية مرتبطة بالعادات مثل المتطببون و الكتاب العموميين والباعة المتجولين أو التي تعبر عن نشأة جيل جديد من " المهنيين " المرتبطين بتطور قطاع التعليم واتساع الاقتصاد مثل الذين يختصون باصلاح اجهزة الراديو والتلفزة والسباكين و الميكانيكيين والمومسات ... " (1).

و بقطع النظر عن الضرر أو النفع الذي قد يلحق أو يفيد الاقتصاد الرسمي من هذا الاقتصاد الموازي فان غايتنا الاساسية هي معرفة الى أي مدى يمكن أن يساهم هذا " الاقتصاد اللاشكلي " في نشأة أو اتساع "مجتمع لا شكلي ".

اذا سلمنا مع من يسلم بأن المجتمع المدني ظل غائبا طوال عشرية الستينات بسبب منع نشأة أحزاب سياسية أو بسبب السيطرة على المنظمات و المومسات الاخرى (وخاصة الاتحاد العام التونسي للشغل) خوفا من افتكاكها من قبل قوى اجتماعية و سياسية أخرى قد تنافس الحزب الحاكم شرعية قيادته لعملية التحديث، فهل كانت الاستقلالية النسبية التي عرفها العمل النقابي في بداية السبعينات وظهور صحافة معارضة في نفس تلك العشرية ثم ما تلاها من اعتراف بأحزاب مدنية معارضة أثناء الثمانينات هل كان ذلك علامة على " انفتاح " الدولة - الحزب - على مجتمع مدني ؟

I) Rejeb Hajji. Ibid. page 320.

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

إن " قيمة الافراد لا تقاس أبدا بخلفياتهم و أصولهم ، بل بالاسباب التي تدفعهم الى التمسك بأفكارهم وقضاياهم ."(1) ومن هذا المنطلق كان هناك تهيوء لبروز نخب من البرجوازية الصغيرة التي قد توجه تلك الموسسات والمنظمات باتجاه مشروع مجتمعي مغاير للمشروع السائد . لكن ما لاحظناه قبل هذا من تنام لاقتصاد لا شكلي مرتبط أشد ما يكون بأطر عائلية وعشائرية لا تتجاهل تلك الموسسات أو المنظمات أو تحكم عليها بوجود الديكور فحسب بل وتخضعها لمنطقها الخاص الى حد أن يقع الحديث عن " انقسام الاتحاد الى جهات معينة أو خضوعة لجهة دون أخرى" أو أن " حزبا يتنازعه الافاقيون و البلدية " الى جانب ما رأيناه حول الحزب الحاكم من تدعيم للصراعات العشائرية بواسطة التنمية الريفية .

بعد هذا هل يصح القول بأن الدولة " انفتحت " على المجتمع المدني أم على " مجتمع لا شكلي "؟ اننا نعتقد أن السياسة التنموية التي دشنت منذ السبعينات و لا زالت تتواصل الى اليوم هي المسوءولة عن تنامي هذا "المجتمع اللاشكلي " الذي يضم زيادة عن صغار الفلاحين بالريف ، الريفيين الذين عمروا و لا زالوا يعمرون المدن القصديرية وفئات كبيرة من صغار الحرفيين وقطاع التجارة الطفيلية بكل المدن . إن هذا "المجتمع اللاشكلي" هو الذي ساهم في خلق " الوهم الياباني " و في انتاج اشكالية مخلوطة "الاصالة و الحداثة " !.

---

1)محمد عبدالباقي الهرماسي - المثقف والبحث عن النموذج - المستقبل العربي - عدد 104 - أكتوبر 1987.

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

ب) اليابان : " تنمية خصوصية " أم " خصوصية التنمية " ؟

معجزة اليابان لم تكن وهما وهي اليوم حقيقة لا شك فيها . لكن هل أن أصل المعجزة مرتبط بأن هذا البلد قد اخترع تصورا جديدا لفعل المجتمع في نفسه أي تنمية - وقد يجدر البحث عن لفظة أخرى - لها منطلقات ميتافيزيقية ووسائل وأهدافه مغايرة للمعهود . وهكذا يكون اليابان قد حقق القيمة الكبرى التي تنشدها الانثروبولوجيا الحديثة : التمايز ؟ أم أن الامل في ذلك أنه ابتدع نمطا خصوصيا من التنمية مثله في ذلك كمثل النمط الرأسمالي أو النمط الاشتراكي . ان الجدة لا تكمن هنا في لفظة " التنمية " بدليل أنها جاءت معرفة و انما في لفظة "خصوصيا" التي تعني طريقا مختلفا أو نمطا مختلفا يؤدي الى نفس تلك التنمية المتفق عليها عالميا أو ربما المفروضة على الجميع عالميا ؟

اننا لن نطرح هذين الافتراضين كل على حدة و انما سيكون طرحهما ضمنيا داخل نموذج نظري استعملناه سابقا و متكون من العناصر الثلاثة : هدف التنمية وأضحيتها و أدلوجتها .

- الادلوجة لا ينكر حتى اليابانيون أنفسهم أن للنموذج الغربي بصمات على تجربتهم وخاصة تلك البصمات التي أصلها من تجربة التحول البروسي . ومع ذلك فان الجميع يتفق مع الادلوجة التي صحبت حكم ميجي التحديثي ، وقد حوت فوق كل ذلك و أعمق من ذلك خليط من الكونفوشية والبوذية المتوارثة من الانتماء الاسيوي . ذلك الخليط ولد ثقافة غنية استقى منها دوركايم ما يحتاج اليه من عناصر لبناء أحد نماذج الانتحار وهو الانتحار الغيري المغاير تماما لنموذجي الانتحار الاناني و اللامعياري المميزين للحضارة الغربية الفردانية . ففي يابان القرن الماضي "لم يكن هناك شيء أكثر شيوعا من مرآى سفن تحمل عددا من هؤلاء المتعصبين الذين

يتسابقون للالقاء بأنفسهم في بحر كله حجارة أو الذين يثقبون سفنهم ليغرقوا شيئا فشيئا ..."(1) وهذا تأصيلا لقناعة لديهم أو بالاحرى لعقيدة بأن "الوطن الحقيقي لا يوجد في هذا العالم"(2) وفي كل هذه الحالات، نرى اذن أن الفرد يطمح الى التخلص من ذاته الشخصية ليفني في الشيء الاخر الذي يعتبره حقيقة ذاته "(3).

إن هذه الامثلة التي يعود تاريخها الى القرن التاسع عشر والتي لا تزال بعض أصدائها - كعناصر ثقافية آسيوية - فيما لاحظناه في ممارسة "الكاميكاز" أثناء حرب الفيتنام لها ما يجسدها في عناصر التقليدية التي انطلقت منها التجربة التحديثية في حكم ميجي. ان الفناء في سبيل الاخر ليس نفيا للانا بقدر ما هو تحقيق لها و لهذا حين طرحت اعادة بناء الاقتصاد الياباني اثر الحرب العالمية الثانية و استنجدت الحكومة بالمواطنين استجابوا للنداء " مما أدى الى ارتفاع معدلات الادخار، و نجحت البنوك والشركات في توجيه هذه المدخرات الى مجالات الاستثمار المختلفة "(4). فاذا كانت الدولة أسرة كبيرة و الامبراطور في مقام الاب فكيف يطيح اليابانيون و لا يستمعون الى النداء نداء فناء الذات لتأكيدها تأكيدا كان صريحا لدى مفكري " مدرسة ميتو (الموكدين) على فكرة تفوق اليابان وعلى أن اليابان هي "رأس العالم"

I) Emile Durkheim. Le Suicide. P. U. F. I979. page: 242.

2) Ibid. page 244.

3) Ibid . page 254.

4)عبدالغفار رشاد - مصدر مذكور - ص 46 .

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

بل و أساس الحضارة ..." ألم يحتبر " أوكوني تاكاماسا (1792 - 1871) أن الكونفوشية والبوذية والتعليم الغربي قد نشأت أصلا في اليابان ثم انبعثت الى العالم في العصور القديمة ..." (1)

لكن مع تسليمنا بخصوصيات الثقافة التقليدية اليابانية ، ألا نرى في ما ذكرنا ما يشبه ما هو موجود في تجارب أخرى ؟ ألا يقابل القول " بأن اليابان أكثر تقدما بسبب شروق الشمس عليها قبل العالم "(2) ما أصبح اليوم معروفا عن " المركزية الاوربية " أو لمركزيات أخرى سادت أو تسعى لان تسود من مثل " خير أمة أخرجت للناس " أو " نظرية الزنجوية " التي يبتدعها بعض ساسة أو مفكرو الزنج اليوم حين يعكسون علاقة التبعية ويجعلون الحضارات المعترف بها مدينة لحضارة افريقية منكرة " (3). إن هذا التشابه من حيث بنى كل الادلوجات لن نعدمه أيضا في عنصري أضحية التنمية وهدفها . وحتى نثبت أن ايمان الياباني بثقافته التقليدية فيه من التضحية ما في الثقافات الاخرى فيجب علينا أن نثبت أيضا أن وراء هذه الاضحية هدفا قد يكون هو نفس هدف التجارب الاخرى أو هدف آخر.

- هدف التنمية : إذا سلمنا بأن الفرد كان احدى القيم أو الاهداف التي حققتها تجربة التحول الغربية من حيث أن هذه " الثقافة الاوربية متأثرة فعلا بميل المسيحية الخاص الى اظهار الانسان ككائن مسؤول ... ومفضية الى تفريد العلاقات الاجتماعية ." (4) فهل ننتهي الى أن اليابان حين يتشبث " بالنمط التقليدي للعلاقة بين الاجيال وما يحمله من احترام وقدسية لكبار السن ... (والذي لم ينس العامل فيه) " أن الانتماء للشركة أو الموسسة و استمرار الفرد فيها هو الضمان

---

1) نفس المصدر - ص 105 .

2) نفس المصدر - ص 105.

3) جورج بالانديي - مصدر مذكور - ص 138.

4) برتران بادي - بيار بيرنبوم - سوسيولوجيا الدولة - ترجمة جوزف عبدالله وجورج أبي صالح - مركز الانماء القومي . الطبعة الاولى (بدون تاريخ) .

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

الوحيد لمستقبله و (أن) انتقاله الى شركة أو موسسة أخرى هو فقدانه أقدميته و ما يرتبط بها من احترام. "(1) حين يتشبث بذلك اليوم فهو بصدد خلق قيم جديدة وأهداف مغايرة لاهداف التحول الغربي و بالتالي " تنمية خصوصية "لها موقف ميتافيزيقي وافتراضات ومسلمات فريدة ؟ لنعلق الجواب موقتا ولننظر الى الموسسة الغربية .

أليست هي الاخرى بصدد إدماج أفرادها (العمال) ؟ أليس في سياسة الاستهلاك الموسع بواسطة آليات الاجور المرتفعة و التكنولوجيا القائمة على " القضاء على الآلة الصالحة لكل موسسة (machine universelle) وتعويضها بالتي لا تصلح الا في موسسة واحدة "(2) ادماجا لهم أيضا في موسستهم ؟ صحيح أن الوسيلة في الحالة الاولى (اليابان) ثقافية وفي الحالة الثانية (أوروبا) اقتصادية تكنولوجية ولكن هذا الاختلاف هو اختلاف في الوسيلة وليس في الهدف بل اننا نستطيع أن نجزم بأن هذا التماثل في الهدف هو بصدد التأثير في الوسيلة أو الوسائل (المنطلقات) نفسها لتحيلها شيئا فشيئا الى شيء واحد .

إن الثقافة اليابانية التقليدية الاسيوية المنشإ ليست أقل "تزمتا" من الثقافة العربية الاسلامية في تصورها لوظائف المرأة مثلا فكيف نفسر إذن أن " المرأة اليابانية أصبحت اليوم تمثل نسبة 38,4٪ . من اجمالي القوة العاملة . "(3) (ليس عملا فلاحيا) و أن نظام الاسرة اليابانية التي سبق أن وضحنا تماثله مع نظام العائلة عندنا قد قوضته الصناعة الحديثة فأصبحت " الاسرة النووية هي النموذج السائد و المألوف بصورة متزايدة. "(4)

---

1) عبد الغفار رشاد - مصدر مذكور - ص 37 .

2)Serge Mallet. La nouvelle classe ouvrière. Seuil. 1963. page:55 /56

3) عبد الغفار رشاد - مصدر مذكور - ص 47 .

4) نفس المصدر - ص 69

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

و الواقع أننا نصل هنا الى جواب السؤال المعلق أعلاه والى الخيط الذي خلق لدينا " وهم اليابان " أو "وهم الاصالة "و كأن حداثة هذا البلد تمت بانسجام تام مع تلك " الاصالة ". " فبعد قيام نظام ميجي ... وفي الريف استمرت اضطرابات قام بها الفلاحون المعارضون للا فكار و "البدع" التي أتت بها الحكومة." (1).

و هذا الصراع بين التقليدي و الحديث و إن أفرز خصوصية اليابان من حيث المسلك فانه لم يؤد الى " تنمية خصوصية " اذ عرف تقريبا مراحل النمو التي عرفتها التجربة الغربية من "نمو مرتفع "و" نمو مستقر" الى أن وصل الى " مجتمع الوفرة المادية" المتميز " بارتفاع متوسط عمر الفرد (في عام 1972 وصل متوسط عمر المرأة اليابانية 75ر9 عاما والرجل 70ر5 عاما) والتوسع في اجراءات التأمين وخدمات الرفاهة الاجتماعية ". (2) إن هذه الحالة التي وصل اليها اليوم لم تكن في تناقض مع ما أعلنه بعد الحرب العالمية الثانية من " بناء الاقتصاد الياباني من جديد ... الهدف الاساسي ." (3) وهو يذكرنا و لا شك ببرنامج مارشال الذي عرفته أوروبا في نفس تلك الفترة . واذا أثبتنا تماثل الاهداف فقد بقيت أضحيتها .

- الأضحية لو سئل ياباني اليوم عما افتقده في حياته الجديدة لتحسر على دفء العائلة وحميمية العلاقات التقليدية ولعن "مجهولية ." العلاقات التي أصبحت تطبع المجتمع ككل . مجتمع وصل بعد سنة 1974 الى تقليص نسبة السكان الريفيين الى حدود 21ر6 /. بعد أن كانت 90 /. سنة 1868 " (4) و لا شك أنها

---

1) نفس المصدر - ص 79 .

2) نفس المصدر - ص 47 .

3) نفس المصدر - ص 46 .

4) نفس المصدر - ص 48 .

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

قد تقلصت الى الحدود التي تصل اليها في بلاد مثل الولايات المتحدة الامريكية خاصة و أننا قد اقتربنا من نهاية هذا القرن الذي يتحدث فيه الجميع عن " ثورة صناعية ثالثة "ثورة الالكترونيك التي يعتبر فيها اليابان رائدا. إن تلك الحسرة التي يبديها الياباني لا تمنع من أن هناك سعي " للتحرر نهائيا من مشاعر المرارة ... التي خلفها الماضي " (1) سواء المرتبطة بالحرب العالمية أو بالصراعات الداخلية التي تجعل من هذا البلد يعرف مظاهر عنف من أعلى ما تعرفه الدول المتقدمة.

ج) إشكالية الاصالة و الحداثة

عندما بدأت البرجوازية الصغيرة المسيطرة على الحزب الدستوري تفرض هيمنتها على جملة القوى الاجتماعية التي همشها الاستعمار الفرنسي بدرجات متفاوتة لم تكن الحداثة موضوعا اشكاليا لانها لم تكن ترغب أو تستطيع - أن تمنع أيا من تلك القوى من أن تحلم كما تشاء " بغنيمة الاستقلال " ولكن بعد ما تمت القسمة طفت التناقضات . وكان على الحزب الحاكم لكي يضع حدا للمعارضة " اللاشكلية " (العشائرية) أو الشكلية (النقابة) أن يطرح الحداثة لاول مرة كإشكالية حتى يزيل " الخلط " القائم حولها . وهكذا تغير الخطاب و أصبحت اللغظة السائدة هي التنمية التي و ان بقي هدفها تحقيق الحداثة مثلما كان ، فانها أضافت ضرورة التضحية (" الجهاد الاكبر ") وما كان بصعب على أدلوجة الحزب التوحيدية أن تبرر العملية.

ولقد كان بامكان هذه الاشكالية أن تكون عقلانية اذا كانت ثمرة تلك الاضحية تحقيق الهدف : التنمية . لكن الجواب جاء بالنفي على لسان الحزب نفسه في قالب إشكالية ثانية : كيف التحديث في إطار الاصالة ؟ لكنه هذه المرة - انطلاقا من السبعينات - لن يستطيع طرح هذه الاشكالية بمفرده أولا لان الاصالة

---

1) فيليب بونز - مصدر مذكوره

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

التي أصبح يعتبرها " أحد موارد التحديث " ليست إنجازا من إنجازاته بقدر ما هي "رصيدا تقليديا" متأصلا في واقع قسم هام من سكان البلاد وعلى وجه الخصوص صغار الفلاحين وثانيا : ان من ارتبط سلوكه السابق " بالعقلنة" وبنبذ " اللاعقلانية " قد لا يكون أفضل من غيره من النخب للحديث باسم الاصالة .

اننا حين نطرح الان في نهاية هذا الجزء الرابع و الاخير لا عقلانية التنمية فليس لانها تحتوي على عناصر "لا عقلانية" و انما لانها لم تتعامل مع تلك العناصر تعاملا عقلانيا مثل الذي حصل في نموذجنا المرجعي الجديد : اليابان أو " البلدان الاسيوية الصناعية الجديدة " التي مكنتها بناها التقليدية من تكلفة انتاج منخفضة فاحتلت لها مكانا على المستوى العالمي . أما في تجربتنا فان التنمية كانت " وبعيدا عن الوقائع و الارقام .. خيبة الامل ... فاليوم لم يعد الحديث يدور عن " التنمية" قدر ما يدور عن "التكييف" ... مع اقتصاد عالمي تسيطر عليه البلدان الصناعية الكبرى . "(1)

وهكذا فان لا عقلانية التنمية في التجربة التونسية لا تكمن مثلما يعتقد البعض (بعض أحزاب المعارضة) في التحول من التخطيط الالزامي الى التخطيط التوجيهي و في التفويت في القطاع العام الى القطاع الخاص ("إن الحكومة تنوي تخفيض عدد المؤسسات العمومية من 600 الى 100 ..") (2) و انما في التحول من مفهوم " موطن الشغل " الى مفهوم " موطن الرزق "لا لان هذا الاخير "لا عقلانيا"

---

1) كريستيان كوميليو — سياسة واحدة : التكييف الهيكلي . لوموند ديبلوماتيك — فيفري — مارس 1989 — عدد 5 .

2) جريدة الطريق الجديد بتاريخ 2 مارس 1985 ص 2 (والحديث أدلى به المازني شقير لجريدة لابراس بتاريخ 28 فيفري 1985).

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

و انما لانه عوض أن يهيىء الطريق أمام مجتمع مدني يدعم المجتمع "اللاشكلي". و اذا كنا نستطيع افتراض علاقة بين الحركات الاجتماعية الحادة والتي تكثفت فيهـــا مشاركة عناصر " المجتمع اللا شكلي "خاصة أثناء الثمانينات و تلك اللا عقلا نية فاننـــا لا نستطيع أن نفهم لماذا بقيت مطامح هؤلاء في الحداثة منسية في الخطاب الاسلامي الذي انخرطوا فيه برغم ما في شعار " المستضعفين "من بريق .

و كثيرا ما تقدم هذه النقطة كفجوة في الخطاب الاسلامي فيقع التذكيـــر باهماله للعمل النقابي (أو توظيفه له لتجميده) ولكل التزام بقوة اجتماعية مسحوقة . غير أننا حين ننطلق من المنظومة الاسلامية كمنظومة سياسية معارضة فيمكننا أن نصـــل الى أن المعارضة هي قطع مع المنظومة السائدة وهكذا فموطن الشغل أو المواطنـــة أو المجتمع المدني التي هي عناصر من المنظومة المعادية لا يمكن التشبث بها لانهـــا " تخريبية و جاهلية " واذا تم التشبث بها فان الامر سيؤول الى ما آل اليه مـــع الاحزاب المعارضة التي لانها تتكلم لغة الحزب الحاكم لم تجد لنفسها مكانا . فهل أننا الان أمام " مشروع تحديثي جديد " ؟ .

و اذا كان التعريف الذي يقدمه الحزب الحـــاكم هو : "مجموعة القيم المادية المتمثلة في الشغل والخدمات الاجتماعية والقيم غير المادية المرتبطة بها" فهـــل في كلام من نوع " مجتمع الفطرة " أو المجتمع الذي ينطلق من " بداية ميتافيزيقية و افتراضات مختلفة " ما يدل على المغايرة ؟ اذا سلمنا بأن الممارسة السياسيـــة كتجسيد " لمشروع مجتمعي " هي قبل كل شيء وخاصة في عصرنا الحاضر قدرة علـــى الاتصال و التواصل بـ/ مع الاخرين محليا وعالميا أصدقاء و أعداء فان نقطة "البداية المغايرة " تصبح وهما ميتافيزيقيا طالما أن وسائل الاتصال و التواصل ليست أصيلة ولن تتم على " طريقة أبي مسلم الخراساني " و انما على الطريقة العصرية . وهذا ما فهمـــه

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

الفكر الاسلامي منذ مدة فوقع الافتاء في العديد من المحرمات التي كانت تحسب على " جاهلية القرن العشرين " كالتصوير الفوتوغرافي واقامة التماثيل و استعمال الفيديو و التلفزة والسينما ... و أصبحت المسألة فقط كيفية تكييف تلك الوسائل مع القيم الاسلامية .

و اذا وصلنا الى دحض " وهم نقطة الانطلاق المغايرة " فما الذي يختلف به " المشروع الاسلامي " عن المشروع السائد ؟ أليس كل منهما يسعى الى المواءمة بين ما هو حديث وما هو أصيل ؟ ان التهمة الاساسية التي توجه للحزب الحاكم هي انتقائيته (تلفيقيته) التي ورثها تجاه الاسلام . فبورقيبة كان لا يتعامل مع هذا الاخير تعاملا مبدئيا و انما تعاملا براجماتيا " فأفطر (في شهر رمضان) علنا و أحاط ذلك بالاشهار ."(1) لكنه تراجع أثناء السبعينات وخاصة أثناء العشرية الاخيرة و أصبح يقيم الاحتفالات الدينية ويرفع من " قيمة الاسلام " . لكن يجب أن تؤول مثل هذه التصرفات على أنها تصرفات شخصية بحتة فما أتاه بورقيبة أثناء الستينات ما كان ليأتيه في الثمانينات لاننا هذه العشرية الاخيرة أصبحنا نعيش بوضوح تام انهيار " أساطير التنمية " أو " طقوس السفينة " (2) . أما في ذلك الوقت فقد كانت فورة التنمية والعقلنة تهيمن على عقول الجميع . لذا لم يكن موقفه آنذاك من الدين بمعزول عن اشكالية الحداثة الاولى : التنمية كجهد

---

1) عبد اللطيف الهرماسي - الحركة الاسلامية في تونس - دار بيرم للنشر - الطبعة الاولى 1985 - ص 34 .

2) عبد الباقي الهرماسي - لا خيار لنا سوى العقلنة - حوار بجريدة الرأي - الجمعة 30 جانفي 1987 . ص 18 .

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

و تعب وتضحية لغايات " عقلانية " (دنيوية) وهي الرفع من الانتاج لتحقيق " فرحة الحياة ". ولقد أولت الدعوة الى الافطار في رمضان آنذاك على أنها توفيرا لعنصر أو ووسيلة من العناصر أو الوسائل " العقلانية " (الشبح) المحققة لتلك الغايات . أما تبدل موقفه أثناء العشريتين المواليتين - بقطع النظر عن قناعاته الشخصية الداخلية - فليس له تأويل مغاير. سوى مسايرته لطبيعة الاشياء وهي " وظيفية البنى التقليدية " في التنمية تماشيا مع الاشكالية الثانية للحداثة : كيف التحديث في اطار الاصالة . كما أن مطالبة مزالي الوزير الاول أثناء السنوات الاولى للثمانيات نحى نفس المنحى حين طالب يوما "بإعادة برنامج الحاج كلوف" ذلك الرمز التقليدي الذي ينصح و يزيل المنكر بلسانه . وهو طلب متزامن مع تصاعد الازمات الاجتماعية و السياسية و متجانس مع تصوره لها " كأزمة أخلاقية " كأزمة في حاجة استعادة القيم الاصيلة .

ولكن هل يقل موقف الاسلاميين من الحداثة انتقائية وتلفيقية وبراجماتية؟ حين يريدون تبرير اقبالهم على آخر انتاجات الحضارة الغربية يقولون أن الاسلام لا يتعارض مع العلم. فاذا كان من متحرك فانه هذا الاخير أما الاول- الاسلام - فهو ثابت. فهل كان هذا الاسلام سيكون ما هو عليه اليوم من انتشار داخليا و عالميا لولا ثورة التواصل و الاتصال ؟ فلماذا يتحدث عن الحداثة "كجاهلية " حينا و " كعلم مقيد " حينا آخر ؟ ولماذا يعادي عمل المرأة و "مجلة الاحوال الشخصية "و الحال أنهما لعبا دورا في بث الدعوة ؟... لكن هذه البراجماتية ليست مسألة مركزية فكل " مشروع مجتمعي " مطالب بالتكيف داخل الظروف التي يعيش فيها والوضع السائد و لا يبدو ذلك التكيف كتلفيقية الا بعدما يفشل في تحقيق ما ضبطه من أهداف، فتلفيقية الحزب ازاء التراث كانت ستختفي لو حققت الحداثة ما وعدت به ، فبلد كالعربية السعودية مثلا مكنه فائض البترول من ((تجاوز التناقضات الاجتماعية بتخفيض حدتها

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

ورفع كبير للقدرة المعيشية للفئات الاجتماعية بأصنافها المختلفة)) (1). وهذا معناه أن المسألة الاجتماعية لها دور في اضفاء شرعية على أي " مشروع سياسي " ومن بـــاب أولى و أحرى " مشروع اجتماعي ": فماهي وضعية " المشروع الاسلامي " في تونس؟ هناك ظاهريا اجابتان و لكنهما في الحقيقة اجابة واحدة :

أ و لا : أن تحافظ على مفهوم الحداثة السائد في معنى تحقيق الحاجات التي تطالب بها القوى الاجتماعية المختلفة . وهذا حل غير مستبعد لان له ايجابيتان الاولى عـــدم التصادم مع " المهمشين " أو " المستضعفين " الذين ما كانوا لينتفضوا لولا يأسهم من التنمية الريفية. والثانية متعلقة بما يسمى " الاقتصاد الاسلامي المستحيل " (2) أو بغياب " المشروع المجتمعي الاسلامي " .

ثـانيـــا : أن تخير النخب الاسلامية مفهومها للحداثة فتوعس " مشروع المغايـــرة" فتتخلى عن "موطن الشغل " و عن " المواطن " و عن " المجتمع المدنـــــي" و في هذه الحالة سيتخلى عنها "المهمشين" الذين مثلوا بالنسبة لها " الطبقـــة السنيدة " (La classe- appui)التي جعلتها في وضعية المراهنة على السلطـــة . لكننا سنظل نعتقد أن هذا الاحتمال الثاني مستحيلا أولا لان لا شيء يدل بعـــد على " ذلك المشروع" و ثانيا لان لا مراهنة على السلطة السياسية بدون قدرة علـــى تعبئة هؤلاء " المهمشين".

---

1) رضا الزواي- التنمية العربية: المأزق والامكان الصعب. دار الرياح الاربع للنشر 1988- ص 75.

2) عبداللطيف الهرماسي - مصدر مذكور . ص 116 .

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

و اذا سلمنا باستحالة الافتراض الثاني لانه بالنسبة للنخب الاسلامية اختيار انتحاري فلا يبقى لنا الا الافتراض الاول والذي ان تمعنا فيه فاننا سنكتشف فيه نفس الوضعية التي جمعت الحزب الدستوري بصغار الفلاحين أثناء الخمسينات والذي ألمحنا اليه سابقا. أما اليوم فالوضعية هي كما يلي : وعود ضمنية بالحداثة حداثة " المجتمع الاسلامي " بعد تحرير البلاد من "الجاهلية والتخريب " من ناحية وغياب لاي مشروع اجتماعي- اقتصادي من ناحية أخرى. فهل من دليل على أن " مشروع الاسلاميين" هو مشروع سلطة بحت ؟

فليكن! ما المانع في أن تحكم البلاد نخب اسلامية خاصة و أن وقائع مثل " مورد الرزق" و " المجتمع اللاشكلي" أصبحت تخطي أحلاما مثل " موطن الشغل " و " المجتمع المدني " ؟ أليست تلك النخب أقرب - أولى - من غيرها الى فهم وتعبئة تلك الوقائع ؟ لكننا نصل هنا الى بيت القصيد : " فالدعوة الى العودة الى الاصول ... تمثل أدلجة ... توعد بي الى سحب الشرعية من الانظمة القائمة " (1) وليست أبدا دعوة الى " عقلانية جديدة" أو "عقلانية تعددية " مثلما افترضها أثناء الفصل الاول من هذا الجزء الرابع و الاخير.

و مثلما بينا سابقا ((الوظيفة السياسية)) للاصالة بالنسبة للنخب الدستورية فاننا الان نفعل نفس الشيء بالنسبة للنخب الاسلامية. وقد آن الوقت للقول بأن اشكالية " الاحالة والحداثة " هي اشكالية لا عقلانية وهي كذلك لانها تضمر غير ما تظهر، فهي في حقيقة الامر " اشكالية الحداثة فقط " أو بالاصح اشكالية " من له حق قيادة الحداثة " .. بقي أن نوضح ما المقصود بالحداثة ؟ انها باختصار شديد : الاستهلاك .. و ان فاقت التعبئة - تعبئة السكان باتجاه الاستهلاك - حدود النظام في الاستجابة لها فلا بأس بشيء من الاصالة في شكل تنمية ريفية أو في شكل صدقة ..

---

1) عبد الباقي الهرماسي - المثقف والبحث عن النموذج - مصدر مذكور - ص 35 .

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

الخاتمة

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

بدأنا عملنا هذا برسم نموذج مثالي متفائل : التنمية كعقلنة لكننا أنهيناهـــا بحكم متشائم : التنمية اللاعقلانية . فهل هو حكم على نموذج تنموي بعينه أم على العقلنة بصفة اطلاقية وبالتالي انتصار " للاعقلنـة " (لنقل الان "اللاعقلنة" في معنى ماهـــو مغاير للعقلنة وليس في معنى نقيضها : "اللاعقلانية") ؟

لنبدأ بالافتراض الاول . عرفت التجربة التنموية التي انطلقت في تونس مـــن بداية الستينات - بعد فترة من التذبذب أثناء آخر الخمسينات- الى آخر الثمانينـات (تاريخ انتهاء بحثنا)، عرفت تحولين اثنين أولهما في بداية السبعينات وثانيهما في بدايـة الثمانينات . ولم نعن بهذين التحولين تغيرا في أهداف التنميـة - التي هي الحداثـة في مفهوم الحاجات الاساسية التي بُنيت عليها الشرعية القائمة في كل البلدان "المتخلفة" بقدر ما عنينا تغيرات أخرى.

التحول الاول الذي تزامن - بفارق زمني ضئيل - مع نشأة برنامج التنمية الريفية حدث في بداية السبعينات حين حكمت سياسة هذه العشرية على سياسة العشرية التي سبقتها " باللاعقلانيـة " حكما لم يكن موجها الى العقلنة كمنهج ولا الى الحداثة كهدف للتنمية وانما الى الوسائل و الطرق المستعملة والتي حولت العقلنة الى اديولوجيا عقلانيـة صورت المجتمع " كعضوية " من البنى التقليدية " المتخلفة " التي تتطلب " تدخـــلا" فوقيا من جهاز بيروقراطية الدولة المُعَقْلِن " ليقتلع " تلك البنى و "يزرع " مكانهـــا بنى عصرية. وتبع نقد هذا التصور تخليا - نقول تخليا لان الحزب الذي قاد تنمية العشرية الاولى هو الذي قاد تنمية العشرية الثانية - عن الرؤية " العضوية " للمجتمع واعتـــرافا بديناميكيته البشرية التي تجعله وسيلة التغيير الاساسية بعدما كان مجرد موضوع لهـــا . و قد تجسم هذا الاعتراف في شعار " الانفتاح " (أو " التفتح ") على القوى الاجتماعية المختلفة و المتمايزة .

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

فأثناء هذه العشرية الثانية التي تميزت باعادة تنظيم ميزان القوى بين بيروقراطية الدولة والرأسمال الخاص لفائدة هذا الاخير، لن يقع التخلي عن الاهداف الاستراتيجية للعشرية الاولى المتمثلة في تحقيق "الوحدة القومية" و "ادماج كل المواطنين" في المجتمع بواسطة "موطن الشغل" أساسا. وانما سيقع حسب تغيير الوسائل الموصلة لهذه الاهداف: تجزئة الاهداف أي تصنيع المدينة (الشريط الساحلي) وادماج مواطنيها وفي الان نفسه شد الريفيين الى ريفهم في مرحلة اولى ثم تصنيع الريف والحاق الريفيين "بركب المدينة والمواطنة" في مرحلة ثانية.

لكن وما أن نقترب من نهاية هذه العشرية، حتى تتضح ملامح التحول الثاني الذي تزامن بدوره - بفارق زمني ضئيل أيضا - مع نشأة برامج التنمية الريفية المندمجة. فبدخولنا في عشرية الثمانينات يتضح لنا أن الهدف البعيد أي التصنيع في تراجع والهدف المرحلي أي التنمية الريفية في تقدم مستمر. وبعد أن كان هاجس المخططات التنموية للسبعينات هو "التكهن" بعدد مواطن الشغل المطلوبة وعدد مواطن الشغل المزمع احداثها داخليا - بواسطة التصنيع - وخارجيا بواسطة الهجرة التي مازالت الى ذلك الوقت تعتبر "حلا موقتا" بعد كل ذلك أصبح الهاجس في الثمانينات: "موارد الرزق". ومن هنا فقط نستطيع أن نجيب على عدة أسئلة تركناها معلقة في مختلف أجزاء بحثنا وهي على التوالي في الجزء الاول: لماذا رغم النجاح الذي حققه برنامج التنمية الريفية تسعى الدولة الى تأسيس برامج أخرى لها نفس أهدافه؟ وفي الجزء الثالث: لماذا لم يقض برنامج التنمية الريفية المندمجة على البرنامج القديم والحال أن نصه التأسيسي قد ادعى ذلك؟ وفي الجزء الرابع: لماذا بقي هذا البرنامج أي التنمية الريفية ذي "الطابع الصدقي" متواصلا برغم منشور 3 فيفري 1987 الذي أعلن أن البرنامج الجهوي للتنمية سيلغي كل البرامج الاخرى؟ ونستطيع أن نفهم أيضا لماذا لم تعد الدولة تتحدث عن الهجرة "كحل وقتي" لانها أصبحت فعلا حلا موءبدا لا لان البلدان "الشقيقة والصديقة" قد كثفت

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

عروضها و انما لان الهجرة تحولت من هجرة شغل الى هجرة تجارة (1). التي مثلما رأينا تكرس انفصال " الافراد " عن موسسات المواطنة (المصنع - النقابة - الحزب ...) و انخراطهم في أطر العائلة و العشيرة و الجهة تلك الاطر التي تتميز بميزتي " المجتمع اللاشكلي " أولا : طابعها اللاسياسي (بحكم الميل الى التجزئية الكامن فيها) وثانيا : قابليتها " للتسييس " واتباع أي " حلم "،و ليس في هذا اعتراض على الحلم (الايتوبيا) فكل ثورة لها حلمها ، و انما على "الحلم السياسي البحت " الذي يصبح بمقتضاه الحلم مجرد أدلوجة تبريرية مهمتها تثبيت من بيده السلطة أو رفع من يطمح اليها .

وبعد هذا فهل نحن الان بحاجة الى طرح الافتراض الثاني ، افتراض انهزام العقلنة وانتصار " اللاعقلنة "؟ لا أحد يستطيع المس من العقلنة فالواقع يبين أن " لا خيار لنا سوى العقلنة " (2). وقدسبق أن وضحنا أن شروط نجاح أي " مشروع مجتمعي " أو حتى " مشروع سياسي " تفترض العقلنة بما هي توسط بين الاهداف المرغوب الوصول اليها و الموارد المتوفرة بأقل التكاليف و أفضل النتائج كما وكيفا . وهذا لا يستطيع انجاره حتى أشد الناس عداوة للعقلنة " فهل سمعتم بوزير نفط أو اقتصاد أو مالية تقليدي في البلاد العربية أو يتبع دفاعا تقليديا " (3). و اذا كان أعداء العقلنة يرفضون أن تنعت التقليدية " بالاعقلانية " فهل لديهم نعت آخر؟

I)Khemaïs Taamallah- L'Emigration Tunisienne en Italie (voyages d'"affaires") R.T.S.S. N°6- I98I- page I74.

2) عبدالباقي الهرماسي - لا خيار لنا سوى العقلنة - مصدر مذكور سابقا .

3)عبدالله العروي - التقليد والحداثة - مصدر مذكور سابقا - ص 21.

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

لنقل " اللاعقلنة " مثلما فعلنا في المقدمة في معنى " عقلنة مغايرة " أو شيئا آخر غير العقلنة في المفهوم المتعارف و غير اللا عقلانية المقابل العكسي لهذه الاخيرة . فهل ثمة الان ما يدل على هذا " الشيء المغاير " الذي ورد سابقا في قالب " بداية ميتافيزيقية وافتراضات ومسلمات مغايرة " ؟

في ظل غياب جواب بالايجاب فاننا نرى أن البنى التقليدية محكوم عليها "باللاعقلانية " لا لانها كذلك و انما لانها لا تزال موظفة من قبل الحزب الحاكم - بواسطة برامج التنمية الريفية- ومن قبل المعارضة الدينية التي تنسب تلك البنى لنفسها توظيفا سياسيا . والخطورة لا تكمن في الاشكالية المغلوطة : الاصالة والحداثة التي يتنازع بمقتضاها هؤلاء و أولئك على السلطة السياسية فحسب و انما في أن تنامي هذا الصراع هو سير حثيث نحو ما أسميناه - وان كان يحتاج الى دراسة أكثر تعمق - " المجتمع اللا شكلي " و اعراض شديد عن حلم " المجتمع المدني " [1].

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

بيبليوغرافيا

المراجع والمصادر باللغة العربية

I الكتب.

- مغنية الازرق : نشوء الطبقات في الجزائر
ترجمة : سمير كرم - موءسسة الابحاث العربية . 1980
- جورج بالانديه : الانثروبولوجيا السياسية.
مركز الانماء القومي - بيروت 1988 - ترجمة : جورج أبي صالح .
- برتران بادي . بيار بير تبوم : سوسيولوجيا الدولة
ترجمة : جوزيف عبدالله وجورج أبي صالح . مركز الانماء القومي : الطبعة الاولى (بدون تاريخ)
- محمد بن احمودة : الانثروبولوجيا البنيوية أو حق الاختلاف من خلال أبحاث ك . ل . ستراوس
دار محمد علي الحامي للنشر 1987.
- جمال الدين بن منظور - لسان العرب (جزء 1)
دار صادر - بيروت (بدون تاريخ)
- فتحي التريكي : قراءات في فلسفة التنوع -
الدار العربية للكتاب 1988.
- أحمد خالد : ابن هانيء.
الشركة التونسية للتوزيع - تونس 1976
- سلم الدغري : تجربة التنمية الريفية بتونس.
أطروحة لنيل شهادة التحمق في البحث . كلية الاداب والعلوم الانسانية بتونس. 1984.
- عبدالغفار رشاد : التقليدية والحداثة في التجربة اليابانية .
موءسسة الابحاث العربية - بيروت - 1984.
- مكسيم رودنسون : الاسلام و الرأسمالية .
ترجمة: نزيه الحكيم - دار الطليعة - بيروت - الطبعة الرابعة 1982.

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

- رضا الزواري : التنمية العربية : المأزق والامكان الصعب .
دار الرياح الاربع للنشر . 1988.
- رفعت السعيد : تأملات في الناصرية .
دار الطليعة - بيروت - 1979.
- جوزيف شترايسر : الاصول الوسيطية للدولة الحديثة.
ترجمة : محمد عيتاني - دار التنوير - بيروت - الطبعة الاولى - 1982.
- عبدالله العروي - مفهوم الدولة .
المركز الثقافي العربي - الطبعة الرابعة - 1988.
- برهان غليون : الوعي الذاتي .
دار عيون للنشر - الدار البيضاء - الطبعة الاولى - 1987.
- جان فافري : التقليدية و التحديث المعاق (كتاب للانثروبولوجيا والتاريخ - حالة المغرب العربي).
ترجمة عبدالاحد السبتي وعبداللطيف الفلق - دار توبقال للنشر - الطبعة الاولى - 1988.
- جوليان فروند : سوسيولوجيا ماكس فيبر.
مركز الانماء القومي .
- فتحي الرقيق : الهجرة والسكن في بنقردان - أطروحة لنيل شهادة الكفاءة في البحث في كلية الاداب والعلوم الانسانية سنة 1985.
- فرج فودة : قبل السقوط .
دار محمد علي الحامي للنشر . 1989.
- عبداللطيف الهرماسي : الحركة الاسلامية في تونس.
دار بيرم للنشر - الطبعة الاولى - 1985.
- ر . بودون و ف . بوريكو - المعجم النقدي لعلم الاجتماع . ترجمة الدكتور سليم حداد الموسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع . 1986 .

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

III المجلات و بعض الجرائد

1- مجلة أطروحات :

- عزام محجوب : الصناعة وتراكم رأس المال في تونس منذ نهاية القرن الثامن عشر : تعريب و عرض محمد علي العربي . عدد جانفي - فيفري 1985.
- حسن الديماسي : التراكم الرأسمالي وتوزيع المداخيل . تعريب و عرض ثابت المرواني . عدد جانفي - فيفري 1985.
- علي بن عامر : سيرة صالح بن يوسف : قراءة نقدية . تعريب محمد معالي - عدد 15. 1989.
- عبد الله العروي - التقليد والحداثة (حوار) عدد 16 جانفي 1990.

2- الفكر العربي المعاصر: مركز الانماء القومي .

- ابراهيم سعدالدين : حاضر المدن العربية و مستقبلها . عدد 10 ملي 1979.
- رضا الزواري : ملاحظات حول نظرية "المجتمع ضد الدولة" عدد 56/ 57 - 1988.
- سعيد بن سعيد : من قداسة السلطة الى تعاقد المواطنين عدد 56/ 57 - 1988.
- مطاع الصفدي : المشروع التنموي المختلف عدد 56/ 57 - 1988.

3- المجلة التونسية للعلوم الاجتماعية

- محسن الطرابلسي : الانشطة المندمجة في برنامج التنمية الريفية - مثال: القيروان العدد 70/ 71 - 1982.

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

- بدرة بشير : مساهمة في دراسة المجموعات الاجتماعية :
تحليل التصورات المضمنة في كتب القراءة العربية للتعليم الابتدائي (بالفرنسية)
عدد 63 سنة 1980.

4- مجلة 15/ 21

- رمزي زكي : الازمة الراهنة في الفكر التنموي - عدد 9 - 1984.
- عبدالقادر ياسين : التراث والابداع ونمط التنمية - عدد 15- 1988.

5- مجلة الوحدة

- عبدالوهاب حفيظ : صورة للحراك الاجتماعي و السياسي : حالة تونس خلال العهد الحسيني . عدد 57 جوان 1989.

6- المستقبل العربي

- محمد عبدالباقي الهرماسي : المثقف والبحث عن النموذج .
عدد 104 - أكتوبر 1987.

7- مجلة لوموند ديبلوماتيك

- شارل تستوز : أهمية الكنفوشيوسية.
عدد 5- فيفري / مارس 1989.
- كريستيان كوميليو : سياسة واحدة : التكييف الهيكلي .
عدد 5- فيفري / مارس 1989.
- فيليب بونز : اليابان يبحث عن قيم جديدة لمواجهة نهاية القرن .
مارس / أفريل 1989.

8- جريدة الطريق الجديد

- محمود بن رمضان : سبل تحقيق الاستقلال الغذائي .
عدد 12 جانفي 1985.
- عدد مارس 1985 : (حديث أدلى به المازري شقير لجريدة لابراس بتاريخ 28 فيفي 1985).

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

9 - جريدة الموقف :

- عبداللطيف الهرماسي : مأزق تحرير الاقتصاد .
عدد ديسمبر 1988.

10 - جريدة الرأي

- حمزة الاسود - كيف استبد العسكر بالحكم عند المسلمين
العدد 184 - 9 أفريل 1982.
- عبدالباقي الهرماسي - لا خيار لنا سوى العقلنة.
العدد 382 - 30 جانفي 1987.

III الوثائق الرسمية

- الحبيب بورقيبة - خطب - نشر كتابة الدولة للاعلام - 1974
خطاب 16 ديسمبر 1955 ببنقردان
خطاب 25 فيفري 1957 بجربنيانة
خطاب 18 جانفي 1963
- الحبيب بورقيبة : من خطاب عنوانه : من منافع التنمية الريفية - نشر الاتحاد القومي للفلاحين - تونس 30 جوان 1976
- محمد الفخفاخ - عمر بالهادي - محسن ذياب :
دراسة تقييمية لبرنامج التنمية الريفية - وزارة التخطيط - المندوبية العامة للتنمية الجهوية - ماي 1984 - تونس - (باللغة الفرنسية)
- التنمية الريفية : خطة انمائية تكميلية.
دار العمل للنشر 1979.
- التعداد العام للسكان والسكن - 30 مارس 1984 - نشرية جهوية خاصة بولاية مدنين .
- ديوان النهوض بالتكوين والتشغيل والعملة التونسيين بالخارج .
المندوبية الجهوية بمدنين - تقرير حول النشاط - 1984.

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

- برنامج التنمية الريفية المندمجة (85 - 1989) المندوبية العامة للتنمية الجهوية - وزارة التخطيط - جوان 1985 - ص 1 .
- دراسة الجدوى لبرنامج التنمية الريفية المندمجة 1984 - 1986 التقرير العام ديسمبر 1984 - ص 6 .
- منشور عدد 14 عن الوزارة الاولى بتاريخ 18 أفريل 1974.
- منشور 3 فيفري 1987.
- منشور بدون تاريخ و ممضى من قبل وزير التخطيط و المالية ووزير الدولة المكلف بالداخلية .
- وزارة الداخلية - مصلحة الاحصاء .

المراجع و المصادر باللغة الفرنسية

I الكتب

_ Anouar- Abdel-Malek. La pensée politique arabe contemporaire Seuil, I970.

_ Samir Amin- Le Maghreb Moderne Minuit, I977.

_ Mustapha Benchenane- Les Coups d'etat en Afrique. Publisud I983

_ F. H. Cardoso - E. Faletto. Depandence et développement en Amérique Latine. P U F . I978.

_ Michel Camau - Pouvoir et Institutions au Maghreb. Cères Productions I978. page I97.

_ Renaud Fabre- Paysans sans terres - Dunod I979.

_ Sophie Ferchiou - Les Femmes dans l'agriculture tunisienne . Edisud- I985.

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

_ A. Gunder Frank - Le developpement du sous-développement, Maspéro I972.

_ Gino- Germani - Politique , Société et Modernisation. Duculot I972.

_ J - E - Havel , Habitat et logement. Que sais-je, P U F I974, page 7.

_ El-Baki Hermassi, Etat et Société au Maghreb , Anthropos, I975.

_ Ives Lacostes. Ibn Khaldoun, Naissance de l'histoire passé du tiers monde. Maspéro , I978.

_ Abdallah Laroui- L'idéologie arabe contemporaine, Maspéro, I977.

_ Serge Mallet - La nouvelle classe ouvrière. Seuil, I963.

_ Khaled El-Mannoubi - Abdeljalil Bedoui, Economie tunisienne , Etat et Capital Mondial. Cahiers du C E R E S . I978.

_ Maria Antonietta, Macciocchi, pour Gramsci. Seuil, I974.

_ Karl Marx, Le I8 Brumaire de Louis Bonapazte , édition Sociales I969.

_ Karl marx, Le manifeste du Parti Communiste, IO/I8. I974.

_ Nicos Poulantzas, Pouvoir politique et classes sociales, Maspéro I980.

_ David Riesman, La Foule Solitaire, Artand , I964.

_ Maxime - Rodinson - Mahomet- Seuil I975.

_ W. W. Roston - Les étapes de la croissance économique, Seuil I962.

_ Abdessattar Sahbani - Analyse sociologique des notions de dével-oppement et de planification à travers une relecture des textes jondamentaux de la politique économique tunisienne- Certificat d'aptitude à la recherche- Faculté des lettres et des sciences humaines de Tunis, I984.

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

_ C. Levi Strauss - Race et Histoire, Gontier. I96I. page 42.

_ Alain Touraine : Sociologie de l'action. Seuil. I965.

_ Alain Touraine : Pour la Sociologie . Seuil. I974.

_ Lucette Valensi . Le Maghreb avant la prise d'Alger. Flammarion I969.

_ Alain Touraine - Les Sociétés dépendantes - Duculot - I976.

II المقـــالات

_ Abdelkader Zghal : La circulation des femmes dans le commerce politique, R.T.SS, Année I987. n°88/9I. page I7.

_ Rejeb Hajji: L'économie souterraine: mythe ou réalité, R.T.SS n° 82/83. I985.

_ Khalil Zamiti: le sens de phénomène migratoire à l'echelle villageoire. R.T.SS. n°88/9I. I987.

_ Ridha Boukraa. Notes sur "Culture et pauvreté" le cas d'une cité populaire à Jendouba. R.T.SS. décembre ,n°27. I97I

_ Frej Stambouli et A. Zghal. La vie urbaine dans le maghreb précolenical . A. A. N. C. N. R. S. Paris. I973.

_ B. Etienne: La paysannerie dans le dicours et la pratique . A.A.N C. N. R. S. I975.

_ André Adam : Urbanisation et changement culturel au Maghreb . A. A. N. C. N . R. S. I972.

_ Nicolas Hopkins - Système urbain et developpement au Maghreb C E R E S. production I980.

_ Khalifa Chateur: Système urbain et developpement au Maghreb C E R E S . I980.

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

_ Frej Stambouli: Système urbain et developpement . C E R E S priductions I980.

_ La sociologie. les dictionnaires Marabout université - Savoir moderne . Paris, I972. Tome I ,chapitre: la sociologie de la famille. page I99.

_ Mohamed Hamdane: communication et milieu rural en Tunisie. (Résumé de la thése du doctorat d'Etat . Bordeau III, I984) in l'action du I9 juillet I984.

_ Karl. W. Deutsch .in Michael. C . Hudson. la théorie de la mobi-.lisation sociale et la politique arabe.

_ Henri Sanson: Prise de la ville, Prise du pouvoir. A. A . N. I972.

_ Henri de Montety: Le developpement des classes moyennes en tunisie - IBLA n° 74, 2ème trimestre , I956.

_ Tahar CHagrouche: Dialectique sociale et étatisation- Revue OUtrouhat n° 7, Janvier- Fevier I985.

_ Jeune Afrique : Des cadres à exporter n° I9, bis Juin I986.

_ Khemaïs Taamallah - L'Emigration Tunisienne en Italie R.T.S.S. N° 6- I98I -

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

الملحـــق

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

برنامج التنمية الريفية المندمجة

الاستثمارات

العناصر	التكلفة (م دينار)	المحتوى المادي
1 — الآبار السطحية	0ر31	2 670 بئر
2 — الآبار العميقة	7ر16	122 بئر
3 — التنوير الريفي	7ر13	—
4 — مراكز الخدمات الطبية والاجتماعية والثقافية	5ر3	77 مركز
5 — بناء المساكن الريفية	6ر7	3 329 مسكن
6 — تهذيب المساكن الريفية	4ر3	2 664 مسكن
7 — المسالك الفلاحية	5ر84	1 835 كلم
8 — الصيد البحري	1ر5	—
9 — الماء الصالح للشراب	5ر9	—
10 — تهيئة المناطق السقوية	4ر8	2 211 هك
11 — الأشغال التحضيرية	2ر3	7 693 هك
12 — أشغال المحافظة على المياه والتربة	2ر18	43 077 هك
13 — المراعي	6ر30	102 694 هك
14 — الغراسات المثمرة	0ر33	44 257 هك
15 — تربية الماشية	8ر22	8 811 رأس بقر + 84 092 رأس ضأن
16 — المهن الصغرى	3ر6	2 500 مهنة
17 — التجهيزات الفلاحية	3ر4	—
18 — الدراسات	9ر2	—
19 — ادارة المشروع	2ر7	—
الجملة	9ر311	

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

برنامج التنمية الريفية المندمجة

توزيع الاستثمارات حسب الجهات

الجهة	الاستثمارات (م. دينار)
الشمال الغربي	78ر1
الشمال الشرقي	68ر9
الوسط الغربي	52ر7
الوسط الشرقي	38ر7
الجنوب	59ر5
الجملة للجهات	297ر9
استثمارات غير موزعة	14
جملة الاستثمارات	311ر9
الضرائب	12ر8
القروض الموسمية	3ر0
التسيير	27ر3
التكلفة الجملية للبرنامج	355ر0

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

برنامج التنمية الريفية المندمجة

التمويل الخارجي للمشروع وشروط الاقتراض

الطرف الممول	مبلغ القرض م.دينار	الفائض	مدة الامهال
ـ الصندوق العربي للانماء الاقتصادى والاجتماعي	37ر8	6 ٪	5 سنوات
ـ الصندوق الكويتي للتنمية الاقتصادية العربية	48ر6	2ر5 ٪	5 سنوات
ـ البنك الاسلامي للتنمية	8ر6	3 ٪	5 سنوات
ـ الصندوق السعودي للتنمية	21ر9	3 ٪	5 سنوات
ـ البنك الافريقي للتنمية	43ر9	8ر75 ٪	5 سنوات
الجملة	160ر8		

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

برنامج التنمية الريفية المندمجة

1) توزيع المزارعين حسب الجهات

القطاع الفلاحي	الشمال		الوسط		الجنوب	كامل البلاد
	الغربي	الشرقي	الغربي	الشرقي		
البعلي	4 265	3 470	4 084	2 026	2 315	16 160
السقوي	280	525	594	940	1 251	3 590
الجملة	4 545	3 995	4 678	2 966	3 566	19 750

2) توزيع المشاريع المندمجة حسب الجهات

الجهة	عدد المشاريع			الجملة
	سنة 1984	سنة 1985	سنة 1986	
الشمال الغربي	8	13	14	35
الشمال الشرقي	16	14	13	51
الوسط الغربي	7	13	14	34
الوسط الشرقي	13	14	12	39
الجنوب	18	19	19	56
كامل البلاد	62	73	80	215

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

الولايـــة	سنـة انطـلاق اللانجـــاز			الجملـــة
	1984	1985	1986	
الجنـوب الشـرقـي	9	10	11	30
قـابـس	4	3	3	10
مدنيـن	3	3	3	9
تطـاويـن	2	4	5	11
الجنـوب الغـربـي	9	9	8	26
قفـصـة	2	4	4	10
قبـلـي	3	4	3	10
تـوزر	4	1	1	6
تـونـس	62	73	72	207 *

* لم يقع ادمـاج مشاريع ولايـة تونـس و عددهم 8 بـالنسبـة لسنتي 1985 و1986، في هذا الجدول. بهذا يبلـغ العدد الجملـي للمشـاريع بهذه القـائمة 207 مشروعا من 215 وقـع اقرارها اثـر عملية تقسيـم برنـامـج التنميـة الريفية المندمجـة من طـرف الصنـاديـق و البنـوك الممولـة لـه.

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

اثر الزيارات التي قامت بها الفرق المشتركة بين المندوبية والإدارة العامة للميزانية لكل ولايات الجمهورية، لعقد جلسات عمل مع المسؤولين الجهويين الساهرين على تنفيذ مشاريع التنمية الريفية المندمجة تم التعرض الى عدة مشاكل تخص انجاز هذه المشاريع. بناء على ذلك عقد اجتماع بين ادارتي المتابعة والدراسات لحوصلة هذه الدورة وسرد كل النقاط التي تستدعي التفكير لمعالجتها وايجاد الحلول لها. وفي هذا الاطار تتمحور المشاكل التي تهم الانجاز المادي، حول عنصري الماء والفلاحة وهي مبوبة كما يلي :

1) انعدام الاندماج سواء على مستوى منطقة المشروع أو على مستوى الفرد المنتفع.

لوحظ خلال هذه الزيارات أن الاندماج بين مختلف العناصر المكونة للمشروع لم تقع مراعاته طبقا لفلسفة المشروع التي وردت في مختلف الوثائق ويتمثل ذلك في تشتت العناصر على مستوى المنطقة، أو في انتفاع الفرد بعنصر واحد أو عنصرين على الأكثر لا تكامل بينهما.

ويمكن تلافي ذلك ب :

أ) ضرورة ادارج هذه النقطة (الاندماج على المستويين) في الملتقيات التي تنوى المندوبية تنظيمها سواء على مستوى روؤساء المشاريع أو روؤساء المصالح بالولايات أو على مستوى الوكالات الجهوية.

ب) محاولة اقناع اللجان الجهوية عند انعقادها أن تتناول اختيار الضيعات ولا الفرد أو العنصر كما هو معمول به حاليا. ويعني ذلك ضرورة تعدد العناصر المنتجة والمتكاملة على مستوى الضيعة، لادراجها بين الضيعات المنتفعة.

COLESPIA - BIBLIOTHEQUE

2) حول انجاز المناطق السقوية العمومية

اتضح من خلال التجربة الحاصلة في انجاز المناطق السقوية العمومية أنه لم يقع توخي نفس الطريقة في كل الولايات مما أدى الى ظهور صعوبات على هذا المستوى والناتج أساسا على عدم احترام التمشي النموذجي الذي يخص هذا العنصر، وهو متكون من المراحل التالية :

- حفر البئر العميقة
- تقرير استلام البئر العميقة مع كل خصوصياتها
- القيام بدراسة لتجهيز البئر العميقة
- القيام بدراسة لامكانية احداث منطقة سقوية عمومية
- القيام بدراسة أولية للمشروع
- القيام بدراسة مفصلة للمشروع
- القيام بدراسة لتنفيذ المشروع
- اعداد ملف طلب العروض

3) الآبار السطحية

أ) ارتفاع التكلفة بالمقارنة مع الاعتمادات المرصودة

في صورة ما اتضح عند الانجاز أن التكاليف الفعلية تفوق بكثير التقديرات الأولية نرى من الصالح حصر هذه الحالات ومعالجتها على انفراد بحيث تراعى في ذلك الجدوى الاقتصادية (ملوحة - تدفق نوعية الزراعات...) أما في ما يخص المشاريع المقبلة فيجب وضع حد أقصى للتكلفة الفردية لكل العناصر.

ب) امكانية ابدال مجموعة آبار سطحية ببئر عميقة

ان ادراج استغلال المائدة العميقة في أي منطقة الذي من شأنه تدعيم العنصر المنتج الفلاحي يبقى رهين موافقة ادارة المياه التابعة لوزارة الفلاحة.

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

6) أجور أيام العمل

ان الأجور المعمول بها حاليا بالنسبة للتنمية الريفية المندمجة تساوى 1,900 دينار وهي الأجور المعمول بها في الحضائر الجهوية . مع العلم أن الأجر بالحضائر القومية التابعة لوزارة الفلاحة يعادل 2,500 دينار وهنا نقترح اتباع ما يجرى به العمل بوزارة الفلاحة .

7) تسييج المساحات المعدة للمراعي والغراسات

عند اعداد المشاريع لم يقع ادراج عنصر تسييج المساحات المعدة للغراسات والمراعي ، وذلك من شأنه أن يترك هذه المساحات عرضة للتلف ونظرا لتشابه هذه العملية وعمليات تحضير الأرض فاننا نقترح ادراجها ضمن العمليات المجانية .

8) المهن الصغرى

نظرا للصعوبات التي اعترضت انجاز هذا العنصر خصوصا في ما يتعلق باستنباط الأنشطة التي تتكامل مع بقية عناصر المشروع يستحسن اعادة ربط الصلة مع ديوان التشغيل والهجرة لايجاد الحلول الكفيلة .

9) المساكن الريفية

أ) التكلفة الفردية : لقد اتضح من خلال الدورة أن التسعيرة المعمول بها حاليا والصادرة عن وزارة الاسكان ضعيفة ولا يمكن أن تفي بالحاجة خصوصا بالمشاريع النائية . وبما أننا لا نستطيع مراجعة هذه التسعيرة فانه يجب مراجعة أمثلة البناء وفقا لحجم الاعتماد المخصص لهذا العنصر .

ب) يجب أن تلح المندوبية على كل الساهرين على انجاز البرنامج على حثهم على استعمال أدوات البناء المحلية وهي من شأنها أن تخفض من التكلفة وتتماشى وطبيعة المنطقة .

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

10) التراتيب البنكية :

وقع اشعارنا خلال الدورة بتذمر المنتفعين ورؤساء المشاريع من ثقل التراتيب البنكية التي تسبق الحصول على القرض وهنا أيضا نرى أن العمل على مستوى الضيعة في اللجان الجهوية المشار اليه أعلاه من شأنه أن ييسر على المنتفع التعامل مع البنك.

11) دواب الجر والآلات الفلاحية الصغرى

ثبت لنا خلال الدورة أنه وقع السهو أحيانا على ادراج عملية توزيع الآلات الفلاحية ودواب الجر في بعض المشاريع. وقد سجلنا طلبات واقبالا كبيرا على هذا العنصر خصوصا في المشاريع التي تحتوى على الغراسات. وهنا نرى وجوب مراجعة هذه المشاريع لتمكين المنتفعين من ذلك.

اذا اعتبرنا الظروف التي انطلقت فيها المشاريع والتي اتسمت ببعض الصعوبات، اضافة الى حداثة البرنامج ككل حيث انطلق في وقت لم تستكمل فيه كل التراتيب الادارية والبنكية والنصوص القانونية .... مما جعل تصور كيفية انجاز البرنامج يختلف من مسؤول الى آخر ومن ادارة الى أخرى. وقد انعكس هذا الأخير على المنتفعين الذين لم يكونوا في البداية على دراية من جدواه وبالتالي الاقبال على الترشح للمساهمة فيه. كما أن هذا البرنامج يختص بتعدد العناصر ويتدخل في مناطق نائية وهذا من شأنه أن يضيف صعوبات أخرى.

أخذا بكل هذه الاعتبارات وبمقارنتها مع حجم الانجاز المادى يمكن القول استنادا على التقييم الأولى الذى تم اعداده اثر الدورة الميدانية أن البرنامج تمكن من الوصول الى نسبة مرضية لتحقيق الأهداف المرسومة له.

لذا اثر ضبط كل ما وقع انجازه خلال سنتي 1984 و 1985 ومقارنته بما تمت برمجته لنفس الفترة، قد مكنتنا الدورة الميدانية على الوقوف بالنقاط التي تستدعي الاهتمامات التالية :

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

أ)العنـــاصر المنتجـــة

حـالتـان فقـط كانـت النسبـة المائويـة للانجـاز فيهمـا ضعيفـة جـدا الا وهمـا .

- تجهيـز الآبـا ر العميقـة = 8 ٪
- تـريـة النحـل = 11 ٪

نتـج هـذا البـطء في الانجـاز عـن عـدم الحصـول علـى رخـص تـوريـد بالنسبـة للعنـصـر الأول وعـن عـدم تـوفـر خـلايا النحـل بالنسبـة للثـانيـة .

2)تـفوق نسبـة تـوزيـع الأغنـام (84 ٪) بكثيـر نسبـة تقدم انجـاز المـراعـي (49 ٪) . وهـذا لا يتمـاشى وفلسفـة المشـروع التـي تحث علـى تـوفيـر كـل أسبـاب النجـاح للحصـول علـى تـوازي بيـن كـل العمليـات المزمـع احداثهـا .

3) ان النسب المائويـة لتـقدم الانجـاز بالبنيـة الأساسيـة وتحسيـن ظـروف العيـش تفـوق بكثيـر النسـب المائويـة للعناصـر المنتجـة .

يـرجـع هـذا التفـاوت الملحـوظ فـي هـذه النسـب المائويـة الى عـدم خضـوع العمليـات المبـاشـرة للتـراتيـب البنكيـة المعقـدة أحيـانـا والتـي قد تحـول دون سـرعـة الانجـاز.

فـي هـذا السيـاق يبيـن لنـا الجـدول المـوالـي أهـم الانجازات مـع مـقارنتهـا بمـا وقعـت بـرمجتـه كمـا توجـد جـداول بالملحـق فـهـي تبيـن الكميـات والنسـب المائويـة لانجـاز العنـاصـر المدرجـة ببـرنـامـج التنميـة الريفيـة المنـدمجـة وذلـك حسـب المشـاريـع والجهـات.

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

برنامج التنمية الريفية المندمجة

مشاريع سنة 1984

جدول النسب المائوية للانجاز

العمليات	ما برمج	ما أنجز	النسبة المأوية
العناصر المنتجة			
الآبار العميقة :			
- احداث	23	20	87
- تجهيز	25	2	8
الآبار السطحية :			
- احداث	558	406	73
- تهيئة	362	238	66
المراعي : ١ هك /	9 810	4 593	49
الأشجار المثمرة : ١ هك /	8 951	5 597	63
تربية الماشية :			
- أغنام	19 260	16 147	84
- أبقار	856	402	47
- نحل	7 010	752	11
تجهيزات فلاحية :			
- المضاريب المحروثة	1 855	1 257	68
البنية الأساسية :			
- المسالك ١ كلم /	346ر8	251ر8	73
- التزويد بالكهرباء			
الماء الصالح الشراب :			
- ايصال شبكة مياه (قرى)	17	13	76
صيانة المياه والتربة : (هك)	10 333	8 071	78
السكن :			
- بناء	984	676	69
- تحسين	809	672	83
التسيير :			
ملايا الارشاد الفلاحي	52	41	79

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

مشـــــــروع : المعمـــــــــــرات

تقـــــديـــــم ملخـــــــــص

التعـــريـــف بمنطقـــــة المشـــــروع

1 ـ المـــوقـــع الجغـــرافـــي : الـــولايـــــة : مـــدنيـــــن
المعتمـديـــة : بن قـــــردان
العمـــــــادة : المعمـــــــرات

2 ـ عـــــدد السكـــان المشمـــولين : 5.500
عـدد العـائـلات المنتفعـــة
عـدد السكـــان النـاشطيـــن 1.400
نسبـــة البـطـــالـــــة 10 ٪ بدون اعتبار الاناث

3 ـ الامكـانيـــات الطبيعيـــــة :
المســـاحـة الجمليـــــة 210.000 هك
المـائـدة المـائيـــة العميقة 300م والسطحية على عمق 15 م
الأوديـــــــــــة وادي عين الفرت ووادي أم الرخيس

4 ـ التجهيـــزات الأســـاسيـــة :
المسالك الفلاحية بالكيلومتر 2 كلم
النـــور الكهربائـــي 350 منتفع
الماء الصالح للشـــراب 100 منتفع ـ 140 بئرا خاصة ـ 20 بئرا عمومية و 320 حنفيات
المـدارس الابتـدائيـــة 3 مدارس (1.000 تلميذ)
مـراكـز الصحة الأسـاسيـة مسطوفف

5 ـ النشـاطـات الاقتصاديـــــة :
الفـــــلاحـــــة
ـ أشجار مثمـــــرة 5.512 هك
ـ زراعـة الحبـــوب (200هك قمح و 1.150 شعير)
ـ تـربيـة المـاشيـة (2.500 رأس غنم، 1.500 رأس ماعز و 100 ابل

أنشطـــة أخـــــرى

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

مشـــــروع المعمـــــــرات

تقـع هـاتـه المنطقـة بمعتمـديـة بـن قـردان مـن ولايـة مـدنيـن. و تبلـغ مسـاحتهـا 210.000 هك،منهـا 200.000 هك أراضـي صـالحـة للفـلاحـة و يقـدر عـدد سكـانهـا بـ 5.500 سـاكنـا منهـم 1.400 نـاشطيـن. فـي حيـن يـرتكـز إقتصـادهـا خصـوصـا علـى تـربيـة المـاشيـة مـن أغنـام و إبـل .

و نظـرا لتـوفـر المـوارد الطبيعيـة بالمنطقـة و إلـى إمكـانيـة إستغـلالهـا ،فالمشـروع يهـدف أسـاسـا الـى تـدعيـم النشـاطـات المـوجـودة و خلـق مـواطـن الشغـل و تحسيـن الـدّخـل الفـردي . لـذلـك يهـدف المشـروع الـى إعـانـة الفـلاحيـن علـى غـراسـة 570 هك أشجـار مثمـرة و تـربيـة المـاشيـة (750 رأس غنـم و750 رأس مـاعز و750 رأس إبـل) و تهيئـة 50 بئـرا و إحـداث 25 أخـرى . و تبلـغ الإستثمـارات الجمليـة المقتـرحـة لهـذا المشـروع 689.500 دينـارا كلّهـا منتجـة تكـون طـريقـة تمـويلهـا علـى النحـو التـالـي :

- التمـويـل الـذاتـي 17 ٪
- القـروض 64ر4 ٪
- ميـزانيـة الـدولـة 17ر6 ٪

هـذا و ينتظـر أن يخلـق المشـروع 75 مـوطـن شغـل قـار و أن يـدعـم 260 آخـريـن . و تبلـغ نسبـة العـائـد الـذاتـي 27ر9 ٪ بحيـث يكـون حجـم الأربـاح الحينيـة 2.288.898 دينـارا باعتبـار معـدل خصـم يسـاوي 10 ٪ .

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

مشـــــروع : المعمـرات (مدنيـن)

تـــــدرج الاستثمـــــارات

النشـاطـات المـدرجـة	المحتـوى المـادى	التكلفـة بالـديـنـار	تـــدرج الاستثمـــارات					
			السنـة الاولـى		السنـة الثانيـة		السنـة الثالثة	
			المحتوى المـادى	التكلفـة بالديـنار	المحتوى المـادى	التكلفـة بالديـنار	المحتوى المـادى	التكلفـة بالديـنار
غراسة أشجار مثمـرة	570 هك	182.000	570 هك	153.500	-	28.500	-	-
تربية الماشية (أكباش)	750 رأس	37.500	750 رأس	37.500	-	-	-	-
تربية الماشية (المعـز)	750 رأس	45.000	750 رأس	45.000	-	-	-	-
تـــربيـة الابـــل	750 رأس	150.000	750 رأس	150.000	-	-	-	-
تهيئة بآر سطحيـــة	50 بئر	125.000	50 بئر	125.000	-	-	-	-
احداث بآر سطحيـــة	25 بئر	150.000	25 بئر	150.000	-	-	-	-
	-	689.500	-	661.000	-	28.500	-	-

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

جـــــدول : II

مشـــــــروع : المعمـرات (مدنين)

طـــــريقـــــة التمـــــويـل

بالدينـار

النشـاطـات المـدرجـة	التكلفة الجملية	ميزانية الدولة (اعانات وتدخلات مباشرة)	صناديق التمويل (قـــروض)	مساهمة المنتفعين (التمويل الذاتي)
غراسة أشجار مثمـرة	182.000	45.500	109.200	27.300
تربية الماشية (أكباش)	37.500	5.625	26.250	5.625
تربية الماشية (معـز)	45.000	6.750	31.500	6.750
تـربيـة الابـــل	150.000	22.500	105.000	22.500
تهيئة آبار سطحيـة	125.000	18.750	81.250	25.000
احداث آبار سطحيـة	150.000	22.500	97.500	30.000
	689.500	121.625	450.700	117.175

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

ا ـ المميزات الديمغرافية والعائلية

العائلة	العمر	الحالة المدنية	المستوى الدراسي	العمل مكانه	العمل الاضافي	عدد سنوات العمل بالخاج	هل لك مسؤولية اجتماعية او ثقافية

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

II ـ المميزات الاقتصاديـة :

1) الوضعية العقارية للارض التي تقيم فيها او التي تملكها

ملكية فردية ☐ ملكية عائلية ☐ كـراء ☐ خماسـة ☐ غيـره ☐

2) مساحتها ..... تاريخ عقدها .....

3) ما هو انتاجها الفلاحي :

قمح ☐ شعيـر ☐ اشجار مثمرة ☐ مستعملة للرعي ☐ غيره من التوضيح ☐

4) اغلب الانتاج موجه للاستهلاك الذاتي ☐ للسوق ☐ للاثنين معا ☐

لماذا .....

5) عدد القطين بالتفصيل .....

6) ما هي الادوات الفلاحية المستعملة .....

7) من من افراد العائلة يقوم بالرحلات التالية :

ـ تربين القطين ..... مدتهـا .....

ـ رحلة الحصاد ..... مدتهـا .....

ـ رحلة جني الثمار ..... مدتهـا .....

ـ رحلة جني الزيتون ..... مدتهـا .....

8) من من افراد العائلة يعمل بارض غيره .....

بالاجـر ☐ بالباي ☐ غيره من التوضيح ☐

9) ما هو مقابل الرعي بقطيع الغير .....

10) ما هي السوق الاسبوعية المواظب عليها .....

ماذا تبيـع .....

ماذا تشتري .....

11) لماذا ، حسب رايك ، يفضل البعض الهجرة على العمل بالاجر في بعض الاعمال الموسمية كجني الزيتون او الحصاد .

.....

12) ـ من هو اكثر افراد العائلـة هجـرة .....

ـ كم مـرة ..... الى اين .....

13) مـا هي الفوائـد التي جنتهـا العائلـة من الهجـرة .....

.....

.....

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

1) مساكن العائلـــــة :

فيـلا ☐ حوش ☐ حوش فيلا ☐ كمر ☐ كوخ ☐ خص ☐ بيت شعر ☐

غيره من التوضيح ☐ .....

2) اين توجد الطابونة .....

مستعملة دائما ☐ غالبا ☐ احيانا ☐ غير مستعملة بالمرة ☐

لماذا .....

3) مكان الطبخ : مطبخ ☐ غيره من التوضيح ☐ .....

4) تجهيزات المطبخ العصرية المتوفرة .....

5) مكان الاستحمام : حمام عصري ☐ دوش ☐ مطهرة عربي ☐ غيره من التوضيح ☐

6) ما هي وسائل التثقيف المتوفرة في العائلة :

تلفزة ☐ راديو ☐ فيديو ☐ غيره من التوضيح ☐

7) ماهي البرامج الاذاعية والتلفزية المحبذة .....

لماذا .....

8) اين وكيف يتم التداوي في حالة مرض : دواء عربي ☐ زيارة طبيب عربي ☐

مستوصف ☐ مستشفى جهوي ☐ طبيب خاص

لماذا .....

9) من من افراد العائلة هي التنظيم العائلي ولماذا .....

.....

10) من من افراد العائلة ضد التنظيم العائلي ولماذا .....

.....

11) اين تقضي اوقات الفراغ :

ـ الذكور .....

ـ الاناث .....

12) ما هي اهم انماط المعاشـــرة

ـ قرابة دمويـــــة ☐

ـ " بـــــالمصاهرة " ☐

ـ اجنبـــي (اوربـــي) ☐

13) لمـــاذا .....

.....

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

برنامج التنمية الريفية :

1) ما هي البرامج التي استفادت منها العائلة

- التنمية الريفية ☐ العائلة المنتجة ☐ تشغيل الشباب ☐
- التنمية المندمجة ☐ الحدائق العائلية ☐ غيره ☐

2) من تمتع بالتنمية الريفية .....

3) مقدار الاعانة المتمتع بها .....

4) تحصلت عليها بواسطة :

- قريب ☐ اتصلت بالسلط المحلية ☐ اتصلت بك السلط المحلية ☐
- غيره في التوضيح .....

5) ما هي السبل لضمان مستقبل الابناء

الكبار — الابناء

☐ الاهتمام بالفلاحة
☐ باعانة الدولة

☐ البحث عن شغل
☐ باحدى المدن الكبرى

☐ الهجرة للخارج
☐ مواصلة الدراسة

6) الاعانة ☐ منحة
☐ قرض
☐ الاثنين معا

7) مقدارها .....

8) مدة الامهال لتسديد القرض .....

9) كيفية تسديد القرض .....

10) هل تظن انك قادر على تسديد القرض في اجله نعم ☐ لا ☐

11) لو فتحت ليبيا ابوابها من جديد

- هل يقى التخلي عن المشروع ☐
- هل يقى التشبث بالمشروع ☐
- يبقى البعض ويهاجر البعض الاخر ☐

12) لماذا : .....

.....

.....

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

الجمهورية التونسية
وزارة الداخلية

1/0731

22 جانفي 1988

ترخيـــــــــص

نحن والي مدنين نسمح للسيد فتحي الرقيق استاذ بالمعهد الثانوي ببنقـــردان بصدد اعداد دكتوراه مرحلة ثالثة بكلية الاداب والعلوم الانسانية باستجواب بعـــــض المنتفعين ببرنامج التنمية الجهوية في نطاق اعداد بحثه في الغرض بعنوان " التنميـــة الريفية بولاية مدنـــــين ".

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE

ـ والســـــــلام ـ

الوالـي
عالناس
الشـــــاوش

الفهـــرس

المقـــدمة : ص 4

الجزء الاول : التنميـــة كعقلنـــة . ص 14

I العقـــلنـــة

II التنمـــيـــة

III التـــخطـــيط

IV برنامج التنمـــية الريفية

الجزء الثانـي : لا عقلانيـــة التنميـــة . ص 60

I العقلانية / الاسرة - اللاعقلانية العائلـــة

II الوظائف الاستهلاكية للعائلة

III الوظائف الانتاجية للعائلة : برنامج التنمية الريفيـة .

الجزء الثالث : اللاعقلانيـــة التنموية . ص 131

I الاندماج

II التعبئة الاجتماعية

III التحول ؟

الجزء الرابع : التنميـــة اللاعقلانيـــة . ص 203

I العقلانية التعددية

II التقليدية والحداثة

III لا عقلانية التنمية

الخاتمـــة :

بيبليوغرافيا ص 271

ملحـــق ص 300

الفهـــرس ص 321

CODESRIA - BIBLIOTHEQUE